مذكرات

شارل ديجول

خليل حنا تادرس



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مذكرات شارل ديجول

المــؤلف : خليل حنا تادرس

رقم الإيداع : **٢٠١٤/١٧٠٣٢**

الطبعة الأولى ٢٠١٤



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

■ مقدمة

القيادة فن ...

وفن القيادة يصنع رجالا عظماء يديرون الأعمال الناجحة سواء في الشركات أو المصانع ، أو الأعمال التجارية . أو غيرها ..

القيادة تصنع النجاح ، وترفع من قيمة الرجال والنساء ، وتقدم الشعوب والأمم.

والقادة هم الذين يصنعون التاريخ ، هم الذين يصنعون المجد والعظمة لبلادهم.

القادة هم الذين يحافظون على سمعة أوطانهم ورفعة شأن هذه الأوطان .

القادة هم الذين يقودون ويرفعون من شأن شعب بلادهم وتقويتهم معنويا واقتصاديا وسياسيا.

والمارشال شارل ديجول هو أحد هؤلاء القادة الذي حقق النصر والعظمة والحرية ، والاستقلال لبلاده ، لما حقق من انتصارات وإلحاق الهزائم بالعدو الغاشم ، وجعل فرنسا دولة عظيمة مثل بقية الدول العظمى ، دولة مستقلة ذات سيادة وكيان .

وليس من شك في أن ديجول كان من أعظم قادة التاريخ لرجاحة مبتكراته الحربية ، والمبادئ التي وضعها للهجوم والدفاع ، واستغلال مبدأ المفاجأة والمباغتة إلى أقصى الحدود ، واستيعابه الفائق لنفسية أعدائه.

لقد استطاع ديجول بذكائه الحاد وقوة تفكيره ، وما لديه من خبرات اكتسبها خلال حياته العسكرية أن يخوض أعنف الحروب ، وأن يلحق بالعدو الهزيمة والعار.

لقد حُبكت حوله المؤامرات الدنيئة ، ولكنه استطاع بقوة تفكيره أن ينتصر على هذه المؤامرات ، ولقد حاول الإرهابيون اغتياله عدة مرات ، ولكن الله أنقذه من تلك المحاولات الدنيئة.

حاول المنافسون منافسته ومحاربته ، ولكنه انتصر عليهم.

كما حاول هتلر أن يخضع فرنسا تحت نير الاستعمار الغاشم ، ولكنه فشل.

محاولات عديدة . ومؤامرات دنيئة ، ولكن ديجول استطاع بذكائه وعبقريته أن يقضي على هذه المؤامرات ، وتلك المحاولات ، ويحقق الحرية والاستقلال.

ولقد كان انتصار ديجول في ميدان الحرب البداية الحقيقية لمجده ، ودلَّ هذا الانتصار على دهاء وعبقرية ، وسعة حيلة في مباغتة الأعداء في كل المواقع ، كما دلَّ على براعة في استغلال الدعاية ، تمكن بها ديجول من أن يرفع عن كواهل شعبه أغلال الاستبداد ، فاستقبلوه استقبالا حماسيا رائعا ، وأعدت له باريس عند عودته من ميدان الحرب استقبالا رائعا.

ومما هو جدير بالذكر ، أن الجنرال ديجول في آخر مرحلة رئاسية له ، كانت سياسته موضع نقد شديد ولم يوافق عليها بعض معارضيه ، وقتئذ ظهرت في الأفق ، وعلى أرض وطنه الحبيب حركة سياسية جديدة مثل حركة تمرد وطالبته بالاستقالة ، وهتفت ضده وطالبته بالرحيل فأخبرهم أنه على استعداد أن يقدم استقالته ويرحل بعد إجراء انتخابات جديدة والاحتكام للصندوق .

وفعلا أجريت الانتخابات ، وكانت نتيجة هذه الانتخابات أن فاز بنسبة ٥٢.٤٪ ، ولم ترضه هذه النتيجة ، وعلى الفور قدم استقالته وتنازل عن الرئاسة دون إراقة قطرة دماء واحدة.

وكان هذا الموقف . موقفا رائعا يضاف إلى العديد من مواقفه الرائعة التي خلقت منه رجلا عظيما يعمل على مصلحة وطنه ورضاء شعبه .

ولهذا ..

من حق فرنسا العظيمة .. فرنسا الحرة .. أن تفخر بهذا الرجل العظيم وتكتب اسمه بحروف من ذهب في سجل الخالدين.

وختاماً : عزيزي القارئ

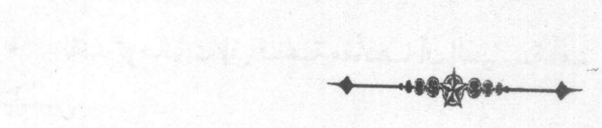
لك مني ألف تحية والسلام ؟؟؟

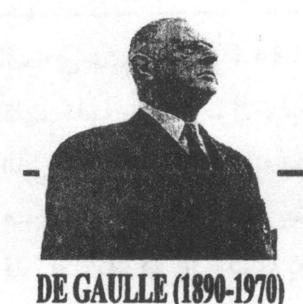
خليل حنا تادرس

■ أجمل أقوال شارل ديجول

- الصمت أقوى أسلحة السلطة.
- لقد توصلت إلى قناعة مفادها أن السياسة أمر أكثر جدية من أن يُترك للسياسيين.
- المقابر مليئة برجال لا غنى عنهم.
- الزعيم الحقيقي يبقى دائما في جعبته عنصر من عناصر المفاجأة لا يمكن للآخرين أن يستوعبوه، لكنه يُبقى أفراد شعبه متحمسين ومبهوري الأنفاس.
- لا تجدي السلطة دون هيبة، ولا الهيبة دون البُعد.
- لا يعطي المجد ذاته إلا لمن يحلم به دوما.
- قوي الشخصية عندما يواجه مصيبة يعود إلى نفسه، فهو يفرض طابعه الخاص على الفعل، ويتحمل المسؤولية عنه، ويتملكه.
- بما أن رجل السياسة لا يصدق أبدا ما يقوله، فإنه يفاجأ إذا ما صدقه أحد.
- ما الحكم إلا الاختيار من بين العيوب.
- لا تتخل أبداً عن المبادرة.
- ليس للدول أصدقاء، بل مصالح فقط.
- لا يمكن لدولة لا تملك قنبلة نووية أن تعتبر نفسها حرة تماما.
- أحترم من يقاومونني، لكني لا أستطيع احتمالهم.
- رجل السياسة الحق هو ذلك الذي على استعداد للمخاطرة.

- لا يمكن تحقيق أي شيء عظيم دون عظماء، ولا يكون العظماء عظماء إلا إذا كانوا عاقدي العزم على أن يكونوا كذلك.
- إن الحرب ينبغي ألا تتوقف ، والأرض واسعة يستطيع كل إنسان أن يجد مكانا له فيها إن هو أراد ، وإذا كتب الله لي الحياة فسوف أحارب وأحارب في أي مكان أتواجد فيه ، ولن أتراجع مهما طال الزمن حتى أهزم العدو.




DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الأول

تولية الجنرال ديجول الحكم

مما لاشك فيه أنه بحلول سنة ١٩٥٨ كانت الثورة الجزائرية، وهذا ما عقد أمور العسكريين والسياسيين على حد سواء في الجزائر وفرنسا وتسبب في أزمة سياسية فحواها عزوف زعماء الأحزاب عن تشكيل الحكومات الفرنسية أو حتى المشاركة فيها نظرا لتردي الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي نتيجة حرب الجزائر.

وهذا ما أباح لمجموعة من الضباط والإداريين الفرنسيين تشكيل لجنة في الجزائر عرفت باسم لجنة الإنقاذ العمومي في الثالث عشر من مايو ١٩٥٨ ، وضمت كل من الجنرال ماسي والعقيد ترانكيي ، الغقيد ديكاس ، العقيد تومازو ، بيار لاقايارد ، بول مورو ، غابريال مونتيني ، جوزيف جوليفي، رودولف بارشين، آروند بيرو وأندري بوديي ، ودعت هذه اللجنة إلى تشكيل حكومة إنقاذ أو خلاص في فرنسا يشرف على رئاستها الجنرال ديجول ، وكان اختيارهم للجنرال ديجول استنجادا بالرجل التاريخي والذي اعتبروه رجلا يرفض الهزيمة ، وأنهم كقادة عسكريين لا يمكنهم الوثوق إلا برجل كالجنرال ديجول ، ولن يتقبلوا الأوامر من أية حكومة لا يكون هو على رأسها ، وأعلنوا ذلك في الثالث عشر من مايو ١٩٥٨ على الساعة الثامنة والنصف ليلا من على شرفة المندوبية العامة في الجزائر العاصمة ، أمام جمهرة كبيرة من الأوربيين الذين هللوا للجنة وبمجيء الجنرال ديجول للحكم في فرنسا ، وقد سبق هذا النداء عدة محاولات لإقناع الجنرال ديجول بتولي زمام الأمور بفرنسا كالتي قام بها الجنرال سالان في

الحادي عشر من مايو ١٩٥٨ وكذا عدة اتصالات به مفادها أن الأوربيين في الجزائر كلهم كلمة واحدة حول توليه الحكومة في فرنسا، وعبر ديجول في مذكراته عن النداء الذي وجهه ماسي ولجنته من شرفة المندوبية العامة أمام حشود من الأوربيين أنه هيجان للشعب الجزائري يطالب فيه الجنرال ديجول بتولي الحكم ، وكان بيار فليملان قد كلف بتشكيل الحكومة بعد استقالة حكومة فليكس جايارد في الرابع عشر من مايو ١٩٥٨ ، ولاقى بيار فليملان معارضة شديدة في الجمعية الوطنية الفرنسية لمشروع حكومته حيث بلغ عدد المعارضين والممتنعين ٣١٩ صوتا مقابل موافقة ٢٧٤ صوتا ، وهذا رغم نداءات رئيس الجمهورية روني كوتي بإنجاح حكومة فليملان إلى السياسيين والعسكريين حيث جاء في خطابه يوم الرابع عشر من مايو مناشدا إياهم : « عدم إرهاق مآسي الوطن بانقسام الفرنسيين » لكن كل هذا لم يفلح في حل الأزمة السياسية والعسكرية الفرنسية حيث استقال رئيس الأركان العامة الجنرال إيلي في الرابع عشر من مايو.

وعقد الجنرال ديجول ندوة صحفية بقصر أورسي في التاسع عشر من مايو ، عبر فيها على أن ما جرى في الجزائر منذ أربع سنوات هو امتحان صعب لفرنسا حيث حجبها على الساحة الدولية، ووصف حالة التشنج بين العسكريين في الجزائر والسلطات في فرنسا أنها أزمة وطنية خطيرة جدا ، نتيجة للعجز، وانتقد بشدة مقولة « ديان بيان فو » الدبلوماسي التي صرحت بها وزارة الجزائر، وثمن جهود العسكريين والجيش في تماسكهم في الدفاع عن فرنسا على حد تعبيره ، وحول سؤال عن كيفية تعامله مع الثورة الجزائرية دعا إلى «طمأنة كل الفرنسيين، ووعد بالصرامة والحزم اللازمين للتعامل مع المتمردين».

وفي الجزائر بقيت الأمور معقدة بين لجنة الإنقاذ والحكومة الفرنسية الجديدة وفي هذه الظروف هدد الجنرال سالان ومجموعة من الضباط في الجزائر بالزحف نحو باريس إذا لم يتسلم الجنرال ديجول الحكم في فرنسا ، واتسعت دائرة المطالبين بالحكم للجنرال ديجول وشملت سياسيين من كل الأحزاب وحتى وزراء في الحكومة الحالية كالاشتراكي جي موللي الذي أعلن انضمامه إلى المؤيدين للجنرال ديجول ، ودخلت نقابات العمال في إضراب وازداد الوضع تعفنا عندما احتلت فرقة عسكرية من الجزائر جزيرة كورسيكا في الرابع والعشرين من مايو ، واستطاعت بسهولة التصدي لفرقة

الشرطة التي بعثت من مرسيليا لتحرير الجزيرة .

والتقى الجنرال ديجول برئيس الحكومة بيار فليملان في السادس والعشرين من مايو ، وعرض عليه ديجول التنحي بصفة رسمية ، ثم أصدر ديجول بيانا أعلن عن دخوله في الإجراءات اللازمة لتشكيل الحكومة، ثم دعا القوات البرية والبحرية والجوية العاملة في الجزائر إلى العمل تحت أوامر قادتها الرسميين الجنرال سالان والأميرال أبوانوّ والجنرال جوهو وعدم الانصياع إلى أية أوامر أخرى.

وفي الثامن والعشرين من مايو اضطر بيار فليملان إلى تقديم استقالة حكومته والتي لم تعمر أكثر من أربعة عشر يوما .

ولم يكن من أمر رئيس الجمهورية الفرنسية روني كوتي غير أن يكلف الجنرال ديجول بتشكيل الحكومة من أجل إنقاذ فرنسا من شبح الانقلاب ، ووجه الرئيس الفرنسي رسالة إلى الجمعية الوطنية الفرنسية بغرفتيها يشيد فيها بالجنرال ديجول «ألمع الفرنسيين ، الذي كان رئيسنا في أحلك سنوات تاريخنا ، في سبيل استعادة حريتنا ، والذي بعد أن ضمن لنفسه الإجماع الوطني ، رفض الدكتاتورية ليقيم الجمهورية » ووافق الرئيس على خطة الجنرال ديجول التي بناها على توسيع صلاحياته وحل البرلمان وإعداد الدستور الجديد وعرضه على الاستفتاء العام ، وفي الفاتح من جوان شكل ديجول حكومته وعرض مشروعها أمام الجمعية الوطنية الفرنسية واحتفظ ديجول لنفسه بملف الجزائر، كما أبقى على بيار فليملان نائبا له رفقة جي موللي .

وشكل ديجول لجنة لإعادة صياغة الدستور بحيث يعطي لرئيس الجمهورية صلاحيات واسعة ويجمع كل السلطات لديه ، فهو الذي يعين الحكومة ويرأس اجتماعاتها ويعين المسؤولين المدنيين والعسكريين والقضاة وهو قائد القوات ، إضافة إلى صلاحية حله للجمعية الوطنية ، واقتراح الاستفتاء .

وبعد المصادقة على الدستور الجديد ونجاحه في الاستفتاء ب١٧ مليون مصوت بنعم يكون ديجول قد دشن الجمهورية الفرنسية الخامسة والتي اعتلى فيها سدة رئاسة الجمهورية يوم الحادي والعشرين من ديسمبر ١٩٥٨، حيث انتخبته الهيئة الناخبة التي حددها هو والتي تتشكل من النواب وأعضاء مجلس الشيوخ والمستشارين العامين

ورؤساء البلديات ، وخاطب الشعب الفرنسي في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩٥٨ وتعهد بإعادة الهدوء إلى الجزائر وكذا الرخاء الاقتصادي وتحسين الظروف المعيشية في فرنسا والجزائر ، وإعادة فرنسا إلى مكانتها ومهابتها الدولية .

وباشر الجنرال ديجول مهامه كأول رئيس للجمهورية الجديدة في الثامن من جانفي ١٩٥٩ .

ومهما كان من أمر الصراع الذي احتدم في فرنسا حول فرضية التحريك من طرف الجنرال ديجول ، رغم نفيه لذلك، فإن السؤال الذي يطرح هو حول الضمانات التي قدمها الجنرال ديجول للعسكر أو على الأقل برنامجه حول الحرب في الجزائر ، فمنذ الوهلة الأولى نتبين أن الجنرال ديجول قد نال رضا الصقور الفرنسيين وهم ناضلوا وعرضوا أمن بلادهم للخطر، بل أكثر من ذلك فقد احتلوا جزءا من الوطن الأم من أجل ذلك ، وفي هذا التناسق صفقة سياسية كان لوبي المعمرين الجزائريين في فرنسا هو العراب الكبير فيها لبقاء سياسة الاستغلال في الجزائر ومن أجل ضمان جهد فرنسي كبير من الوطن الأم لمواجهة الثورة الجزائرية بكل حزم خاصة بعد أن فشلت الحكومات السابقة في القضاء على الثورة وإحداث التقدم العسكري على الأقل ، بل أبعد من ذلك فقد صرحت الحكومة بديان بيان فو الدبلوماسي والذي عبر عنه الجنرال ديجول بقوله أن فرنسا احتجبت عن الساحة الدولية نتيجة لحرب الجزائر، ومهما يكن فإن العبارتين تؤديان نفس الغرض .

إن مجيء الجنرال ديجول إلى حكم فرنسا وهو ذلك الرمز التاريخي بالنسبة لكل الفرنسيين ، وهذا المجيء بهذه بطريقة تسجل عليه عدة مآخذ ، لنستشف منه شدة الأزمة السياسية الخانقة والتي كادت تؤدي إلى الانقلاب العسكري على طريقة دول العالم الثالث ، كل هذا يعطينا صورة واضحة عن قوة الثورة الجزائرية وصمودها ، ومدى تأثيرها في- الوطن الأم- على خلفية من سيقضي على الثورة الجزائرية ، وكذلك فإن لوبي الأقدام السوداء -الذي أصبح الأقوى في فرنسا- كان هو الآخر يسير السياسة الفرنسية بهاته الخلفية .





DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثاني

التحركات الفرنسية في فيتنام

مع نهاية القرن السابع عشر، أغلق كلّ من الإنجليز والألمان مرافقهم في هانوي، وأقفل الفرنسيون مركزهم في فوهيين . لم تنشط إلا البعثات التبشيرية التنصيرية، التي حققت نجاحات ملحوظة. وكانت الكنيسة الكاثوليكية أشدها تأثيراً، إذ تهافت مئات الفيتناميين على اعتناق الكاثوليكية، ودانت بها مناطق كثيرة. وقد حاربت هذه المناطق، بعد ذلك، عام ١٩٤٦ ، كلاًّ من القوات الاستعمارية الفرنسية، والقوات الشيوعية الفيتنامية. ولذا، فرّ سكان القرى الكاثوليكية جميعاً إلى الجنوب، في عام ١٩٥٤، عقب هزيمة الفرنسيين، وإرساء حكومة شيوعية في فيتنام الشمالية؛ رغبة في العيش في ظل نظام نجو دنه دييم ، الذي كان أسلافه، قد تحولوا إلى المسيحية، منذ قرون.

منذ البداية، لم يرحب الأباطرة الفيتناميون كثيراً بالبعثات التنصيرية؛ ولكن ذلك لم يمنع جماعات الجيزويت من النشاط في دعوتهم؛ فأسسوا بعثة لهم في فايفو. كان لأحد أبرز رجالهم، ألكسندر دي رودس ، الفضل الكبير في فتح أبواب فيتنام أمام الفرنسيين؛ إذ أجاد لغة الفيتناميين، ونجح في التودد إليهم، بل أصبح حَظِيَّ إمبراطور فيتنام الشمالية، ترنه ترانج، بعد أن أغدق عليه الهدايا الفرنسية، ولا سيما ساعة متطورة مطلية بالذهب. ومن ثَم، سمح له الإمبراطور بالتحرك، بكلّ حرية، داخل فيتنام؛ فنجح، في غضون عامَين، في تنصير نحو سبعة آلاف فيتنامي، بينهم ١٨ من طبقة النبلاء.

بدأت جماعات من المتنصرين تطالب السلطات بتغيير القانون، ومقاومة ظاهرة تعدد الزوجات؛ فقرر الإمبراطور طرد ألكسندر دي رودس من البلاد، فرحل إلى الجنوب، ثم

إلى ماكاو ، ثم عاد إلى فيتنام الشمالية، فقبض عليه، وأُودِع السجن. ثم طرد من البلاد، فرحل إلى روما، حيث أخفق في استعطاف بابا الفاتيكان؛ فعاد إلى فرنسا، ونجح في إغراء كثير من القادة، وأصحاب الرأي، ورؤساء الشركات التجارية، بغزو فيتنام، التي، حسبما زعم لهم، «تفيض بالخيرات والثروات»، والتي «يستخدم صيادوها شِباكاً من الذهب في صيد الأسماك».

شرع الفرنسيون، بعد وفاة دي رودس، يخططون للغزو؛ فنشطت الإرساليات التنصيرية، والشركات التجارية، وتأسست شركة تجارية كبرى في روين، كانت مهمتها الظاهرة تنشيط التجارة مع فيتنام. أمّا مهمتها الباطنة، فهي نقْل أمهَر القساوسة الدعاة إلى تلك البلاد، وتيسير مهامهم وإقامتهم؛ فتأسست شركة الهند الشرقية ، التي نشطت في المهام التنصيرية، خلال القرن الثامن عشر. وفي فرنسا نفسها نجحت الجماعات، الداعية إلى غزو فيتنام، في تهيئة الرأي العام الفرنسي لذلك، من خلال تنويه النشرات المتوالية بالثروات الفيتنامية الطائلة.

انتهزت فرنسا الاضطرابات في فيتنام، فساعدت حركة تمرد تايسون ، عام ١٧٧٢، على أسرة نجوين. وسرعان ما قويت شوكة المتمردين، الذين تمركزوا في منطقة كوينهون، إذ انضم إليهم كثير من المزارعين، الناقمين على مستغليهم، كبار ملاك الأراضي الزراعية. فاستولوا، خلال ثلاث سنوات، على سايجون؛ ثم على ميناء صغير، حيث قتلوا آلاف التجار الصينيين. وفرض جيش تايسون نظاماً ضريبياً؛ وبرنامج إصلاح زراعي، تضمن توزيع الأراضي على القرويين الفقراء. وسمح بنشاط الإرساليات التنصيرية الكاثوليكية، الفرنسية؛ بل وفّر لها الحماية العسكرية الكافية. اندفع الجيش إلى الشمال، وبعد إخضاعه للجنوب، حيث أطاح أُسرة ترينه ؛ وتمكن من توحيد فيتنام كلها.

رفض «نجوين أنه» أحد شباب أُسرة نجوين، الخضوع والاستسلام للهزيمة، فشرع يقاوم، مع رجاله؛ فتمكن من استعادة سايجون. والتقى الراهب الفرنسي الشهير، بينو دو بيهان ، الذي كان البابا كليمنت الرابع عشر ، قد عيّنه، عام ١٧٠٠، أسقفاً لمدينة أدران ؛ فكان للقائهما أهميته القصوى في العلاقات الفرنسية ـ الفيتنامية.

كان الأسقف يقيم بجزيرة فو كوك ، حينما لجأ إليها نجوين أنه، أثناء صراعه مع أسرة تايسون، فآواه وأخفاه؛ ليصير، بعد ذلك، مقرباً منه، ومستشاراً له. ولم يتردد في نصحه، عام ١٧٨٤، حينما استرد سايجون والمناطق المجاورة لها، جيش تايسون، بأن يستنجد على خصمه بالفرنسيين؛ فانتصح، وعهد إلى الأسقف بمفاوضة الحكومة الفرنسية في هذا الشأن؛ وأرسل معه ولده؛ إثباتاً لحسن نيته، وعزمه على ذلك.

رفض الملك الفرنسي، لويس السادس عشر الفكرة ؛ خوفاً من تبعاتها. غير أن بينو نجح في إقناع مستشاري الملك بالفكرة، حين لَوَّح لهم بأن إنجلترا، سوف تنتهز الفرصة، وتسبق فرنسا إلى فيتنام. فبادر وزير الخارجية الفرنسي، الكونت دو مونتمورين ، في ٢٨ نوفمبر ١٧٨٧، إلى توقيع اتفاقية، نصت على دعم نجوين أنه بـ١٦٥٠ جندياً فرنسياً، مع الأسلحة والذخيرة، والتكفل بنقلهم؛ في مقابل تخلِّي فيتنام عن مدينة توراني، وجزيرة بولو كوندور ؛ فضلاً عن منح فرنسا امتيازات تجارية، وأسبقية على باقي الدول الأوروبية الأخرى.

بيد أن لويس السادس عشر، أرسل، سراً، إلى توماس دو كونواي ، حاكم القاعدة الفرنسية في بوندتشري ، مَن اتفق معه على نقض الاتفاق، واحتجاز بينو لديه. ولم يخلِّص الأسقف من ورطته إلا اندلاع الثورة الفرنسية، وإطاحة الحكم الملكي، عام ١٧٨٩؛ إلا أنه كان مصمماً على مواصلة التخطيط لغزو فيتنام. فأغرى ثُلة من التجار الفرنسيين في الهند، بشراء سفينتَين، وأسلحة وذخيرة، واستئجار نحو أربعمائة مهاجر من القوات الفرنسية، ووضع كلّ أولئك في إمرة نجوين أنه. وتولى هؤلاء المهاجرون تدريب جيش فيتنامي، عديده خمسون ألفاً، فيهم كثير من الكاثوليك.

وهكذا، تمكن نجوين أنه، عام ١٧٩٩، من هزيمة جيش تايسون، في كوينهون . وتُوِّج، عام ١٨٠٢، إمبراطوراً، في هوي ، واتخذ لقب جيا لونج. ولم يظهر أيَّ رحمة تجاه خصومه، أحياء وأمواتاً. وأعلن أن فيتنام مدينة ديناً أبدياً خالداً لكلٍّ من فرنسا، وبينو، الذي مات ودفن في سايجون. وجعل أربعة فرنسيين من كبار مستشاريه، في البلاط الإمبراطوري. وتوثقت العلاقات الفرنسية ـ الفيتنامية؛ إلا أنها ما لبثت أن اعتراها الفتور؛ نتيجة أطماع نابليون بونابرت الشخصية في الهند الصينية، وانشغاله بغزو أوروبا.

أبحر الأسطول الفرنسي، المكون من ١٤ سفينة حربية، و٢٥٠٠ جندي فرنسي وأسباني، في يونيه ١٨٥٨، إلى توراني. وتمكن، في ٣١ أغسطس ١٨٥٨، من الاستيلاء على الميناء، وإخماد المقاومة. وأراد ريجول دو جَنْوِيِّ شن هجوم على المدينة الإمبراطورية، هوي، ولكنه لم يستطع؛ لافتقاره إلى الزوارق والمعدات اللازمة للملاحة النهرية. فاضطر إلى البقاء في توراني، وقبل أن يترك فيها حامية صغيرة، ويبحر جنوباً، عام ١٨٥٩، إلى سايجون، ومعه تسع سفن؛ وتمكن، في أسبوعَين، من الاستيلاء عليها. غير أنه لقي مقاومة شرسة من رجال حرب العصابات، أجبرته على ترك حامية فيها، والعودة إلى توراني. وإزاء المقاومة الشرسة المستمرة، وتفشي الأمراض والأوبئة الغامضة، التي أودت بكثير من الجنود الفرنسيين، اضطر إلى إرسال وفد، لمفاوضة الإمبراطور تو دوك؛ ولكن الأخير رفض مقابلته. فبادر ريجول دو جَنْوِيِّ إلى الاستقالة، وعاد إلى فرنسا.

عَجِل الإمبراطور نابليون الثالث إلى حملة جديدة، في أواخر ١٨٦٠، بقيادة الأدميرال ليونارد فيكتور جوزيف شارنيه ؛ بهدف نجدة الحامية الفرنسية في سايجون.

وقد تمكنت هذه الحملة، في يوليه ١٨٦١، من الاستيلاء على المدينة، بعد إحراقها، وأعلنتها مدينة فرنسية. ثم توغلت في دلتا الميكونج؛ ما اضطر الإمبراطور تو دوك، بعد عام، إلى إبرام اتفاقية صلح مهين مع فرنسا؛ بسبب احتلالها سايجون، والأراضي المتاخمة لها، وهي مناطق إمداد فيتنام بالأرز؛ ومعاناة جيوشه المجاعة والمالاريا والتيفوس؛ ونشاط حركات التمرد عليه في شمالي فيتنام. نصت الاتفاقية على تخلِّيه عن ثلاث محافظات، متاخمة لسايجون؛ إضافة إلى جزيرة بولو كوندور، والسماح للإرساليات التنصيرية بالدعوة، بحرية؛ وفتح ثلاثة موانئ أمام التجارة الأوروبية؛ وتخويل فرنسا حق منع فيتنام من منح أيّ جزء من أراضيها لأيّ دولة أخرى.

لم تَطُل نشوة فرنسا بانتصارها؛ إذ واجهتها، في أواخر ١٨٦٢، مقاومة شرسة، في شمالي فيتنام وجنوبيها؛ ما اضطرها إلى الاستنجاد بكلٍّ من الصين والفيليبين. وازداد موقفها سوءاً؛ حتى إن الخطر، بات يحدق بمستقبلها في فيتنام؛ فاحتاج نابليون الثالث إلى اعتمادات ضخمة، استدعت استعانته بحاكم المكسيك، ماكسيمليان.

أمّا الإمبراطور تو دوك، فقد عرض على فرنسا، أن تعيد إليه المحافظات الثلاث، في مقابل أن يرضى بفرض حمايتها على المحافظات الست، التي تشكل الهند الصينية (فيتنام الجنوبية) وسيطرتها الكاملة على سايجون؛ ومنحها امتيازات تجارية في فيتنام؛ إضافة إلى جزية سنوية. ولكن القادة العسكريين الفرنسيين، رفضوا هذه العروض؛ واضطروا نابليون الثالث إلى رفضها. وتحركت قواتهم، عام ١٨٦٤، بقيادة الأدميرال بيير بول ماري بينوا دي لاجرانديير، إلى كمبوديا، حيث قبضوا على ملكها، وهو يحاول الفرار إلى سيام ، وأجبروه على الإقرار بفرض الحماية الفرنسية على بلاده. واستولوا، عام ١٨٦٧، على ثلاث محافظات، في غربي الهند الصينية؛ بذريعة أن الفيتناميين في هذه المنطقة، يهددون الوجود الفرنسي في كمبوديا.





DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثالث

سقوط فيتنام في أيدي الفرنسيين

سقط نابليون الثالث، عام ١٨٧٠، إثر انتصار بروسيا على جيوشه. وأصبحت باريس ميدان حرب، بين الجمهوريين والملكيين. وطالب الفرنسيون بحشد الجهود لتحرير الألزاس واللورين من قبضة ألمانيا؛ بدلاً من صرفها في مد نفوذ فرنسا عبْر البحار. وفي عام ١٨٧٣، أُخرجت القوات الفرنسية من تونكين. ثم أبرم القائد الفرنسي، بول لويس فيلاستر، اتفاقية مع تو دوك، في هوي؛ أكدت سيطرة غير مشروطة لفرنسا على جميع أنحاء الهند الصينية؛ وفتح النهر الأحمر أمام التجارة؛ وسمحت للفرنسيين بإنشاء قنصليات لهم في ثلاث مدن فيتنامية؛ واستعداد فرنسا لمساعدة الإمبراطور على الدفاع عن بلاده ضد أيّ هجوم أجنبي. وهكذا، تخلّى الإمبراطور عن جنوبي فيتنام، في مقابل الحفاظ على سيطرته على وسطها وشماليها. وكان اعترافه بسيطرة فرنسا على الهند الصينية، سبباً لتأزُّم المفاوضات الفرنسية ـ الفيتنامية، على مدى سبعين سنة مقبلة.

انقسم برلمان فرنسا، في شأن سياستها الخارجية، قسمَين:

تزعم أحدهما جورج كليمانسو ، الملقب بالنمر، والذي سيقود القوات الفرنسية في الحرب العالمية الأولى. ورأى أن على فرنسا، أن تتخلى تماماً عن سياستها الاستعمارية التوسعية، التي نزفت مواردها، وبددت إمكاناتها؛ وأن تهتم بإعادة علاقتها بأوروبا وتحسينها. وقد أيده على ذلك نواب حزب المحافظين جميعاً.

وتمثل الآخر في ورثة فكر الثورة الفرنسية، الذين رأوا ضرورة إخضاع فيتنام كلّها

لنفوذ فرنسا. وترأسهم جولي فيري ، رئيس الوزراء الفرنسي، الذي قال: إن على فرنسا، أن تتوسع عبْر البحار، رافعة شعار: «نشر المدنية والحضارة في الشعوب الضعيفة»؛ و«السياسة الاستعمارية وليدة السياسة الصناعية».

وانتهى الانقسام، بعد خمس سنوات، إلى غلبة الفريق الأخير، وفرض رأيه؛ ليعيَّن شارل ماري لو مير دو فيلر ، عام ١٨٧٩، أول حاكم مدني للهند الصينية. وقد استهل عمله بتوجيه سريتَين، بقيادة النقيب هنري ريفيير ، إلى فيتنام الشمالية. فوصل إلى هانوي، وقصف قلعتها، وهزم رجالها؛ فانتحر حاكمها، هونج ديو ، شنقاً. وواصل هنري ريفيير تقدُّمه، فاحتل المنطقة بين هانوي والبحر، واستولى على مناجم الفحم في هونجي ؛ للحيلولة دون استيلاء البريطانيين عليها. غير أنه لم يتمكن من الحؤول دون مكمن فيها، أودى به؛ وطاف رجال المقاومة برأسه، من قرية إلى قرية.

انتهز الأسطول الفرنسي، بقيادة فرانسوا هاموند ، تناحر ثلاثة أمراء على العرش، بعد وفاة تودوك، عام ١٨٨٣، ليدنو من مصب نهر بيرفوم بالقرب من هوي، وينذر الفيتناميين، إنْ لم يستسلموا، خلال ٢٤ ساعة، أنهم سيلاقون ما لا يتخيلونه من المصائب؛ بل سيُمْحَى اسم فيتنام من التاريخ. ولم ينتظر ردهم، وإنما طفق يقصفهم، حتى أجبرهم على توقيع اتفاقية، تنص على فرض الحماية الفرنسية على فيتنام كلّها، باستثناء منطقة الهند الصينية، التي هي، بالفعل، مستعمرة فرنسية. ومن ثَم، بدأت فرنسا تفرض موظفيها على مراكز السلطة الفيتنامية، بما فيها قصر الإمبراطور. وتولت تنظيم التجارة الفيتنامية، وإدارة شؤونها الخارجية، وجمع الرسوم. واختفى اسم فيتنام من الوثائق: الفرنسية والغربية. وقسمت، إدارياً، ثلاث مناطق: تونكين، وأنام، والهند الصينية. وأصبح مواطنو فيتنام كلّهم، يطلق عليهم اسم الأناميين .





DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الرابع

المواجهات والعمليات العسكرية

لم يستكن الفيتناميون لمصيرهم، وإنما عمدوا إلى المقاومة. وانبرت الصين لمساعدتهم بإرسال قوات صينية إلى تونكين. وفي نهاية عام ١٨٨٣، بادر الفرنسيون، الذين فاق عديدهم، في المنطقة الآنفة، عشرين ألف رجل، بقيادة الأدميرال أمدي أناتول بروسبر كوربيت، إلى شن عمليات هجومية على الفيتناميين، استمرت عقدَين من الزمان. فقد انطلقت القوات الفرنسية شمالاً، من هانوي؛ وانفرق رتل منها، عبْر وادي النهر الأحمر لمواجهة الفيتناميين، الذين ساندتهم قوات صينية، في سونتاي. واتجه رتل آخر إلى ثاي نجوين، فاستولى عليها. واستولى رتل ثالث على توين كوانج، حيث تمكن من تمشيط منطقة النهر الأسود. وكان الفرنسيون، في كثير من الأحوال، يذبحون الأسرى: الفيتناميين والصينيين.

في أوائل عام ١٨٨٥، قصفت سرية بحرية فرنسية، بقيادة الأدميرال كوربيت، المدينة الصينية الساحلية، فوزهو، ثم ميناء كيلونج، في جزيرة تايوان. وانطلقت القوات الفرنسية، عبْر التلال الحدودية، لتحتل مدينة لانجسون الإستراتيجية. استماتت القوات الصينية في مواجهة الفرنسيين، وجرحت قائدهم؛ ففرُّوا، تاركين أسلحتهم وعتادهم.

أعادت تلك النتائج إلى البرلمان الفرنسي انقسامه. إذ طالب رئيس الوزراء، جولي فيري، بمائتَي مليون فرنك إضافية؛ لدعم المجهود العسكري في الهند الصينية. فعارضه كليمانسو وحزبه معارضة شديدة، بل اتهمه بالخيانة العظمى؛ لتوريطه فرنسا في فيتنام. وألقى خطاباً، بات سُنَّة، يستن بها السياسيون الفرنسيون؛ حتى إن نائب وزير الخارجية

الفرنسي، جورج بال، استلهم ذلك الخطاب، عام ١٩٦٥، في رسالته إلى الرئيس الأمريكي، ليندون جونسون؛ إذ يقول: «حينما يتعرض رجالنا للأخطار، مرة ثانية، مثلما يحدث اليوم، سوف نكون مطالبين بدفع مزيد من الأموال، ومزيد من الرجال؛ ولن يكون في مقدورنا أن نعترض. وسوف نفقد الملايين إثر الملايين، والرجال إثر الرجال؛ ونمضي إلى الهلاك. أيها السادة، لا بدّ من سد هذا الطريق».

ورفض البرلمان الفرنسي مطلب رئيس الوزراء. ونزع منه الثقة. وصار هذا الرئيس يُزْدَرَى بتسميته فيري التونكيني، بدلاً من جولي فيري. أمّا القوات الفرنسية في فيتنام، فقد شنت هجوماً شديداً على قصر الإمبراطور الفيتنامي الجديد، هام نجهي، في هوي، وحاصرته. ثم أحرقت المكتبة الإمبراطورية، بكلّ مخطوطاتها ومراجعها العتيقة. ونهبت محتويات القصر الثمينة كلّها، التي قدِّرت، آنئذٍ، بأكثر من أربعة وعشرين مليون فرنك فرنسي.

وفرّ الإمبراطور من العاصمة إلى مرتفعات لاوس. ونصّب الفرنسيون مكانه أميراً شاباً، هو دونج خانه. ثم أمكنهم القبض على الإمبراطور الهارب، ونَفَوْه إلى الجزائر. ولم يُفْتِر نَفْيُه المقاومة الفيتنامية؛ بل اتخذ نداءه، قبل النفي، شعاراً لها: «ليجاهد الأغنياء بأموالهم، والأقوياء بقوّتهم، والفقراء بأبدانهم؛ لتحرير البلاد من الغزاة».

شدد الفرنسيون من قبضتهم على البلاد، وعينوا موظفين مدنيين فرنسيين، ونشروا جنودهم في كلّ مكان. وأنشؤوا، عام ١٨٨٧، اتحاد الهند الصينية، المكون من: الهند الصينية، وتونكين، وكمبوديا؛ وأضافوا إليه لاوس، بعد ذلك.

واستعادت جذوة المقاومة الفيتنامية لهيبها، حينما بادر أحد نبلاء وسط فيتنام، الذي كان مستشاراً للإمبراطور هام نجهي، ورقيباً على كبار رجال الدولة: فان دنه فونج، إلى تكوين جيش قوي من رجال العصابات؛ اتخذ مواقعه على جبل، يطل على قلعة فرنسية في هاتينه، في وسط فيتنام. وشن، طوال سبع سنوات، غارات عنيفة على القوات الفرنسية، طاولت محافظة ثانه هوا، في الشمال؛ وكوانج بنه، في الجنوب. وقسم منطقة عملياته ١٢ قسماً. وتمكن من تصنيع الأسلحة والذخيرة، على غرار الأسلحة الفرنسية، التي كان يستولي عليها رجاله. غير أن ما لم يحققه الفرنسيون بالسلاح، تأتّى لهم بالرشوة

والإغراءات؛ إذ زيّنوا الخيانة لرجال فان دنه فونج، بل لأسرته كذلك؛ فانفض معظم الرجال من حوله، قبل أن يموت، عام ١٨٩٦، متأثراً بالدوسنتاريا.

واستولى الفرنسيون، عام ١٨٩٨، على قاعدة باي سيان، وقضوا على حركة المقاومة في دلتا النهر الأحمر. ووصلت قواتهم إلى لاو كاي ونجاي لو ودين بين فو، حيث استسلمت لهم، بعد مقاومة شرسة، جماعة التاي ديو فان تري.

عمدت فرنسا، إثر هذه الانتصارات، إلى تنظيم البلاد وفق مصالحها الاستعمارية. فأعلنت المنطقة الجنوبية مستعمرة فرنسية خالصة، باسم كوشين شينا (الصين الهندية)؛ والإقليم الشمالي محمية فرنسية، وألغت سلطة الإمبراطور عليه، واستعاضت عنها بمنصب ممثل للإمبراطور في تونكين، يتولاه فيتنامي، يعيّنه الفرنسيون. ثم أعلنت فصل تونكين تماماً عن أنام. ثم استبدلت بمنصب ممثل الإمبراطور مقيماً فرنسياً، تابعاً لمحمية أنام. أنشأت مجلساً وزارياً منتخباً، لفيتنام كلّها، يتناصفه الفرنسيون والفيتناميون، ويرأسه مندوب فرنسي سامٍ. ولم يكن أعضاؤه المنتخبون، نظرياً، إلا، إقطاعيين وكبار تجار وموظفين، متعاونين مع المستعمرين. كما أنشأت مجلساً اقتصادياً ومالياً أعلى للهند الصينية؛ وغرفاً تجارية وزراعية، قلّما شملت عضويتها الفيتناميين. أمّا الإمبراطور، فحرّمت عليه جمْع الضرائب، وقدَرَت عليه مخصصات مالية محدودة، وألحقت الموظفين الفيتناميين في بلاطه، بالإدارة الاستعمارية الفرنسية مباشرة. ولم تُبْقِ له إلا منح الألقاب الشرفية للوجهاء؛ حتى إن المندوب الفرنسي السامي، كان يرأس مجلس العائلة الإمبراطورية.

هوشي منه وبدايات التورط الأمريكي:

استهل الزعيم الفيتنامي، هوشي منه، عام ١٩٣٠، نشاطه في مقاومة الاستعمار، بتأسيس الحزب الشيوعي، في هونج كونج. وإثر انهزام فرنسا، إبان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)؛ وسقوطها في أيدي الألمان، عام ١٩٤٠، وانقسامها إلى حكومتين: إحداهما بزعامة المارشال فيليب بيتان في فيشي ، والأخرى بزعامة شارل ديجول، في المنفى، في لندن، واحتلال اليابان منطقة الهند الصينية، شكل هوشي منه، عام ١٩٤١، حركة الفيت منه ؛ لمقاومة كِلا الاستعمارَين: الفرنسي والياباني (وسيأتي

ذكرها). ولعلّ الولايات المتحدة الأمريكية، شجعته في بداية الأمر، على الاقتداء بالزعيم الشيوعي اليوغسلافي، المارشال جوزيف بروس تيتو ، الذي تحدى موسكو؛ انطلاقاً من نظرتها القاصرة إلى منطقة الهند الصينية، والتي لم تَرَ فيها إلا ميداناً مصغراً للميادين الأساسية الأخرى، في الصين والاتحاد السوفيتي.

وسرعان ما استدركت واشنطن موقفها باتجاهات سياسية، اقترنت بعاملَين أساسيَّين:

١. تحالف أمريكي ـ فرنسي، يمليه مصير فرنسا وأهميته في مستقبل أوروبا الغربية كلّه.

٢. سقوط الصين في براثن الشيوعيين، وتبنّيها سياسة الاحتواء، أو التوسع الشيوعي في المنطقة؛ ما يستدعي بذل الجهود المكثفة، بالسبل كافة، للقضاء عليه.

ومن ثم، تنكرت الولايات المتحدة الأمريكية للشيوعي القديم، هوشي منه، الذي تصدى لحليفتها فرنسا. ورأت أنها لا بدّ أن تدعم فرنسا، بكلّ قوة؛ وهكذا، بدأت تتورط في مستنقع فيتنام. غير أن الأمل، الذي وأده الموقف الأمريكي في صدر هوشي منه، أحيته شرعة الأطلسي، في صيف ١٩٤١، التي أعلن فيها كلٌّ من الرئيس الأمريكي، فرانكلين روزفلت ؛ ورئيس الوزراء البريطاني، ونستون تشرشل ، أمنيتهما إعادة حقوق الشعوب المسلوبة، ومنْحها استقلالها. وظن أنه يمكن الاعتماد على هذا الإعلان، وفاته أن تشرشل، إنما كان يسعى إلى تحقيق الأطماع الأمريكية، المتفقة مع الأطماع الفرنسية، في منطقة الهند الصينية. وغاب عنه أن وعْد روزفلت جميع البلاد الخاضعة للاستعمار الفرنسي بالاستقلال، بعد انتهاء الحرب، ما هو إلاّ تشجيع لحكومة فرنسا الحرة، بقيادة شارل ديجول ، أثناء محاربتها الألمان، عام ١٩٤٢. وإمعاناً في الموقف الأمريكي، أعلن روزفلت، أنه سوف يعمل، بكل ما أوتي من قوة، لإجهاض أيّ أطماع فرنسية في أراضي الآخرين. وفي ١٩٤٥، عرض على الجنرال الصيني المنشق شانج كاي شك ، أن يضم منطقة الهند الصينية، ولكن الأخير اعتذر.

أمّا أروقة وزارة الخارجية الأمريكية، فقد سادها اتجاهان: تمثل أولهما، في المختصين بشؤون الشرق الأقصى، الذين رأوا أن الحكم الاستعماري الفرنسي، في

آسيا، «غير مقبول». ورفعوا مذكرة إلى الإدارة الأمريكية، تحث على ممارسة الضغط على فرنسا؛ لتمنح الهند الصينية «حكماً ذاتياً مستقلاً»؛ وإلا ستكون هناك حمامات من الدماء، واضطراب شديد، لسنوات طويلة، يهددان التقدم: الاقتصادي والاجتماعي، والسلام والاستقرار في المنطقة.

وتجسّم ثانيهما في المختصين بالشؤون الأوربية، الذين قالوا بضرورة دعم فرنسا وتأييدها؛ والحذر من أيّ خطوات، تسبب تأثيراً سيئاً في العلاقات الأمريكية بالحكومة الفرنسية وشعبها.

وانتصر الاتجاه الثاني. وأكد الرئيس الأمريكي، هاري ترومان ، لجورج بيدو، الذي تولّى منصب وزير الخارجية الفرنسي، فيما بعد، أن الولايات المتحدة الأمريكية، تعترف بنفوذ فرنسا في الهند الصينية.

وإمعاناً في مقاومة الشيوعية العالمية، دعمت واشنطن المجهود الحربي الفرنسي، بمليارَين ونصف المليار دولار؛ وهو مبلغ، يفوق مساعدة مشروع مارشال ، لباريس على إصلاح اقتصادها المتدهور، عقب الحرب. وأنشأت في قاعدتها الخاصة، في كونمينج ، عاصمة محافظة يونان الصينية، مركز قيادة لمكتب الخدمات الإستراتيجية ، التابع لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وأَوْلَت اهتمامها مراقبة المد الشيوعي، الصيني خاصة، الساعي إلى إقصاء النفوذ الغربي من المنطقة، والذي حاول دعم الفيتناميين، والاستفادة من تجارة الأفيون، وصفقات الذهب، وتهريب السلاح وغيره.

في ذلك الوقت، كان وضع القوات اليابانية، في المحيط الهادي، قد ساء بشدة. وخوفاً من أن تندفع فرنسا، بعد تحريرها وتكوين حكومتها المؤقتة،برئاسة شارل ديجول، إلى مساعدة دول الحلفاء، في جميع خططهم؛ لاحتلال هذه المنطقة الحيوية اقتصادياً وإستراتيجياً، أعلنت اليابان استقلال كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا. لم يفطن هوشي منه إلى ما يدور في الأروقة الأمريكية، ولم يدرك حساباتها الخاصة. وظل يسعى، طوال الأربعينيات، إلى إقناع المسؤولين الأمريكيين بأهمية إمداده بالسلاح والذخيرة والمعدات الأخرى؛ لقتال اليابانيين، ثم لإخراج الفرنسيين من فيتنام، بمقتضى شرعة الأطلسي. فاتصل بالقنصلية الأمريكية في كونمينج، في أوائل عام

١٩٤٤، طالباً تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ ليشرح قضيته. كما التقى ضباطاً من قوات الحلفاء، وعرض عليهم خدمات رجال حرب العصابات، مقابل إمداده بالسلاح والعتاد. بل أرسل إلى هاري ترومان، في أغسطس ١٩٤٥، يطلب دعمه.

وأنعشت هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية، رغبة الفيتناميين في التخلص من الاستعمارين: الياباني والفرنسي؛ فاندلعت انتفاضة شاملة، عمّت أقاليم فيتنام ومدنها، طوال عشرة أيام كاملة. وعُبِّئ الشعب، ودُرِّب، وسُلِّح. إثر تراجع الفرنسيين إلى المناطق الآمنة، في جنوبي الصين، نجحت القوات الفيتنامية، الموالية للحزب الشيوعي، في الاستيلاء على السلطة.

في النصف الأول من عام ١٩٤٥، كان وضع فيتنام كالتالي :

- عشرات الآلاف من الجنود الفيتناميين يرابطون في المواقع المهمة.
- قوات صينية ترابط في الشمال بعشرات الآلاف تحتجز قوات فرنسية ويابانية.
- قوات فرنسية تحتجزها قوات يابانية، وقوات فرنسية أخرى تتسرب تحت مظلة الحلفاء

الدعم الأمريكي. الغربي لفرنسا

نجحت فرنسا في إعادة فرض نفوذها في الهند الصينية، وخاصة في الجنوب، حيث كان النفوذ الشيوعي ضعيفاً، تقاومه الجماعات الوطنية، والجماعات الدينية المناهضة للشيوعية. غير أنها لم تُحسِن استمالة تلك الجماعات؛ وإنما نفَّر سوء معاملتها كثيراً منهم، ودفعهم إلى الانحياز إلى الشيوعيين. وقد أفلح هوشي منه في التودد إليهم، وإثارة النعرة الوطنية فيهم، وضرورة التعاون على الخلاص من الاستعمار.

كانت فرنسا تظن، أن اعترافها بجمهورية فيتنام الديمقراطية، ولاية مستقلة، في إطار الاتحاد الفرنسي، هو كافٍ لاستتباب الأوضاع. ولكن الخلافات الحادة، في شأن تمام هذا الاستقلال، عجلت بوقوع الصدام بين الطرفين.

تولى فو نجين جياب، قيادة الفيت منه العسكرية؛ وتولّى هوشي منه القيادة السياسية العليا. وكانا قد شكّلا معاً هذه القوات، أول مرة، في جنوب الحدود الصينية، بالقرب

من كاو بانج ، تحت اسم رابطة استقلال فيتنام. ثم حملت اسم الفيت منه، وأشرفا على تسليحها وتدريبها على تكتيكات حروب العصابات، ونشرها في الشمال، وضم ما استطاعا ضمه إليها. وتمكنا من توسيع نطاقها في الجنوب، كذلك، وخاصة في الريف. وبناء على تحالف هوشي منه وشانج فا- كوي ، حاكم محافظة كوانجسي الصينية، المتاخمة للحدود الفيتنامية الشمالية، تولى الأخير إمداد الفيت منه بالسلاح والعتاد والأموال، والقواعد في الصين؛ مقابل التبادل الاستخباراتي التجسسي على خصومه اليابانيين.

قررت فرنسا استدعاء الإمبراطور السابق، باو داي، من منفاه في هونج كونج، ليتولّى حكم ولاية فيتنام المستقلة؛ عسى أن يتمكن من اجتذاب الذين التفوا حول هوشي منه، ويوقف ازدياد انضمام أهالي الريف إليه. ولكن هذا التحرك الفرنسي، جاء بعد فوات الأوان؛ فقد كان الرأي العام، في معظم أنحاء فيتنام، قد آمن بمبادئ التحرر والاستقلال، التي رَوَّجَّها الفيت منه في أنحاء البلاد. ورأت في باو داي رجلاً ضعيفاً، وعميلاً للقوات الاستعمارية على حساب مصلحة وطنه.

يوليه ١٩٤٥ ، عُقد مؤتمر بوتسدام، في ضاحية بوتسدام، ببرلين، بمشاركة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا العظمى. وقرر المؤتمر أن تحتل بريطانيا فيتنام، وتنزع سلاح القوات اليابانية جنوب خط عرض ١٦ . بينما تتولى الصين الوطنية المهمة نفسها شمال خط عرض ١٦ .

أمّا هوشي منه، فاستدعى ستين رفيقاً، من كبار رفاقه، إلى تران تاو، إحدى قرى محافظة ثاي نجوين ، شمال هانوي، حيث أعلن تشكيل رابطة التحرير الوطني ، برئاسته، وأمر بالثورة في أنحاء البلاد كلّها؛ عقب إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي، في اليابان. فعمّت ثورة أغسطس معظم أنحاء فيتنام، بما فيها سايجون. وقتلت كثيراً من رجال باو داي، من بينهم أخوه الأكبر. وأغار رجال العصابات على بعض النقاط اليابانية، واستولوا على أسلحة رجالها. ودخلت طلائع الفيت منه هانوي، في ١٦ أغسطس ١٩٤٥ ، واستولت على المباني العامة، وأعلنت استيلاءها على السلطة. ووصل هوشي منه، في ٢٤ من أغسطس، إلى المدينة، ليرغم باو داي في ٢٥ من

أغسطس، على التخلي عن العرش، في هوي؛ ويستدعيه إلى هانوي، وعيَّنه مستشاراً خاصاً له، في ٢٩ أغسطس؛ وليعلن، في ٢ من سبتمبر ١٩٤٥، استقلال فيتنام؛ وقيام الجمهورية الديمقراطية الفيتنامية ، برئاسته؛ وفي نوفمبر ١٩٤٥، أعلن حلّ الحزب الشيوعي للهند الصينية.

في واشنطن، أعلن الجنرال شارل ديجول أن فرنسا لن تتخلى عن خيار الحرب؛ وهدفها استعادة السيطرة على الهند الصينية. وعين الأدميرال ثيرّى دارجنليو ، مندوبا ساميا للهند الصينية، وحظر عليه قبول أي وساطة أجنبية؛ في التفاوض مع الفيت منه، بينما أرسل أحد أعضاء حكومته، وهو جين سيديل ، فهبط بمظلة، في جنوب فيتنام، للتفاوض سراً مع الفيت منه. وأردف ذلك بإرسال جين سنتيني؛ للتفاوض مع هوشي منه. وقد نجح في كسب ود هوشي منه، وأصبح صديقاً له. وبادر هوشي منه إلى إبلاغ واشنطن ترحيبه بوصول مليون جندي أمريكي، لا فرنسي، إلى بلاده. وأعلن فو نجين جياب، أن الولايات المتحدة الأمريكية «صديق عزيز»؛ لأنها «دولة ديمقراطية، لا أطماع لها في أراضي الغير». ونقلت الاستخبارات الأمريكية إلى الرئيس الأمريكي، هاري ترومان، أن الفيتناميين مصرون على استقلالهم، «ولو استدعى ذلك حياتهم جميعاً؛ فليس لديهم شيء يخسرونه». ولكن الولايات المتحدة الأمريكية، أصرت على الانحياز إلى الجانب الفرنسي. أمّا سايجون، فكانت تعيش حالة اضطراب وفوضى، واقتتال طوائفها المختلفة. ولكن القوات الفرنسية تمكنت من إخضاع المدينة تماماً، بعد عنف شديد، وموجة اعتقالات واسعة.




DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الخامس

مؤتمر جنيف

(٢٦ من أبريل – ٢١ من يوليه ١٩٥٤)

اشترك في مؤتمر جنيف ست عشرة دولة من الدول، التي اشتركت في حرب كوريا. ولكن عند بحث قضايا الهند الصينية، اقتصرت العضوية على تسع دول، هي: الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، والاتحاد السوفيتي، وجمهورية الصين الشعبية، وفرنسا، وحكومة هانوي، وحكومة سايجون، ولاوس، وكمبوديا. ولم يَخْلُ المؤتمر من حضور هندي.

وقد تمخضت مفاوضات جنيف، بعد تعثّر، بقرارات، حاولت التوفيق بين وجهات النظر، أدرجت في وثيقتَين:

الأولى: اتفاقية وقف إطلاق نار، وقعتها فرنسا وفيتنام الشمالية، في ٢٠ من يوليه (كان هناك اتفاقية مماثلة، فيما يخص لاوس وكمبوديا).

الثانية: تصريح ختامي، لم يوقعه أحد. وصدر بطريقة، لا تجعله محضراً للمؤتمر؛ بسبب رفض الولايات المتحدة الأمريكية مشاركة الصين الشعبية، في توقيع وثيقة دولية.

لم يوقع اتفاقية الهدنة، بين فيتنام الشمالية والقيادة العسكرية الفرنسية لجيوش فيتنام الجنوبية ولاوس وكمبوديا الملكية، سوى هذَين الطرفَين، بصفتهما المتحاربين الرئيسيين في الساحة. ولم ترِد أيّ إشارة فيها إلى دولة، تسمى فيتنام الجنوبية، أو فيتنام الشمالية؛ وإنما اقتُصر على الإشارة فقط إلى جمهورية فيتنام الديمقراطية؛ ودولة فيتنام الفرنسية، برئاسة باو داي (وسوف ترفض حكومة فيتنام الشمالية الاعتراف ببنود هذه

الاتفاقية، فيما بعد أثناء تفاوضاتها مع الأمريكيين؛ متعللة بأن حكومة باو داي لم تكن شرعية، ولم توقع الاتفاقيات بنفسها.). وقعها عن الجانب الفرنسي الجنرال هنري دلتيل، نيابة عن الجنرال بول إيلي ، رئيس هيئة الأركان الفرنسية. ووقعها عن الجانب الفيتنامي تاكوانج بو، نيابة عن الجنرال جياب، وزير الدفاع. وقد تضمنت الاتفاقية ٢٧ بنداً تفصيلياً، كان أهمها ما يلي:

١. وقف إطلاَق النار، وتحديد خط الهدنة جنوب خط العرض ١٧، وهو تحديد مؤقت إلى أن يمكن توحيد البلاد، بعد إجراء انتخابات عامة؛ كما نص التصريح الختامي.

٢. إعادة تجميع القوات المتحاربة وتنظيمها، في منطقتَين رئيسيتَين: الفيتنامية شمال الخط المذكور، والفرنسية جنوبه. مع وضع برنامج زمني لعمليات التجميع في الأقاليم والمناطق الداخلية، في فترة لا تجاوز ثلاثمائة يوم، من تاريخ سريان الاتفاقية.

٣. منع الطرفَين من الحصول على إمدادات حربية من الخارج، بقصد تعزيز قواتهما؛ وعدم إنشاء قواعد عسكرية أجنبية في فيتنام؛ والحظر على شطرَي فيتنام الانضمام إلى الأحلاف العسكرية.

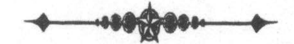
٤. منع استخدام أيٍّ من المنطقتَين منطلقاً لاستئناف عمليات: عدائية أو انتقامية، فردية أو جماعية. ولتجنّب ذلك، يتعين المسارعة خلال ٢٥ يوماً، من تاريخ سريان الاتفاقية، إلى سحب أيِّ قوات أو إمدادات أو مؤن، من منطقة خط وقف إطلاق النار المحددة.

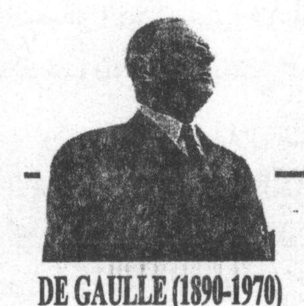
٥. تحديد يوم ١٨ من مايو ١٩٥٥ موعداً أخيراً، لانتقال المواطنين الفيتناميين إلى المنطقة، التي يرغبون العيش فيها؛ على أن يدير الشؤون المدنية في كِلتا المنطقتَين، الطرف صاحب القوات، التي تتجمع فيها.

٦. تكوين لجنة رقابة دولية I. S. C، ثلاثية، تضم ممثلين للهند، وبولندا، وكندا؛ يرأسها المندوب الهندي. تتولى الرقابة على تنفيذ الاتفاقية، والإشراف على الانتخابات العامة في شأن توحيد شطرَي فيتنام.

٧. لا يُسمح لأيِّ شخص، عسكرياً كان أو مدنياً، بعبور خط وقف إطلاق النـار، إلا بتصريح خاص، واضح، من اللجنة المشتركة.

أمّا أهم نص، تضمنه البند ١٤ من الاتفاقية، فيقرر ضرورة إجراء انتخابـات عامـة في فيتنام، في ٢٠ من يوليه ١٩٥٦؛ لتوحيد شطرَيها؛ على أن تتشاور سلطاتهما في ذلك، بدءاً من ٢٠ من يوليه ١٩٥٥. وأعلن البيان الختامي للمؤتمر أنطوني إيـدن، وزيـر خارجيـة بريطانيا، الذي رأس جلسته الختامية.





الفصل السادس

الموقف الفرنسي من نتائج المؤتمر

عَدَّ الفرنسيون نتائج مؤتمر جنيف إيجابية، بل انتصاراً كبيراً، لم يمكنهم تحقيقه، عملياً، بقواتهم العسكرية؛ إذ أتاح لهم:

- تأمين إعادة تنظيم قواتهم، من دون خسائر تذكر.

- تنفيذ برنامج لعمليات انسحاب متعددة.

- التخلص من وطأة النفوذ الأمريكي، المعتمد على المساعدات: المالية والعسكرية.

- تأمين كيان سياسي ونفوذ، وإن مؤقتاً، لأصدقاء فرنسا المحليين، في كلٍّ من فيتنام الجنوبية ولاوس وكمبوديا.

وفي التاسع من أكتوبر ١٩٥٤، استكملت فرنسا معظم انسحابها من هانوي، ثم من المحافظات المسيحية. وأنزل العلم الفرنسي من حامية هانوي، للمرة الأخيرة. وخرج العقيد دارجنز، آخر جندي فرنسي، من حدود العاصمة، إلى حيث تجمعت القوات الفرنسية في منطقة هايفونج، ريثما تنتهي عملية تهجير الشماليين إلى الجنوب، التي استمرت ٣٠٠ يوم. وقد ساعدت واشنطن مئات الآلاف من اللاجئين، على الفرار من الشمال إلى الجنوب، ورحل آخر الجنود الفرنسيين عن هايفونج، في مايو ١٩٥٥. وبذلك، تحررت المناطق، شمال خط العرض١٧، من الاحتلال الفرنسي، بعد أن تكبدت القوات الفرنسية: التابعة والمحلية، أكثر من ٣٢٠ ألف قتيل وجريح، حسب

المصادر الفيتنامية؛ و ١٥٠ ألف قتيل وجريح، حسب المصادر الأمريكية. بينما اعترف الفرنسيون، رسمياً، بمقتل ٩٢ ألفاً، وجرح ١١٤ ألفاً.

ولم يبقَ لفرنسا، خلال الشهور، التي أعقبت مؤتمر جنيف، سوى بعض المصالح الاقتصادية، والشركات الخاصة، التي تدير الخدمات العامة في فيتنام الشمالية؛ وهي الشركات، التي لم يمضِ عام واحد، حتى أمّمتها حكومة هانوي الثورية. أمّا في فيتنام الجنوبية، فقد كان حلفاء فرنسا الأمريكيون، هم الذين تآمروا على وجودها: العسكري والاقتصادي والثقافي، وأزاحوه، تدريجاً، بعد أن قضى على نفوذها السياسي. واستخدموا الحكومة الجديدة، التي تزعمها،نجو دنه دييم ، بعد تنحية الإمبراطور باو داي، وأتباعه، عن المؤسسات والإدارات المختلفة.

وتحت الضغط الأمريكي، سلم الفرنسيون، في أواخر أغسطس ١٩٥٥، السلطات: القضائية والأمنية والطيران المدني، إلى حكومة نجو دنه دييم. وفي سبتمبر، وافقت فرنسا على الانضمام إلى حلف سياتو؛ ودفعت إليها واشنطن مائة مليون دولار، لتغطية نفقات جيشها. ثم خلال الأشهر الثلاثة التالية، أقنعتها بالموافقة على إلغاء مصرف الهند الصينية، والسماح لحكومة سايجون بإصدار عمْلتها المستقلة. وتخلت فرنسا عن حقها في الإشراف على الاقتصاد والتجارة والمالية الفيتنامية. كما قضي على النفوذ الفرنسي في الجيش الفيتنامي الجنوبي؛ بتخويل الفيتناميين قيادته، والأمريكيين تدريبه وتنظيمه. وأخيراً، تخلت الحكومة الفرنسية لحكومة سايجون، عن حقها في الإشراف على المساعدات الأمريكية لفيتنام. وفي ٨ من أبريل ١٩٥٦، غادر آخر جندي فرنسي الهند الصينية.

مرحلة الإعداد

الإعداد والتحضير للحرب المحدودة، بدأ مبكراً، قبل أكثر من عام على انطلاقة مرحلتها الفعلية الأولى، أيْ منذ الشروع في تنفيذ خطة توسيع الحرب إلى خارج حدود فيتنام الجنوبية، والتي بدأت، في فبراير ١٩٦٤، بتكثيف العمليات الخاصة ضد فيتنام الشمالية؛ ليكون بديلاً من التنفيذ الناجح للحملة المعادية للعصيان في الجنوب، أو على الأقل محاولة لإجبار هانوي على الحدّ من نشاط العصابات، إلى المستوى الذي تستطيع

معه حكومة سايجون الضعيفة أن تواجهه. وانعكس هذا التطور في تفكير الحكومة، في تقارير وزير الدفاع، روبرت مكنمارا، إلى الرئيس جونسون، بعد رحلة الوزير إلى فيتنام، في ديسمبر ١٩٦٣، ومارس ١٩٦٤. ففي مذكرة ديسمبر، التي أوصى فيها ببدء الغارات السِّرِّية ٣٤ أ، قدّم روبرت مكنمارا «صورة كئيبة» لفيتنام الجنوبية، تبيِّن سيطرة الفيتكونج على معظم مناطق الأرز، والمناطق المأهولة بالسكان في دلتا الميكونج، جنوب سايجون وغربها. وانتهى إلى القول: «يجب أن نراقب الوضع بعناية فائقة، من دون ذعر؛ متطلعين إلى وضع أفضل، مع الاستعداد لتحركات اضطرارية، إذا لم تظهر دلائل على التحسن».

وفي مذكرته، بتاريخ ١٦ من مارس ١٩٦٤، أشار الوزير إلى «أن الوضع قد ازداد سوءاً، حتى لا يمكن إنكاره»؛ وأوصى بالتخطيط العسكري لمرحلتَين؛ «لتصعيد العمليات الخاصة بصورة أوسع على فيتنام الشمالية». تضمنت المرحلة الأولى، المطلوب تنفيذها خلال ٧٢ ساعة، «السيطرة على المناطق الحدودية، وشن الأعمال الانتقامية عبْرها»؛ وهجمات جيش سايجون على طرق التسلل، على طول شبكة هوشي منه، [وهي شبكة خطوط معقدة لطرق وإمدادات، عبر جنوب شرقي لاوس، وشمال شرقي كمبوديا، إلى مرتفعات فيتنام الجنوبية]؛ وملاحقة رجال العصابات في كمبوديا؛ و«ضربات جوية انتقامية، في فيتنام الشمالية، تنفذها القوات الجوية لفيتنام الجنوبية»، على أساس الرد على هجمات العصابات؛ والقصف الجوي «للموانئ الرئيسية في فيتنام الشمالية، بمساعدة أمريكية، ما أمكن ذلك». وأطلق على المرحلة الثانية اسم «الضغط العسكري المكشوف، المتدرج، على الأهداف الشمالية: العسكرية والاقتصادية في فترة ثلاثين يوماً».

وقال للرئيس جونسون: «إن هذا البرنامج ذا المرحلتَين، سيتخطى حدود الرد على أعمال رجال العصابات. وقد يتضمن هجمات جوية على الأهداف العسكرية، وربما الصناعية كذلك». وسينفذ السلاح الجوي لسايجون تلك الغارات، إضافة إلى سرب أمريكي من الفدائيين، يحمل الاسم السِّرِّي «فارم جيت»، يعمل في فيتنام الجنوبية، وتحمل طائراته إشاراتها. ولكي تنفذ الطائرات الضربات الجوية، يجب تدعيمها بثلاثة أسراب من السلاح الجوى الأمريكي، من قاذفات القنابل النفاثة B-57، تستدعى من اليابان.

ودافع روبرت مكنمارا عن ضرورة أن تسبق التصعيد المفتوح إجراءات، تحسّن عمل حكومة سايجون. وأشار في مذكرته، التي رفعها إلى الرئيس، في مارس، إلى أنه «ستكون هناك مشكلة تبرير ذلك العمل، أمام الرأي العام العالمي؛ ومشكلة تفاقم الدعاية الشيوعية؛ ومشكلة مواجهة الضغوط، التي قد تنشأ، في الداخل أو الخارج، لتعجُّل مفاوضات غير ناضجة». وأدّى وصفه للمفاوضات إلى اعتقاد الحكومة، أن حكومة الجنرال نجوين خانه عاجزة عن مواجهة الشيوعيين، سياسياً. ولذلك، فإن أيّ محاولة لتفاوُض الفيتناميين أنفسهم في تسوية سياسية للحرب، يجب تجنُّبها؛ لأنها ستتمخض بسيطرة الشيوعيين، وانهيار مركز الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام الجنوبية.

وبالمثل، فإن أيّ اتفاق داخلي بين القوى الفيتنامية المعارضة، تحت شعار ضرورة «حياد» فيتنام، وهو الشعار الذي اقترحه الرئيس الفرنسي، شارل ديجول، في يونيه ١٩٦٣ ـ كان يُعتقد أنه سيسفر عن النتيجة نفسها، انتصار الشيوعيين. إذ أشار مكنمارا، في مذكرته عينها، إلى الخطر الناجم عن نموّ «مشاعر الحياد»، في سايجون؛ واحتمال انقلاب القوى المحايدة، التي يمكن أن تشكل حكومة ائتلافية مع الشيوعيين، وتدعو الولايات المتحدة الأمريكية إلى مغادرة البلاد. ووافق الرئيس الأمريكي على توصيات الوزير، في اجتماع مجلس الأمن القومي، بتاريخ ١٧ من مارس ١٩٦٤؛ وأصدر توجيهاته بأن «يسير التخطيط بنشاط». ثَم، بادر الرئيس جونسون، في ٢٠ من مارس، إلى إبلاغ هنري كابوت لودج، سفيره في فيتنام الجنوبية، أنه مصمم على «القضاء على فكرة الحياد، التي أطلت برأسها القبيح»، قائلاً: «إني لا أعتقد، أن هناك ما هو أهم من إيقاف الحديث بالحياد، حيثما استطعنا، وبأي وسائل تحت أيدينا». كما اتفقنا، في رسائلنا السابقة المتبادلة، يجب التحفظ من الأعمال العسكرية المكشوفة، في الوقت الحاضر؛ نظراً إلى الإجماع الذي أسفرت عنه محادثات سايجون، بين بعثة روبرت مكنمارا والجنرال نجوين خانه، بحضورك، على أن التحرك ضد الشمال، في الوقت الحاضر، سيكون عملاً سابقاً لأوانه. نحن نشارك الجنرال نجوين خانه الرأي، في أن المهمة الرئيسية، والعاجلة، تتمثل في دعم القاعدة الجنوبية. ولهذا السبب، فإن تخطيطنا للعمل ضد الشمال، يعتمد على الضرورات العاجلة، في الوقت الحاضر؛ والمشكلة العاجلة،

في هذه المنطقة، هي تطوير أقوى قاعدة ممكنة: عسكرية وسياسية، لاحتمالات العمل، فيما بعد». وأضاف جونسون، أن الحكومة تتوقع، كذلك، «ازدياد حدة النزاع الصيني - السوفيتي، في القريب، وعندئذٍ، يصبح العمل ضد الشمال أكثر تأثيراً».

وكان السفير هنري كابوت لودج يعارض خطة «الأعمال التخريبية الواسعة النطاق» واقترح، في أكتوبر ١٩٦٣، إرسال مبعوث سِري، غير أمريكي، إلى هانوي، يعرض المعونة الاقتصادية، مثل الواردات الغذائية لتخفيض مشكلة نقص الأرز في فيتنام الشمالية، مقابل إيقاف نشاط الفيتكونج. وإذا لم تستجب للعرض، فيجب إرغامها على قبوله، بتوجيه ضربات جوية سِرية إليها، بطائرات، لا رموز عليها.

وقد أوضحت دراسة سِرية للبنتاجون، أن الرئيس جونسون، كان يدفع بحكومته، من ناحية، إلى التخطيط بنشاط من أجل تصعيد الحرب؛ وفي الوقت نفسه، ظل متردداً في ترجمة هذه الخطط إلى أعمال عسكرية. فقد كان يحسب الظروف السياسية: الداخلية والدولية، بدقة، قبْل أن يقدِم على أيّ تحرك علني.




DE GAULLE (1890-1970)

الفصل السابع

مراحل مهمة في حياة ديجول

من ندائه الإذاعي الشهير للفرنسيين في ١٨ من يونيو/ حزيران ١٩٤٠، مرورا بقوات «فرنسا الحرة» والمستعمرات الفرنسية، تواريخ مهمة في حياة الجنرال الذي صار رمزا لفرنسا الحرة والمستقلة نتناول في هذا الفصل ... شارل ديجول. الجنرال شارل ديجول وشبهة العداء للولايات المتحدة

الجنرال شارل ديجول وشبهة العداء للولايات المتحدة

الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ / ١٩٤٥: بعد معارضته لاتفاقية الهدنة التي وقعها الماريشال بيتان مع النازيين يرحل الجنرال شارل ديجول إلى لندن ومنها يوجه نداءه الإذاعي الشهير للفرنسيين في ١٨ من يونيو/ حزيران ١٩٤٠ يدعوهم فيه إلى مواصلة المعركة.

يعمل الجنرال على تنظيم قوات «فرنسا الحرة» انطلاقا من لندن ويبدأ بالتقرب من حركات المقاومة داخل فرنسا ويكلف جان مولان بتأسيس المجلس الوطني للمقاومة.

في ٢٥ من أغسطس/ آب ١٩٤٤ يدخل ديجول باريس التي حررتها من النازيين قوات الجنرال لوكليرك دخول الأبطال.

يكلف الجنرال ديجول برئاسة الحكومة ولكنه يستقيل من مهامه في ٢٠ من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٦ إثر خلاف مع الأحزاب السياسية حول دستور الجمهورية الرابعة.

ينضم في ١٩٤٧ إلى المعارضة ويؤسس حزبا سياسيا «تجمع الشعب الفرنسي»وبعد هزيمة انتخابية في ١٩٥٣ ينسحب ديجول من الحياة السياسية.

دستور العام ١٩٥٨: عبور الجنرال للصحراء ينتهي في العام ١٩٥٨، فبعد تمرد ١٣ من مايو/ أيار في الجزائر يستدعي الرئيس رينيه كوتي ديجول الذي يكلف بتشكيل آخر حكومة في الجمهورية الرابعة، بعد أن اشترط إصلاحات واسعة لمؤسسات الدولة. وقد مهد الدستور الجديد لولادة الجمهورية الخامسة الذي أقر في استفتاء شعبي. في ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٨ انتخب شارل ديجول رئيسا للجمهورية وأعيد انتخابه بالاقتراع الشعبي المباشر في ١٩ من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٥ في الدورة الثانية بعد منافسة مع غريمه السياسي فرنسوا ميتران.

الاستقلال وحرب الجزائر: في ٢٤ أغسطس/ آب ١٩٥٨ يطلق الجنرال شارل ديجول خلال زيارته إلى الكونغو برازفيل عملية إزالة الاستعمار ومنح الاستقلال لدول أفريقيا عبر تأسيس «مجموعة فرنسا - أفريقيا» وبعد أقل من سنتين وفي خضم الأزمة الجزائرية تنال الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية استقلالها. ويذكر التاريخ ديجول الذي وصل إلى السلطة بدعم مؤيدي« الجزائر فرنسية» بأنه من وضع حدا لحرب الجزائر وكرس استقلالها بعد توقيع معاهدات إيفيان في مارس/ آذار ١٩٦٢. وقد أشعلت هذه السياسة كراهية معارضي الجنرال الذين نظموا انقلابا عسكريا فاشلا وقيام منظمة مسلحة سرية بعمليات إرهابية. وقد نجا الجنرال من محاولة اغتيال في العام ١٩٦٢.

مايو/ أيار ١٩٦٨: دخلت فرنسا في واحدة من الأزمات السياسية الأكثر حدة في تاريخها الحديث بدأت على شكل تحركات طلابية انضمت إليها بعد ذلك شرائح من العمال والموظفين شلت حركتهم الحياة في البلاد ووضعت السلطة في موقف لا تحسد عليه. في ٢٩ من مايو يختفي الرئيس الجنرال من قصر الرئاسة، يستقل مروحية ويذهب لملاقاة الجنرال ماسو في بادن في ألمانيا. يعود الجنرال في اليوم الثاني ويحل البرلمان. وتنظم في اليوم التالي مظاهرة حاشدة مؤيدة لديجول ولكن الشرخ في العلاقة بين الجنرال الذي يحكم منذ ١٠ سنوات وشعبه بات من الصعب إصلاحه.

الاستقالة: في ٢٧ من أبريل/ نيسان ١٩٦٩ يربط الجنرال ديجول مصيره السياسي

بنتيجة الاستفتاء الشعبي حول جملة من الإصلاحات التي اقترحها على الفرنسيين. ويستقيل الجنرال شارل ديجول غداة خسارته في الاستفتاء وينسحب من الحياة السياسية وينصرف لكتابة مذكراته. وتوفي الجنرال في ٩ من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٠ قبل ٤٠ سنة من اليوم.

إنجازاته

وجه ديجول أول اهتماماته إلى المستعمرات الفرنسية في إفريقيا، وفي ٢٦/٨/ ١٩٤٠ انضمت تشاد إلى فرنسا الحرة، ثم الكاميرون، وتبعتها برازافيل ، وبعد انضمام الغابون فتحت أمام ديجول مجالات إفريقيا الواسعة، على الرغم من إخفاقه في ضم داكار على الأطلسي غربي إفريقيا، ثم عاد إلى لندن حيث سعى لإنشاء منظمة في قلب فرنسا لمقاومة الألمان، وتأسيس وكالة أنباء فرنسية وإصدار مجلة باسم فرنسا الحرة وجريدة سميت «فرنسا».

ومد ديجول بصره إلى سوريا ولبنان، وكانت السلطات الفرنسية فيهما تدين بالولاء لحكومة فيشي (مقر الحكومة الفرنسية بعد استسلام فرنسا)، وكان يقدر أن المحور إذا ربح الحرب فسيستولي على هذين البلدين، وإذا خسر فسيقعان تحت السيطرة البريطانية، فكتب إلى حكومة فيشي طالباً ضم القوات الفرنسية فيهما إلى فرنسا الحرة، فرفض الجنرال ويغان الطلب، ونادى بتنفيذ حكم الإعدام بديجول. ونجم عن المباحثات الفرنسية الألمانية السماح للطائرات الألمانية باستعمال القاعدتين الجويتين في دمشق وحلب، بعد قيام ثورة رشيد عالي الكيلاني بالعراق، واتخذت ترتيبات دعمها بالمعدات والآليات عبر الحدود السورية. فاتفقت إرادة ديجول وبريطانيا على اجتياح سورية ولبنان، وفي ٨/ ٦/ ١٩٤١ اجتازت قوات بريطانيا وفرنسا الحرة الحدود السورية واللبنانية، تحت قيادة بريطانية، وتراجعت أمامها قوات حكومة فيشي بسبب استحالة نجدتها من فرنسا، وفي ٢١/ ٦/ ١٩٤١ دخلت قوات الحلفاء دمشق، وبعد مفاوضات مضنية تم الاتفاق بين بريطانيا وحكومة فيشي على إيقاف إطلاق النار، والسماح لمن شاء من الفرنسيين بالإبحار إلى حيث يريد.

أما في الشرق الأقصى فقد اصطدم ديجول بالتصرفات الأمريكية، وقال في مذكراته

أن الرئيس فرانكلين روزفلت يريد « أن تكون كلمته قانوناً على العالم »؛ ومع أن الرئيس الأمريكي أعلن في ١١/ ١١/ ١٩٤٤ قبول فرنسا الحرة في قائمة الدول المشمولة بقانون الإعارة والتأجير، فقد استولت القوات الأمريكية على جميع بواخر فرنسا الحرة الموجودة في الموانئ الأمريكية، ومع ذلك وافق ديجول على وضع المستعمرات الفرنسية في جنوبي شرقي آسيا تحت تصرف الحلفاء «شريطة أن يحترموا السيادة الفرنسية عليها».

وفي ربيع عام ١٩٤٢ استبدل اسم «فرنسا الحرة» تعبير «فرنسا المحاربة، أو المقاتلة».

تفرغ ديجول بعد ذلك إلى تشجيع المقاومة داخل فرنسا ومدها بالسلاح وإعداد الجيوش الفرنسية لتشترك في الإنزال الذي كان يحضر له في فرنسا وإنجلترا، وقد بدأت المقاومة تضرب تجمعات القوات الألمانية المحتلة، ووجه ديجول رسالة إذاعية جاء فيها « أن من حق الفرنسيين الطبيعي قتل الألمان»، وأنشئ مجلس في فرنسا ضم جميع زعماء المقاومة في جنوبي فرنسا، الذين أكدوا انضواءهم تحت لواء ديجول ، وكانوا يمدون الحلفاء بمعلومات دقيقة عن المنشآت العسكرية الألمانية على شواطئ الأطلسي وقواعد الغواصات، وقد تضخمت قوات المقاومة بتشجيع ديجول واشتركت في القتال إلى جانب الحلفاء الذين نزلوا في فرنسا في ٦/ ٦/ ١٩٤٤، كما خاضت المقاومة ضد الألمان معركة مريرة في باريس بتاريخ ١٩/ ٨/ ١٩٤٤، فسارعت الفرقة المدرعة الفرنسية الثانية بقيادة الجنرال لوكلير (التي كانت تحت إمرة ديجول) إلى مساعدتها. وفي ٢٥/ ٨/ ١٩٤٤ تحررت باريس، وفي اليوم التالي وصل ديجول إلى باريس حيث استقبل كالفاتحين، وأعلن منها الحكومة الفرنسية المؤقتة برئاسته، وهكذا تعاونت الجيوش الفرنسية التي نزلت بقيادة ديجول مع الحلفاء، وساعدتها قوات المقاومة، مما أربك الألمان وجعل التحرير أسرع، بل وشاركت هذه الجيوش فيما بعد في التوغل داخل الأراضي الألمانية حتى استسلام الألمان نهائياً.

هذه المشاركة في القتال دعت الجنرال ديجول إلى المطالبة في ١٠/ ٩/ ١٩٤٥ بفصل الضفة اليسرى لنهر الراين (رينانيا) عن ألمانيا، ووضعها تحت إشراف فرنسا وبريطانيا

وبلجيكا وهولندا من الناحيتين الإستراتيجية والسياسية، وفصل منطقة الرور عن ألمانيا لتصبح منطقة دولية، وكان همه اجتناب خطر ألمانيا في المستقبل، ولذلك عقد حلفاً مع الاتحاد السوفييتي.

وفي أثناء رئاسة ديجول للحكومة المؤقتة، جرت أحداث خطيرة في سورية ولبنان، وكان الجنرال كاترو قد أعلن في ٢٧/ ٩/ ١٩٤١ استقلال سورية بالاتفاق مع ديجول وتأييد إنجلترا وضمانتها، وفي ٢١/ ١١/ ١٩٤١ أعلن استقلال لبنان، وكان ديجول يريد الوصول بهما إلى الاستقلال، ولكن شرط أن يحصل على ضمانات تحفظ مصالح فرنسا الاقتصادية والثقافية والإستراتيجية، وتحفظت الدولتان بشأنها خشية إعادة توطيد السيادة الفرنسية عليهما، ويبدو أن ديجول ، بعد تحرر فرنسا من الاحتلال الألماني، أراد العودة إلى السياسة الاستعمارية، فأرسل تعزيزات عسكرية إلى سورية ولبنان في ٢٠/ ٥/ ١٩٤٥، مما تسبب في قطع الدولتين مفاوضاتهما مع فرنسا، وكان مندوبها الجنرال بينه قد تقدم بطلبات ديجول إلى سورية، أبرزها احتفاظ فرنسا في سورية بقواعد بحرية وجوية وامتيازات اقتصادية وسياسية، فرفضها السوريون، وعاد ممثل فرنسا إلى ديجول الذي أعطاه التعليمات اللازمة، وبدأت الأسر الفرنسية تغادر سورية إلى لبنان، وكثرت الاشتباكات بين السوريين والقوات الفرنسية حتى كان يوم ٢٩/ ٥/ ١٩٤٥، حين هاجم الفرنسيون المجلس النيابي السوري، وقصفوا دمشق بالمدفعية والطيران، وانتشرت الثورة في جميع أنحاء سورية وعم الغضب البلاد العربية، وتحدثت بعض الأنباء عن حشد قوات عراقية على الحدود السورية، وهنا تدخلت بريطانيا، ووجه رئيس وزرائها إنذاراً إلى ديجول يعلن فيه أنه أمر القائد العام بالشرق الأوسط بالتدخل لوقف سفك الدماء، وطلب منه أن يأمر حالاً القوات الفرنسية بوقف إطلاق النار والانسحاب إلى ثكناتها لئلا تصطدم بالقوات البريطانية، ولما وردت مذكرة احتجاج سوفييتية وأخرى أمريكية بسبب أحداث سورية اضطر ديجول إلى إصدار الأوامر للقوات الفرنسية بالانسحاب، وانتهى الأمر باتفاق فرنسي - إنجليزي على جلاء الطرفين عن سورية ولبنان.

وكان ديجول يزاول الحكم في الحكومة المؤقتة بعقلية رئاسية، فلما بدأ التذمر في صفوف الشعب الفرنسي، أجرى ديجول استفتاء عاماً أسفر عن إيثار الشعب لحكم

نيابي، فاستقال من منصبه سنة ١٩٤٦ واعتزل السياسة.

وعندما نشبت الثورة الجزائرية، وأصبحت تكلف الميزانية الفرنسية ٧٧٠ مليار فرنك فرنسي سنوياً، وأجبرت فرنسا على الاحتفاظ بـ ٧٠٠ ألف جندي فرنسي في الجزائر لمجابهة تلك الثورة العظمى التي بدأت تؤثر في الحكومة الفرنسية في باريس نفسها، مالت هذه الحكومة إلى إعادة النظر بسياستها العسكرية، مما أثار نقمة المستوطنين المتطرفين في الجزائر، وفي ١٣/ ٥/ ١٩٥٨ قامت فرقة المظلات بالجزائر بانقلاب أدى إلى عودة ديجول إلى الحكم، وأعطاه الانقلابيين سلطات واسعة واستثنائية.

لم يتسرع ديجول في جمع السلطات بين يديه كي لا يكون أداة طيعة للانقلابيين، بل مال إلى الحصول على موافقة الجمعية الوطنية الفرنسية على ذلك، وتقدم بمشروع دستور (للجمهورية الخامسة) يعطي أقاليم الاتحاد الفرنسي في إفريقيا حق تقرير المصير.

عمدت العناصر اليمينية المتطرفة مرة أخرى إلى التمرد الذي قاده ضباط كبار، وهنا اتجه ديجول إلى الرأي العام الفرنسي، واتخذ التدابير اللازمة لقمع حركة المتمردين الفرنسيين بالجزائر، مما اضطر قادة الانقلاب إلى الفرار. وانتهى الأمر باعتراف فرنسا باستقلال الجزائر سنة ١٩٦٢، وانسحابها نهائياً من ذلك البلد العربي المكافح الذي قدم مليون شهيد.

وكان ديجول قد تولى رئاسة الجمهورية في ٨/ ١/ ١٩٥٩ بعد انتخابات عامة، وفي ١٩/ ١٢/ ١٩٦٥ أعيد انتخابه، وهكذا حكم فرنسا لفترتين رئاسيتين متواليتين، كانت سياسته خلالهما تتلخص في المطالبة بالعودة إلى اعتماد الذهب كقاعدة في المعاملات الدولية، ونقل مقر قيادة حلف الأطلسي من باريس، ثم قام بالانسحاب من الالتزامات العسكرية الأطلسية ١٩٦٦-١٩٦٧ واعتمد سياسة التقارب مع ألمانيا، ومع الاتحاد السوفييتي، فزار موسكو بتاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٦٦، وطالب بعقد مؤتمر دولي لإعادة التوازن في منظمة الأمم المتحدة، كما طالب بحل مشكلة فيتنام سلمياً متهماً الولايات المتحدة بالتدخل غير المشروع بالشرق الأقصى.

وفي تموز ١٩٦٦ زار إثيوبيا وكمبوديا، وعمل على استبعاد بريطانيا من السوق

الأوربية المشتركة (لأنها رأس جسر أمريكي في أوربا)، واعترف بالصين الشعبية، وأقام علاقات جيدة مع بعض دول العالم الثالث، واستنكر العدوان الصهيوني على البلاد العربية سنة ١٩٦٧، وبعد هجوم صهيوني على مطار بيروت أصدر قراراً بمنع إمداد إسرائيل بالأسلحة الفرنسية، كما شجع إقامة قوة نووية فرنسية ضاربة رفعت فرنسا إلى مصاف الدول النووية العظمى، واتجهت فرنسا في عهده إلى الازدهار الاقتصادي، وعلى الرغم من كل ذلك أدت سياسة ديجول الداخلية إلى تذمر في صفوف الطلاب ثم العمال، وبعد اضطرابات أيار ١٩٦٨، أجرى استفتاء على سياسته الشخصية فكانت نتيجته غير مؤيدة له، فاستقال في ٢٨/ ٤/ ١٩٦٩.

ديجول والشعب الفرنسي

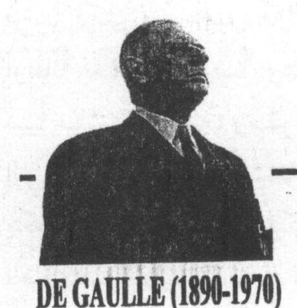
ينظر الفرنسيون إلى شارل ديجول إلى أنه الأب الروحي للجمهورية الفرنسة الخامسة، ويرجع الكثير من الفرنسيين الفضل إلى الجنرال ديجول في استقلال بلادهم من الجيوش النازية أثناء الحرب العالمية الثانية إذ لم يتوقف وهو في لندن من إطلاق الشعارات التي كانت تلهب قلوب الفرنسيين وتدفعهم إلى المقاومة، ومن أشهر نداءاته «أيها الفرنسيون لقد خسرنا معركة لكننا لم نخسر الحرب وسوف نناضل حتى نحرر بلدنا الحبيب من نير الاحتلال الجاثِم على صدره». وينعكس تقدير هذا الرجل بشكل واضح في العاصمة باريس إذ تم تسمية العديد من المرافق الحيوية باسم الجنرال مثل(المطار، الشوارع،المتاحف ومحطات القطارات).

صفاته

كان شارل ديجول طويل القامة، قوي الشكيمة، يؤمن بعظمة فرنسا، وقد سعى طيلة توليه الحكم بين ١٩٥٨-١٩٦٩ لتوطيد مركزها دولة عظمى، كان في شبابه يؤمن بالقوة كحل لكل شيء، وكان الرئيس روزفلت يتحاشى الاعتماد عليه «بسبب طباعه الاستبدادية». تدرب في مطلع حياته العسكرية على نهج المارشال بيتان الذي «علمه فنون القيادة وجبروتها» كما يقول في مذكراته، فلما استلم دفة الحكم حاول إقامة حكم رئاسي، ولكن الاستفتاء الشعبي خذله، ويظهر أنه أصبح مع الزمان يؤمن بالمفاوضات والحلول السلمية، ويرضى بحق الشعوب في تقرير مصيرها.

كل هذا وغيره، وخاصة خلال رئاسته للجمهورية بين ١٩٥٩ و١٩٦٩، جعل لديجول مكانة تاريخية مرموقة، أدت إلى تأليف حزب فرنسي يستند إلى أفكار ديجول ومبادئه، حمل أخيراً اسم «التجمع من أجل الجمهورية»، لأن ديجول لم يكن يوافق على استخدام اسمه لأي تنظيم سياسي، وقد حاول شيراك، الذي أصبح رئيساً للوزارة الفرنسية في عهد الرئيس فاليري جسكار ديستان، والرئيس فرانسوا ميتران، ثم أصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية في آخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، حاول إحياء مبادئ ديجول والسير على نهجه، خصوصاً في توطيد مكانة فرنسا في أوروبا والعالم والتقارب مع ألمانيا وروسيا واحترام حرية الشعوب وغيرها من المبادئ الديجولية المعروفة.




DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثامن

ديجول .... هل كان أديبًا؟

بالنسبة إلى بعض الأساتذة في المراحل الثانوية في فرنسا، كان الجنرال شارل ديجول رجلاً ممتازاً على الأصعدة التاريخية والسياسية والعسكرية، ولكن ليس على الصعيد الأدبي، أو أقلّه ليس كاتباً جديراً بما يكفي كي يُدرَّس في مناهج البكالوريا في فرنسا، بعدما تمّ اختيار المجلّد الثالث الذي يحمل عنوان «الخلاص» من كتابه «مذكرات حرب» لينضمّ إلى نصوص هوميروس وصموئيل بيكيت التي تُدرَّس في البكالوريا القسم الأدبي.

أعلن حشد من هؤلاء الأساتذة احتجاجهم على قرار وزارة التربية هذا، وطالبوا بوضع الجنرال في «نصابه» التاريخي، لا الأدبي. وقال أحد هؤلاء: «لا نبتغي التقليل من أهمية كتابات ديجول التاريخية. ولكن في النهاية علامَ نتكلم؟ عن الأدب أم عن التاريخ؟!. أهذا هو تعليم الأدب؟. أليس هذا موت الأدب الممنهج ؟».

علينا أن نقارن بين الواقع العربي والواقع الفرنسي، بين أساتذة يعترضون على حضور الجنرال صاحب القيمة التاريخية في المنهج الأدبي الفرنسي، وبين معمر القذافي الذي كان يدلف أفكاره الأسطورية في كل شيء ليس في المدارس الليبية فحسب بل في الأذواق العامة، ومن قبله فعل الشيء نفسه العراقي المخلوع صدام حسين وبالطبع لا يختلف الرؤساء العرب الآخرون.

شارل ديجول، أو الجنرال... كما يحلو للفرنسيين أن يطلقوا عليه من منطلق الفكر

الفرنسي، حيث تعني عبارة «جنرال» بالنسبة إليهم: الزعيم. ولعله الزعيم الذي أعطى فرنسا الكثير من حضورها المتوهج، لأنه كان يتبنى فكرة الوطن الأم، الذي يشمل أوطاناً عدة أخرى أيضاً، وهذه غلطته الأيديولوجية التي يقول محللون كثر أنها كانت سبباً مباشراً في فشله، وسقوطه، ليس سياسياً فحسب، بل أيديولوجياً أيضاً منذ اللحظة التي أراد فيها محاربة الشمولية السلبية بمزيد من الشمولية السلبية، فعندما كان ديجول يتكلم بلغته الشعرية عن فيكتور هوجو ودولامانيير وفونتين وجان بول سارتر، كان العالم يتغير، بحيث بدت الرؤية الشمولية للقوة أكثر حدة ووضوحاً إلى درجة أنه أراد التصدّي لها بعبارته الشهيرة للشعب الفرنسي: «لقد فهمت ماذا تريدون، تريدون فرنسا القوية؟ هذا بالضبط ما سيكون».

لدى ديجول ثقافة كلاسيكية اكتسبها عن والده المغرم بالقراءة. كان شغوفاً بالأدب الكلاسيكي، يقرأ الشعر كثيراً ويكتب غالباً على دفتر خاص به قصيدة تعجبه لينتقي منها بعض السطور أثناء إلقاء خطاب ما. كان مهووساً بالحضارات القديمة، الإغريقية واليونانية. اعتبر الفلسفة جزءاً من السياسة. قرأ لأدباء الشعب مثل دولا فونتين وبوسويه، وأحب المسرح الواقعي. لا يحب الأدباء التجديديين الذين يتطاولون على المبادئ (كما يقول في مذكراته). يقول عنه صديقه جون ميشيل فونتين: يعتقد شارل ديجول أن أي أديب يجب أن يكون دوره القومي أهم من أي دور آخر، وهذا سبب آخر في انتقاد كتاب تجديديين كثر لسياسته. لكن ما يبقى مهماً بالنسبة إلى الفرنسيين اليوم هو أن ديجول كان زعيما وقائداً، ومثقفاً. ما زال صوته الهادئ والواضح يغري أجيالاً من السياسيين الفرنسيين الذين يستعملون في كلامهم تلك العبارة الديجولية الشهيرة التي تلخص حياته وصراعاته وموته أيضاً: «ليس مهمّا أن تكون سياسياً فحسب، بل عليك أن تكون فرنسياً حقيقياً... عليك أن تكون شعبياً جديراً، وعليك أن تحسن طريقتك في الحياة، كي يكون اختلافك مع الآخر مسألة مبدأ أنت بصدد الدفاع عنه، كي يكون موتك سبباً آخر يعطيك القناعة أنك عشت مخلصاً لوطنك الأم وأن موتك هو الدليل على إخلاصك لمبادئك.!»

يبقى السؤال، هل كان شارل ديجول أديباً؟ سؤال محير، خصوصاً أن شخصيته السياسية والتاريخية طاغية على كل شيء في حياته، وثمة كاتب اسمه جان جولميه أصدر

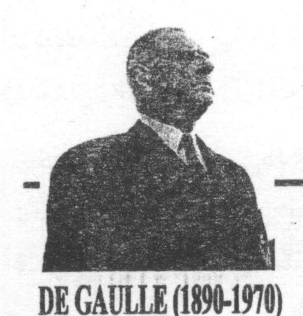
عن «شارل ديجول الأديب...» في خلاصة ما توصل إليه أن أعمال ديجول التي تركزت على شؤون الجيوش جاءت «وليدة فكر وأسلوب متينين. إنها مليئة بشاعرية الفكر. شاعرية القرن التاسع عشر». وقال: «ففي كتابة ديجول المتكبرة البصيرة يبدو الرجل واثقاً من نفسه كونه متيقناً من فكره مهما كانت العقبات التي سيواجهها متنوّعة وخطيرة». يتحدث جولميه في فصل بعنوان « ديجول والأسلوب الأدبي» عن أسلوب ديجول فيقول: إن «الموضوع لا يخلو من الأهمية فإنه بقوة العبارة تمكّن من الارتقاء إلى مستوى أعمال فنية أدبية بكتابات هي من إلهام الأحوال». وفي حديث جولميه عن كتب الجنرال، خصوصاً عن مجموعات خطبه بعد أن تطور أسلوبه، يقول: إن « ديجول مهما كانت عفويته من حيث الشكل فإنه فنان حريص برهافته على إيلائها العناية التامة فقد كان دائباً على تصحيح نصه الذي لا يرضى عنه البتة. وفي غياب أي دليل آخر يكفينا الجهد الذي يتجشمه في سبيل خطبه لإقناعنا بالجهد الذي تطلّبته كتبه». وهو لا ينسى أن دور الخطيب هو الإرشاد «فيرتب البراهين بسهولة كلية وهو بهذه البلاغة الصريحة والمباشرة المقتصرة على الوسائل الابتدائية يصل ليس فحسب إلى أسماع ولكن أيضا إلى ثقة الشعب الفرنسي المغرم بالوضوح».

الروائي وكاتب السير الذاتية بيار أسولين قال لوكالة فرانس برس: « ديجول كاتب. وأحد أهم الكتاب. إنه كاتب لامع. لم يعترض أحد عندما تلقى تشرشل جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٣، مع أنه كتب مذكراته بمؤازرة مجموعة من ٥٠ مساعداً! ديجول نفسه كان يحلم بالفوز بجائزة نوبل...»، ويضيف: « هذه الجدالات ذات طابع فرنسي بامتياز. الناس لا يميزون بين الأدب والرواية، وبالنسبة إلى الكثيرين، لا أدباء سوى الروائيين. هذا ما أسميه بطغيان الرواية. ديجول ليس مؤرخاً. مذكراته تدل على مهاراته ككاتب مذكرات ومؤلف عظيم. مقاطع كثيرة تستحق أن تكون موضع دراسات أدبية، لمقارنتها مع مؤلفات هوجو وبيجي والأعمال الأدبية الإغريقية». وهنا يكون السؤال: ما هو الأدب؟ وهل يستحق تشرشل جائزة نوبل؟ من يقرأ مذكراته؟ ومن يصنّف الكتب والكتاب؟ هناك نعود إلى معادلة قوة الشخصية في المجتمع، ربما علينا أن نتذكر أن هتلر كان رساماً فاشلاً ولو انتصر في الحرب لكانت رسومه اليوم تدرّس في المعاهد الكبرى وربما كان مدرسة في الرسم الفاشل، تشرشل كان معروفاً بنرجسيته وحبه للحضور،

كان يريد أن يكون العريس في الزفاف والميت في الجنازة، أي يريد الحشد حوله على نحو دائم، وهو عرف كيف يبتكر الدخول في لعبة غواية الأدب، والراجح أن مريدي ديجول يحاولون متأخّرين إدخاله في عالم الأدب، في زمن لم يعد الأدب أدباً ولا الرواية رواية ولا الشعر شعراً، بات هناك نوع من ضياع في الأجناس الأدبية، أو لنسمِّها الثقافة الهجينة.

ليست أهمية شارل ديجول في أنه كان أديباً بل في أنه كان محوراً للسجال بين الأدباء والكتاب، كان محاطاً من الكاتبين أندره مالرو وفرنسوا مورياك. ومن خلال مجلته الشهيرة «الأزمنة الحديثة» ما انفك سارتر يحارب ديجول ويدين ديكتاتوريته المزعومة ويشبّهه بستالين بل وأحياناً بهتلر! وكان يقف في مواجهة ديجول كالند للند. كان يمثل عبقرية الفكر في مواجهة عبقرية السياسة. لذلك، كان ديجول يحترمه على رغم كل الكلمات البذيئة التي قالها بحقه. وعندما طلبوا منه أن يسجنه بعد أن نزل إلى الشارع ضده وتجاوز كل الحدود في معارضة حكمه رد عليهم بعبارته الشهيرة التي ذهبت مثلاً: لا أحد يسجن فولتير! وهي تدل على عظمة ديجول قبل سارتر.




DE GAULLE (1890-1970)

الفصل التاسع

كتاب عن ديجول .. شاعر الفكر أو شاعرية القرن التاسع عشر

كتاب الأديب الفرنسي الراحل جان جولميه عن شارل ديجول كأديب تحول في نسخته العربية إلى كتاب بقسمين الأول عن الرئيس الفرنسي الراحل والثاني عن جولميه شخصيا.

في خلاصة ما توصل إليه جولميه أن أعمال ديجول التي تركزت على شؤون الجيوش جاءت «وليدة فكر وأسلوب متينين. أنها مليئة بشاعرية الفكر.. شاعرية القرن التاسع عشر.»

وردا على أي استغراب في هذا المجال أضاف متسائلا «لم يكون العقل - بشرط أن نحبه وندافع عنه بحماسة- غير قادر على إلهام عمل شعري. لو لم يجد ديجول في عشقه لفرنسا ولحرفة السلاح سر الارتقاء نحو الإنسان ولو لم يعرف كيف ينفث بالحياة أفكاره بقوة الأسلوب لبقي وهو تقني ماهر في الحرب شريكا محترما لدور نشر» متخصصة في الشؤون العسكرية.

وقال :«ففي كتابة ديجول المتكبرة البصيرة يبدو الرجل واثقا من نفسه كونه متيقنا من أن فكره مهما كانت العقبات التي سيواجهها متنوعة وخطيرة. سينتصر في النهاية إذ الفكر يلقى دعم تحالف الحقيقة الذي لا يقاوم»

اسم الكتاب جاء على الصورة التالية «شارل ديجول الأديب.. وتحية إلى جان جولميه». وقد ترجمه سهيل شباط إلى العربية وراجعه محمد صبح وأشرف على الترجمة ومراجعتها المركز الثقافي الفرنسي في دمشق وصدر عن دار قدمس في ٢٢٩ صفحة

متوسطة القطع بالعربية و١١٤ صفحة بالفرنسية. ونشر الكتاب بدعم من المركز الثقافي في دمشق ومساعدة وزارة الخارجية الفرنسية.

كتب السفير الفرنسي لدى سوريا جان ـ فرانسوا جيرو مقدمة صغيرة للكتاب متحدثا عن أول لقاء بين ديجول وجولميه فقال أن ذلك حدث في حلب في شهر أغسطس آب ١٩٤١ في أشد الساعات صعوبة من الحرب العالمية الثانية قبل أن يفرض ديجول نفسه «رئيسا دون منازع لفرنسا الحرة. جان جولميه إذ كان مديرا للتعليم في (حلب) كبرى المدن الشمالية في سوريا قدم إلى ديجول ولكنه لم يكن يجهله» إذ كان قد قرأ له كتبا هي «الشقاق لدى العدو» و«حد السيف» و«فرنسا وجيشها» فكان هذا اللقاء استهلالا لكتاب أصدره بعد خمس سنوات بعنوان «شارل ديجول كاتبا» ثم بعد عشر سنوات أصدر «مذكرات حرب» وفيه أدرك جولميه «بحاسة مدهشة بالاستباق أي قبل شهرة الجنرال الأدبية والسياسية قوة أعماله وحتمية مصيره.»

وتحدث المترجم شباط عن جولميه فقال انه لحبه للتوجه إلى سوريا التحق سنة ١٩٢٨ بفرقة من الرماة في بيروت وهناك تعلم لغة عربية مختلفة جدا عن العربية السيئة التي تعلمها في مدرسة اللغات الشرقية والسوربون. ثم عين في دمشق مستشارا للتعليم العام والتحق سنة ١٩٣٩ بفرقة سورية مختلطة في حلب وعلى ضوء قنديل بسبب غياب الكهرباء كتب كتابه الشهير «الأرض» وكتابا آخر هو «رقم القيد» وهما بداية كتبه فكان لهما أثر إيجابي في أدباء فرنسا. وغادر سوريا ولبنان إلى فرنسا عام ١٩٥١.

يتحدث جولميه في فصل بعنوان «ديجول والأسلوب الأدبي» عن أسلوب ديجول فيقول: أن «الموضوع لا يخلو من الأهمية فإنه بقوة العبارة تمكن من الارتقاء إلى مستوى أعمال فنية أدبية بكتابات هي من إلهام الأحوال.»

وفي حديث جولميه عن كتب الجنرال وبشكل خاص عن مجموعات خطبه بعد أن تطور أسلوبه يقول: «أن ديجول مهما كانت عفويته من حيث الشكل فإنه فنان حريص برهافته على إيلائها العناية التامة فقد كان دائبا على تصحيح نصه الذي لا يرضى عنه البتة. وفي غياب أي دليل آخر يكفينا الجهد الذي يتجشمه في سبيل خطبه لإقناعنا بالجهد الذي تطلبته كتبه.» وهو لا ينسى أن دور الخطيب هو الإرشاد «فيرتب البراهين

بسهولة كلية وهو بهذه البلاغة الصريحة والمباشرة المقتصرة على الوسائل الابتدائية يصل ليس فقط إلى أسماع ولكن أيضا إلى ثقة الشعب الفرنسي المغرم بالوضوح».

يضيف جولميه «لا بد للمرء من أن يفاجأ لدى قراءة صفحة من كتابات ديجول من كثرة توارد البنية الثلاثية فيها. لقد بيّنت. ولا أدعي أنني استنفدت العدد أكثر من ستمائة في «الجيش المهني» و«فرنسا وجيشها» وسأكتفي ببعض الأمثلة..».

ويعرض نماذج عن ذلك التقطيع الذي يخلق إيقاعا موسيقيا معينا ويبدو في الوقت نفسه محشوا بالمعاني أو مضغوطا بشكل مدروس والذي يسميه الكاتب «المقاطع المؤلفة من ثلاث جمل متساوية» ومن ذلك قول ديجول «من هنا.. شبكة من المواثيق والاتفاقيات والمراسيم العامة. أن يكون ثمة متسع من الوقت. الوقت ضروري فعلا للتنظيم.. للتسليح. لتدريب الدفعات الجديدة.»

يضيف جولميه «وفيما يلي تراكيب ثلاثية لجمل مستقلة أو جمل تابعة أو جمل صلة الموصول.. في كل مكان تتصلب الأنانية في الدول. كل ينكفىء على ذاته العالم يضج بالهتافات.. الأذى الذي ألحقوه بي.. الظلم الذي مارسوه علي. المكانة التي تعود إلي» وينتقل إلى مثل آخر: «هؤلاء الفرنسيون الذين اندفعوا حتى فالماي. الذين حطموا تماما العدو. هؤلاء من بين الألمان الذين في ٢٣ (فبراير) شباط ١٩١٨ الذين عبر عشرة أسابيع، تخيلوا أن ساعة الحسم قد أزفت حيث التقدم متسارع. حيث كل جرأة من الجرات مسموح بها، حيث العدو يستسلم للقدر».

ويقول الكاتب: «وتتكرر ثلاثية المفردات أكثر من الجمل ولأكثر من مرة في الصفحة الواحدة ثلاثيات أسماء.. مشاريع مجهضة. أمال خائبة. إخفاقات في مساعينا... اضطراب. انقسامات. قرف. مذابح. نهب. حرائق. مدافع خفيفة. مدافع قديمة.. بنادق قديمة.. مدافع ثقيلة.هجينة. حنشية كبيرة.»ونتنقل معه إلى «ثلاثيات نعوت» فنقرأ «فريسة قريبة في الغابة. جميلة في الغابة.. وسهلة في الغابة.هذا الشعب المتحرك المتردد المتناقض.»ومن هنا إلى ثلاثيات من أسماء العلم «دوق بريتاني. دوق دانجو. دوق ده بورجوني.. أنجو الأنسون. نافار.. إلكسندر. هانيبال. نابوليون.. فونتينوا، قسنطينة، سيباستوبول».

وهناك ثلاثيات من المصادر أو ما يسميه المؤلف أفعالا مصدرية ومنها «يطلب إلى

غرفة التمريض التقويم..إعادتها.. تقويمها.. للإعلام.. للمرافقة.. للضبط.. للهجوم.. للرمي.. للتحطيم..» ومن هنا ننتقل إلى «ثلاثيات أفعال في صيغة اسم الفاعل» وهي كما تبدو لنا بالعربية أقرب إلى «الحال» في غالبها ومنها مثلا «مطبقا.. مطورا.. مسرعا.. مستمعا.. رائيا..مفكرا».

يقول المؤلف: إن هذه المفردات لا تأتي مرتبة عن طريق الصدفة «إنما نظامها يشير كثيرا إلى تطور متزايد» ويقدم مثلا على هذا الأمر «هذه الأخطاء.. هذه الأوهام.. هذا الاضطراب من ثم يتقون الهزات.. الانقطاعات.. التقلبات. جنود ساهرون.. واعون أصلاب.. حاذقون.. أمينون.. يا لبؤس هؤلاء الجنود».

وينتقل نص ديجول أحيانا من الواقعي إلى الخرافي. من الحقيقي إلى الأسطوري «وديان ضيقة. سفوح وعرة. أحراش عميقة. جنيات. ضبابات. عفاريت وأرواح شريرة».

يقول جولميه «إلا أنه وإن تنوع استعمال هذه البنى فإن أسلوب ديجول معرض للرتابة والصرامة غير المحتملين لو لم يحي هذه الآلية الثقيلة بعض الشيء بكل وسائل الحركة.» وزاد على ذلك قوله: «ليس اللون هو ما يجعل أسلوب ديجول يشد الانتباه فلغته أقرب إلى التجريد.. خالية من الصور. فلندرس الرسوم التي يزين بها إنشاءاته التاريخية إذ لا نعثر فيها على تفصيل حسي لهيئة الشخص وإنما فقط بعض الخطوط اختارها بمهارة تكفي لاستحضار روحه أو فكره».

وليس من النادر أن يأتي نثر ديجول على فقرات شعرية حقيقية حيث تستعمل إيقاعات مختلفة بما فيها الوسائل التعبيرية للشعر الحر» ومن ذلك مثلا قوله: «ولكن إن أراد السير إلى الشمال. كم من نهر قاطع الطريق. كم من بركة من مستنقع... مترامية إلى ما لا نهاية. تستهلك بحزن قوته وشجاعته».

في «تحية إلى جان جولميه» نصوص وشهادات عديدة منها للويس نوسيرا وإيريك دوشو وآلان ديجران وجابرييل دونور ورسائل إليه من ديجول ورسالتان من لوي أراجون وأخرى من أندريه بريتون.



DE GAULLE (1890-1970)

الفصل العاشر

ديجول والجزائر (١٨٩٠- ١٩٧٠)

شارل ديجول رجل دولة فرنسي ومن أبرز رجالات فرنسا في القرن العشرين ، ولد في مدينة ليل بالشمال الفرنسي سنة ١٨٩٠ في وسط عائلي محافظ، وهو ثالث طفل من بين خمسة إخوة، لأبٍ عمل أستاذاً في التعليم الكاثوليكي، كان له دور مهم في تربية ابنه وتعليمه لدى الإخوة الجزويت ، في سنة ١٩٠٨ اتجه للعمل في الجيش والتحق بمدرسة سان سير Saint cyr وحصل على المرتبة الثالثة بين زملائه في دفعته، وعين ضمن الكتيبة الثالثة والثلاثين للمشاة تحت قيادة العقيد بيتان Pétain.

رقي إلى رتبة ملازم أول، شارك في الحرب العالمية الأولى وجرح ثلاث مرات، ثم ترقى مرة أخرى إلى رتبة نقيب Capitaine وألقي عليه القبض من قبل الألمان وسجن في حصن Ingolstadt، وفي سنة ١٩٢٤ نشر كتابه: La discorde chez l'ennemi. وفي ٧ أبريل سنة ١٩٢١ تزوج من Yvonne Vendroux ابنة أحد الصناعيين، وفي السنة نفسها استدعي إلى مدرسة سان سير لتعليم التاريخ العسكري فيها.

أرسل إلى لبنان سنة ١٩٢٩وبقي هناك إلى سنة ١٩٣١ كقائد للمكتب الثاني والثالث لأركان الحرب، وقد كتب كتاباً حول تجربته في منطقة الشرق الأوسط ، وبعد عودته إلى فرنسا عين في السكرتارية العامة للدفاع الوطني وبقي مدة ست سنوات مما سمح له بلقاء زعماء السياسة والحكم ، وفي سنة ١٩٣٢ نشر كتابه: Le file de lépée.

دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية التي كانت تحت قيادة

أدولف هتلر ، في هذه الأثناء وجه ديجول بياناً سياسياً إلى ثماني شخصيات مدنية وعسكرية انتقد فيه الإستراتيجية المطبقة من قبل أركان الحرب ، دخل الجنرال الحرب وهو برتبة عقيد وقام ببعض الهجمات المضادة الناجحة في شهر مايو من سنة ١٩٤٠ ورقي آنذاك إلى رتبة جنرال ، وفي ٥ من جوان ١٩٤٠ استدعي إلى باريس وتقلد منصب نائب كاتب دولة للدفاع في الحكومة المضيفة - اثنا عشر وزيراً - والتي كان يسيرها Paule Reymand.

بعد تكوين ديوان بيتان طار ديجول نحو لندن في ١٧ جوان - حزيران ١٩٤٠ في طائرة بعد أن رفض الهدنة الموقعة من قبل الجنرال Pétain. ومن هناك وجه نداءه المشهور في ١٨ من جوان - حزيران ١٩٤٠ من خلال راديو إنجليزي من أجل المقاومة ومواصلة الحرب إلى جانب بريطانيا ضد قوات المحور.

استطاع أن يفرض نفسه كرئيس لفرنسا الحرة بدعم من تشرشل منذ ٧ أوت - آب ١٩٤٠، وقد جمع ديجول حوله مجموعة من الضباط العسكريين والسياسيين والجامعيين ، ونتيجة لاتصالاته أنشئ « المجلس الوطني للمقاومة » CNR بداخل فرنسا والذي اعترف بديجول كرئيس لفرنسا الحرة. وانضم ديجول إلى الحلفاء إلى أن تم النصر على النازية، فعاد إلى فرنسا وبقي رئيساً للحكومة المؤقتة إلى أن استقالت سنة ١٩٤٦، وابتعد بعد ذلك عن الحياة السياسية حتى سنة ١٩٥٨ ، حين استنجد به الفرنسيون لإنقاذ الوضع في الجزائر، وأعطى فرنسا الدستور الذي أسس الجمهورية الخامسة، وأصبح أول رئيس لها، وأعيد انتخابه سنة ١٩٦٥، ثم استقال بعد فشله في استفتاء سنة ١٩٦٩ من أجل سبر ثقة الفرنسيين، وانتقل إلى مسكنه بـ Colomby les - deux églises حيث واصل كتابة مذكراته، وتوفي فجأة في ٩ نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٧٠.

تقديم الكتاب ونقده :

يحمل هذا الكتاب الذي نحن بصدد تحليله عنوان: «مذكرات الأمل - التجديد ١٩٥٨ - ١٩٦٢»، وهو جزء من مذكراته الخاصة بالحرب ومذكرات الأمل، ترجمه كل من سموحي فوق العادة وأحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت الطبعة الأولى ١٩٧١ . وهو يتكون من ٤٠٦ صفحات من الحجم العادي. ينقسم إلى قسمين: القسم

الأول منهما تحت عنوان: «التجديد: ١٩٥٨ ـ ١٩٦٢»، ويحمل القسم الثاني عنوان: «الجهد: ١٩٦٢ ـ...».

أما ما يهمنا فهو القسم الأول (١٩٥٨ ـ ١٩٦٢) حين كانت الثورة الجزائرية على أشدها، وهي الفترة نفسها التي حكم فيها الجنرال ديجول فرنسا في جمهوريتها الخامسة. وقد ورد الحديث عن الثورة الجزائرية بهذا القسم في مبحثين:

الأول تحت عنوان: «أقاليمنا فيما وراء البحار».

والثاني يحمل عنوان: «الجزائر».

أولاً: أقاليمنا فيما وراء البحار:

فيما يخص المبحث الأول ابتدأه الجنرال ديجول بما يلي: «لما وليت وجهي شطر فرنسا، كنت مصمماً على إنقاذها من الالتزامات التي تفرضها عليّ إمبراطوريتها..» ثم انتقل إلى الحديث عما قامت به فرنسا من هجمات كبيرة لغزو الأقاليم التابعة لها ورفع مستواها. وأثنى على بعض الشخصيات الفرنسية التي كان لها دور مهم في تثبيت أقدام فرنسا ونشر نفوذها على الصعيد العالمي من أمثال بوجو، وفايديرب، وآرشينار، وبرازا، ودومر، وجالييني، وليوتي، وغيرهم.

ولم يهمل الاعتراف بالجميل للشعوب التي شاركت إلى جانب فرنسا في الحربين الكونيتين الأولى والثانية، وأثنى على مختلف قطاعات الحكم من جنود وحكام مدنيين ومستوطنين ومعلمين ومبشرين ومهندسين، من الذين بذلوا جهوداً مضنية من أجل تحقيق التنمية العصرية المحققة، وكأن تنمية تلك البلدان كانت بسبب الرجال الفرنسيين الذين كان غرضهم الأول والأخير هو خدمة فرنسا ولا شيء غير ذلك.

ويتأسف على هذه المناطق التي كان ينوي تركها، بقوله: «فيا لها من محنة معنوية أتولى فيها انتقال سلطتنا، وأطوي أعلامنا وأطبق كتاب التاريخ الضخم».

ثم يلج ديجول ميداناً آخر هو المَبالغ الضخمة التي كانت تنفقها فرنسا في هذه البلدان (المستعمرات) من نفقات متزايدة في كل القطاعات، في الوقت الذي كان يلاحظ رغبة سكان هذه المناطق في التحرر.

رغم أن فرنسا ـ كما يقول ـ منحتهم حضارتها وأنشأت نظاماً مركزياً يهيىء للدولة الوطنية بدلاً من الانقسامات الفوضوية القديمة. وعلى أن فرنسا كونت نخبة من الرجال المشبعين بالمبادئ الغربية المتصلة بحقوق الإنسان والحرية.

ويتعرض لظهور دعاة التحرر في مختلف البلدان وبخاصة ظهور الكتلة الشرقية التي كانت تناصر حركات التحرر في العالم الثالث، وهو لا يدعو إلى قطع الصلة بهذه البلدان الواقعة (ما وراء البحار) إذا حصلت على استقلالها، بل يدعو إلى العمل على مساعدتها لأنها ستكون بحاجة إلى ذلك، لأن الرابطة التي أقامتها فرنسا عقوداً طوالاً كفيلة بربط هذه البلدان بفرنسا، ويضيف: «فالواجب يقضي بمساعدتهم بمجرد أنهم يتكلمون لغتنا ويتقاسمون معنا ثقافتنا..» فالجنرال يجعل الرابطة الأساسية التي تربط فرنسا بهذه البلدان، في حالة استقلالها، هي الرابطة اللغوية التي اعتبرتها بعض نخب هذه البلدان غنيمة حرب. ويبذل الفرنسيون من أجلها كل غال ونفيس.

وبعد تعداد مختلف أوضاع هذه البلدان وحالة كل واحدة منها ونوع العلاقة مع فرنسا، ينتقل إلى الجزائر ويقول: «والآن ما مصير الجزائر؟ لم نكن هنا أمام وضع يقتضي حله ودياً، إنما كنا أمام مأساة كاملة، مأساة فرنسية ومحلية في آن واحد. لقد كانت الجزائر تحتل في حياتنا القومية أهمية لا مجال للموازنة بينها وبين بقية البلدان التي كانت تابعة لنا..»

إذن فالجنرال ديجول يعترف بأن للجزائر وضعية خاصة غير بقية البلدان المستعمَرة الأخرى، ذلك أن حكمهم لها كان مباشراً لأنها في نظرهم أرض فرنسية، عكس البلدان التي تركوا فيها الحكام المحليين، كما أن قربها وأهميتها الإستراتيجية وقدم احتلالها جعلها تحتل الصدارة بين البلدان الواقعة تحت حكمهم. وهو عندما يذكر المأساة يذكر أنها مأساة فرنسية من جهة ومحلية من جهة أخرى، أي تمس الوضع الفرنسي والجزائري، أما حديثه عن الحل الودي والمأساة فهو يفصل بين المعنيين؛ فالحل الودي هو التفاهم مع البلدان الراغبة في الانفصال عن فرنسا، وهي البلدان الأخرى، أما الجزائر فهي التي يعبر عنها بالمأساة، أي هي الحرب وهي الخسائر وهي الثورة، وهي إرغام فرنسا على الرضوخ لمطالب الثائرين قسراً.

لقد كان غلاة الاستعمار يقولون: إن البحر المتوسط يقسم فرنسا مثلما يقسم نهر السين مدينة باريس، وهو أمر كذبته الانتفاضات المتتالية التي قام بها الجزائريون تحت قيادة زعامات دينية طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ثم جاءت الحركة السياسية لتؤكد انفصال الشعب (الأهلي) عن الفئة المستعمِرة، وذلك طيلة النصف الأول من القرن العشرين إلى اندلاع الثورة التحريرية ثم انتصارها سنة ١٩٦٢.

وديجول لا ينفي ذلك بل هاهو يذكر أن فرنسا قضت على عدة انتفاضات بعد جهود مضنية بذلها كل من الخصمين. كما أنه لا يخفي أن احتلال الجزائر كان مدخلاً لاحتلال بقية البلاد المغاربية والصحراء. إلا أنه وفي الوقت الذي يشير إلى استيطان مليون من الفرنسيين الجزائر، يذكر أنه بفضلهم تم رفع مستوى الجزائر اقتصادياً بإقامة منشآت هامة بوسائل تقنية وجهد السكان، وأنهم كشفوا البترول والغاز الذي خدم الصناعة الفرنسية، وهو يقصد هنا السكان الأوربيين. أما السكان (الأهالي) فلا مجال للحديث عنهم، لأنهم حثالة تابعة لا مكان لها من الإعراب؛ لأن ما يهمه هو الشعب الفرنسي الذي جاء به إلى السلطة.

ويتعرض لفشل حكومة الجمهورية الرابعة في وقف القتال بالجزائر، ذلك الذي كلف الخزانة الفرنسية نفقات باهظة مما أدى بالشعب الفرنسي إلى معارضة هذه الحكومة التي عجزت عن إيجاد مخرج لهذه الأزمة. فجاء ديجول ليعمل من أجل إيجاد «وسيلة للتخلص من هذه المعضلة بأحسن ثمن.» والمعروف أن الجيش الاستعماري بقيادة الجنرال سالان وبتأييد من المستوطنين دعوا الجنرال ديجول إلى الحكم بعد الانهيار والإفلاس المادي والمعنوي للحكومات الفرنسية المتتالية. جاؤوا بديجول بهدف الحفاظ على «الجزائر الفرنسية» سمى ذلك بـ «تمرد ١٣ من مايو ١٩٥٨». وفي بداية شهر جوان - حزيران ١٩٥٨ تسلم ديجول الحكم. وفي اليوم الموالي توجه إلى الجزائر.

ويسمي ديجول الجزائريين بـ «المسلمين» ويذكر أنهم كانوا مزودين بالحزم والسلام، وأنهم مؤيدون لجبهة التحرر الوطني وللثورة، وإن لم يشاركوا كلهم فيها.

ويعترف بتعاطف شعوب العالم مع القضية الجزائرية وبخاصة الأمم المتحدة التي

اتخذت عدة مواقف إيجابية منها، وأن الجزائريين (المسلمين) يتوقون إلى استقلال بلادهم أسوة بشعوب أخرى سبقتهم إلى ذلك في إفريقيا وآسيا، وأنهم من أجل ذلك بدؤوا يعملون بأنفسهم لتحقيق هذا الهدف. وهو يقصد بذلك تضامن الداخل مع الثورة الجزائرية، وتضامن الخارج عن طريق الدعم والمساندة التي تلقاها القضية الجزائرية من لدن جهات متعددة في العالم.

ويمكن الإشارة هنا إلى أن أول لقاء دولي ساند القضية الجزائرية هو مؤتمر باندونج المنعقد في شهر أبريل من سنة ١٩٥٥ الذي حضرته دول إفريقية وآسيوية، وكانت الجزائر ممثلة بوفد ملاحظ عن جبهة التحرر الوطني. وفي السنة نفسها قدَّمت أربع وعشرون دولة من هذه المجموعة «رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة يوم ٢٩ جويلية طلبوا منه إدراج قضية الجزائر في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة بناء على تعليمات حكوماتهم..»

ويعيد ديجول سبب ثورة (المسلمين) إلى ما لحقهم من إهانات في المدن والقرى، وأنهم صبوا لعناتهم على الفرنسيين الذين أرادوا إبقاءهم تحت الاحتلال. ولكنهم مع ذلك لم ييئسوا من فرنسا وأظهروا تعلقهم «بأمة تتمتع بحكم الطبيعة بنزعة إنسانية وكرم تاريخي، ويتمنون أن يبقوا شركاء لها بعد تحررهم».

فهم إذن يريدون التحرر ولكن مع البقاء على علاقة جيدة مع فرنسا، وأن أملهم كبير في ديجول ، وهو يشير هنا إلى دعاة المساواة والإدماج وبعض وجهاء القبائل وبعض رجال الطرق الصوفية المرتبطة مصالحهم بسلطات الاحتلال، ولكنه أهمل ذكر دعاة الإصلاح والاستقلال التام في إطار ثوابت الشعب الجزائري.

ويبين ديجول أهم مهمة جاء من أجلها وهي القضية الجزائرية ويقول:«رأيتني منغمساً من رأسي إلى أخمص قدمي في هذا الموضوع». إذ المعروف أن الفرنسيين يئسوا من قدرة حكوماتهم المتتالية، منذ اندلاع الثورة الجزائرية، حتى سنة ١٩٥٨، على القضاء على هؤلاء «المتمردين» فلجؤوا إلى الجنرال ديجول الذي كان قد أنقذهم سنة ١٩٤٠ عندما أسس حكومة فرنسا الحرة بلندن على إثر سقوط باريس بيد الألمان وإنشائهم لحكومة فيشي الموالية لهم، وقادهم إلى التحرر إلى جانب الحلفاء لدحر

النازية سنة ١٩٤٥.

وهكذا إذن ومنذ سنة ١٩٥٨ دخلت فرنسا عهداً جديداً تميز بطغيان شخصية ديجول الذي فرض نظاماً صارماً». وقد بين في مذكراته هذه أنه وإن لم يكن لديه برنامج مهيأ مسبقاً فإن خطوطه الكبرى كانت محددة في ذهنه، حيث كان قد صرح سنة ١٩٥٥ أنه يجب استبدال السيادة في شمالي إفريقيا بالشراكة، كما أنه كان يرفض دمج المسلمين بالشعب الفرنسي.

ويذكر أن هذا الدمج كان ممكناً لو تم منذ مائة سنة أو بعد إحدى الحربين العالميتين، أما الآن ـ ١٩٥٨ ـ فإن منبت الأسرة الإسلامية ودينها وطرق معيشتها «جعلها تتمتع بشخصية قوية جداً بحيث لا تدع أحداً يمزق كيانها أو يسودها».

وهكذا يعترف ديجول ، الشخصية البارزة في التاريخ الفرنسي، باختلاف الشخصية الإسلامية للجزائريين عن الفرنسيين الذين أرادوا جعل الجزائر وطناً فرنسياً ودمج سكانه بفرنسا الأم ـ في نظرهم ـ وهذا ما أكده الشيخ المصلح عبد الحميد بن باديس زعيم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثلاثينيات من القرن العشرين حين صاح في وجه من قال إن على هذا الشعب أن يندمج مع فرنسا، وأنه لم يجد لهذه القومية الجزائرية أثر، حين قال: «ثم إن هذه الأمة الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها..» وقال في قصيدة لا يزال يتغنى بها الأطفال في المدارس ما يلي:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب

أو رام إدماجاً له ... رام المحال من الطلب

إذن فقد جاء ديجول بنية تغيير الوضع السابق ، ولكن ما هو الجديد الذي جاء به ؟

يصرح ديجول بأنه كان يريد أن يجعل من فرنسا طليقة اليد ، وأن تتولى التغييرات التي يقتضيها العصر وتمارس نشاطها في الخارج دون قيد، وأن ترفع جيشها إلى مصاف

الدول العظمى الحديثة ، وذلك بمنح الجزائر حق تقرير المصير بنفسها رغم فشل ما كان الفرنسيون يحلمون به بالأمس وما يأسفون عليه اليوم. ولكنَّ حق تقرير المصير الذي يتكلم عنه الجنرال مضمن بشروط هي:

ـ أن فرنسا هي التي تمنحه وفقاً لمصالحها، ولن يفرض عليها من أحد على اعتبارها منهزمة، ولن تخضع لأي ضغط خارجي أو مساعٍ حميدة أو غير ذلك وحتى من الأمم المتحدة.

ـ أنَّ على الفرنسيين الراغبين في البقاء بالجزائر أن يقرروا ذلك، وأن الجيش الفرنسي سيضمن سلامتهم.

ـ إنشاء معاهدات بين الطرفين تمنحهما امتيازات متبادلة في مختلف الميادين الإستراتيجية.

ـ بقاء الجزائر فرنسية من عدة أوجه بالحفاظ على الطابع الذي اكتسبته.

وأوضح أن أهدافه المسطرة هذه سيعمل بها بكل حذر وخطوةً خطوة حتى لا يثور في وجه أي معارض قد يؤدي إلى فشل سياسته ، أي أنه التجأ إلى المناورة.

ويتعرض ديجول إلى زيارته للجزائر في الرابع من شهر جوان بعد تسلمه السلطة، وكيف تم استقباله في المطار وعن هتافات الفرنسيين في طريق الوفد ، وكيف رد عليهم بعبارة مقتضبة، ما يقول ـ وهي: «لقد فهمتكم.» Je vous ai compris يذكر جوان موران، المندوب العام في الجزائر والمكلف بالنظام فيها، أن الآلاف من المسلمين الذين استقبلوا الجنرال عند نصب الموتى، جيء بهم من قبل العسكريين وأُركبوا بالقوة في شاحناتٍ للمجيء ليشهدوا بالوحدة الجزائرية الفرنسية

ويتعرض ديجول للثوار فيتحدث عن «هؤلاء الذين حملهم اليأس على إثارة القتال المرير والأخوي في هذه البقعة من الأرض، وأنا أعترف أنه يتحلى بالشجاعة ، نعم أنا ديجول أفتح لهؤلاء جميعاً باب المصالحة». وهو يقصد كل الفئات التي كان يتكون منها المجتمع المقيم آنذاك بالجزائر مدنها وقراها، سهولها وجبالها..

ويستعرض وجهة نظر من يسميهم بالمسلمين فيذكر أنه باستثناء بعضهم الذين لهم

وظائف رسمية أو هم نواب ـ الذين سيؤيدون السياسة الفرنسية ـ فإن الآخرين «يتحملون الأذى دون الاستسلام» وهو بذلك يعني وقوفهم مع الثورة، رغم أن ديجول يهَوِّن من الأمر باستعمال عبارات بسيطة: الأذى ـ الاستسلام.. ولا يستعمل الثورة أو الاستقلال ، أو غير ذلك من الكلمات والعبارات التي تعترف فيها الواقع كما هو.

ويتحدث عن العسكر الفرنسي في الجزائر فيبين أن فكرته هي الاحتفاظ بالجزائر فرنسية؛ ومع ذلك استنتج تواجد ثلاثة اتجاهات في هذا العسكر، أهمها الاتجاه الذي يضع ثقته في الحكومة القوية التي سيطيعها لحل القضايا العالقة.

ويذكر دور بعض الفرق الفرنسية في مهاجمة الثوار في الجبال والغابات والتصريح بوقوع اشتباكات «حامية الوطيس من جراء وعورة الأرض واستبسال الخصم». ويتحدث عن نجاح المنشآت الواقعة على الحدود الغربية والشرقية من أسلاك شائكة مكهربة وملغمة تعيق دخول وحدات الجيش بالمراقبة وحماية المنشآت ومساندة الشرطة وإقامة الحواجز في البر والبحر.

وهو بهذا يعترف بوجود حرب ثورية في الجزائر، فهو لا ينكرها بل يؤكد وجودها، ولكنه يخفي فشل القوات الفرنسية في التصدي لها، ويقتصر على الجوانب البراقة ليظهر قوات بلده قائمة بواجبها على أكمل وجه.

أما قوات الثورة فهي في رأيه محصورة في الجبال الوعرة (الأوراس ـ النمامشة ـ الحضنة ـ البيبان ـ الونشريس ـ الظهرة ـ الضاية ـ تلمسان ـ الأطلس الصحراوي)، وأنه يعاد تنظيمها هناك بعد بعثرتها، وأن عددها لم يتعد يوماً ثلاثين ألف جندي، وهي لا تتحرك إلا في الظلام وفي الأرياف والبوادي، أما المدن فبفضل نظام منع التجول لا تقع سوى بعض الاعتداءات الفردية، أما سلاحهم فهو ما تحمله اليد من بنادق وقنابل ورشاشات ومدافع أما الدبابات والطيران ومدافع الميدان فمنعدمة.

ويبين استمرار العمل الفردي العادي من مزارعين وعمالاً وموظفين.. في مختلف المؤسسات المدنية والعسكرية دون أية عراقيل، وأن معدل الوفيات يومياً بين الفرنسيين سبعون شخصاً (وسطياً) منهم عشرة يقتلون برصاص الثوار.

ويخص الجنرال سالان، القائد العام والمكلف بالسلطات المدنية، بعدة فقرات

يتحدث فيها عنه من خلال مرافقته إياه في رحلة تفتيشية قام بها ديجول للجزائر، فيثني على كفاءته ومهارته وجاذبيته الخاصة واطلاعه على مختلف قضايا الجزائر المدنية والعسكرية ونجاح سياسته تجاه الخصم. إلا أنه يصرح أن سالان لا تتفق وجهات نظره مع أهداف ديجول ، وأن شخصيته منطوية على التقلب ومحاطة بهالة من الألغاز، مما جعل ديجول يفكر في إسناد منصب آخر له.

وفي اليوم السابع من جوان ١٩٦٠ عاد ديجول إلى باريس حيث أعلن عن انسحاب الجيوش الفرنسية من أغلب جهات تونس والمغرب، وعاد ديجول ثانية إلى الجزائر في أوائل شهر جويلية رفقة بيار جيوما وجي موليه. وحتى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٠ زار ديجول الجزائر ست مرات أخر، وتجول في جميع مرافقها، وهو يفتخر بأنه الوحيد من رؤساء الجمهورية الفرنسية الذي قام بهذه الزيارات منذ سنة ١٨٣٠ . أي أنه يثبت أنه رجل ميدان ولا يكتفي بالبقاء في الصالونات والمكاتب.

كما زار بلدان إفريقيا وراء الصحراء في أوت ١٩٥٨ ليشرح مشروعه حول الاستفتاء الذي سيقدمه لشعوب ما وراء البحار في مسألة علاقتها بفرنسا: الارتباط أو الانفصال، أي أنه قام بحملة لصالح مشروعه ، وقد كانت النتيجة لصالح مشروعه هذا بشكل إيجابي بلغ نسبة ٩٥٪ ما عدا غينيا التي فضل شعبها الانفصال.

وفي سنة ١٩٥٩ أعلن ديجول عما أسماه بـ «سلام الشجعان»، حيث دعا الثوار إلى وضع السلاح دون شرط والاتصال بسفارتي فرنسا في تونس والرباط لتنظيم عملية الاستسلام. وقد ذكر في مذكراته هاته أنه كان ماض في تحقيق السلام في الجزائر، على أن تبقى الجزائر مرتبطة بفرنسا «والعمل في الوقت نفسه على دعم جهازنا العسكري، بحيث لا يتمكن أي شيء أن يمنعنا، في أي حال من أن نكون في الجزائر سادة مقرراتنا».

وبهذا يؤكد ما فعله ميدانياً من مضاعفة مشاريع القوة والإرهاب في الجزائر والتي قام بها الجيش الفرنسي، منها برنامج شال الذي بدأ تنفيذه في فيفري من سنة ١٩٥٩ للقضاء على الثورة. ومنها عمليات المهجر بالقبائل، ومنها عملية الشرارة ببلاد الحضنة لتطهيرها من الثوار، ومنها عملية الأحجار الكريمة على جبال قسنطينة وأخرى على جبال الونشريس، بالإضافة إلى التفنن في وسائل التعذيب والتوسع في المحتشدات.

لقد جرب ديجول مختلف الأساليب لقهر الثورة، أساليب القوة ميدانياً وأساليب الإغراء والمناورة علناً، حتى إذا فُرِض عليه التفاوض يكون في مركز قوة ليفرض وجهة نظره التي ستتماشى طبعاً ومصالح فرنسا، وهي الإبقاء على امتيازات عديدة هي ما يدعى بالاستعمار الحديث: الامتيازات الاقتصادية بالاستحواذ على المناجم ومراكز الطاقة وإبقاء قوات عسكرية في أماكن إستراتيجية لحماية هذه المصالح والامتيازات والتركيز على الميدان الثقافي إبقاء للتأثير في هذا المجال.

لقد وضع ديجول القضية الجزائرية من أوليات اهتماماته، لهذا أمسك هذه القضية بكل قوة وبطريقة مركزية، يقول عن ذلك: «فكل قضية هامة تخص الجزائر كانت تعرض على مجلس محدود، ويضم تحت رئاستي رئيس مجلس الوزراء والوزراء وكبار الموظفين والجنرالات المعنيين مباشرة بالموضوع..» ويصل إلى النتيجة التالية، وهي أن «جميع التدابير التي كان يترتب عليَّ اتخاذها كانت ترتكز على معرفة الأمور ودخائلها..».

ويتحدث عن محاولات اتصاله بزعماء الثورة، فيذكر أنه كلف عبد الرحمن فارس رئيس الجمعية الوطنية المنحلة، وذلك في ١٢ جوان للاتصال بالحكومة الجزائرية المؤقتة من أجل التفاوض، إلا أن الرجل تحفظ ثم طلب إعفاءه من القيام بالمهمة.

أما مشروع قسنطينة فقد جاء بناء على تصريح من ديجول في ٣ أكتوبر ١٩٥٨ الذي كان يهدف من ورائه ضمان إخراج الجزائريين من دائرة التخلف ـ ظاهرياً ـ بينما كان هدفه الواقعي محاولة تغيير أوضاع المسلمين الجزائريين خلال مخطط لمدة خمس سنوات تغييراً جذرياً اقتصادياً واجتماعياً، وأن يكون ذلك إلزاماً للعرب والقبائل. وكان ظن ديجول أن مشكلة الجزائريين اقتصادية واجتماعية بالدرجة الأولى، ولهذا فإن وسيلة الإصلاح هذه ستكون الضربة القاضية التي ستلحق بالثورة والثوار.

وكان أشد ما يخيف ديجول هو حدوث هزيمة ميدانية أمام ثوار الجزائر، وقد صرح أنه أمر ممكن حدوثه في أي وقت.

وفي الوقت الذي كان ديجول يطبق سياسة الشدة عسكرياً وميدانياً وبسرية تامة كان خطه السياسي بالتصريح بالتفاوض وحق تقرير المصير، يحدث الاضطرابات في

الأوساط الفرنسية المختلفة، بين المعارضة والتردد والخوف. ويذكر أن المسلمين قابلوا ذلك بالصمت وعدم الاكتراث، أما الدول الأجنبية فقد قابلته بين الشك في إخلاصه أو إمكاناته وبين الحذر العدائي من العالم الثالث والعالم الاشتراكي.

وقد أعاد ديجول وجهة نظره في خطاب ألقاه في ٨ جانفي ١٩٥٩ وهو مستقبل الجزائر المتحولة ذات الشخصية المميزة والمرتبطة بفرنسا برابطة وثيقة.

ولكي يظهر من حسن النية أمرَ بإطلاق سراح سبعة آلاف مسلم كانوا موقوفين بالجزائر، وخفضت أحكام الإعدام على بعض الثوار المحكوم عليهم بالإعدام، وتم نقل الزعماء الخمسة الجزائريين الموقوفين، من سجن الصحة في ميزون بلانش Maison Blanche إلى جزيرة إيكس، وأفرج عن ميصالي الذي كان خاضعاً للإقامة الجبرية في فرنسا.

وقد أبدت جبهة التحرير الوطني عن رغبتها في التفاوض مع الحكومة الفرنسية في بلد محايد وبدون شروط مسبقة ، أما الأعضاء المسلمون في المجالس المحلية فقد عبر معظمهم عن مساندتهم لسياسة ديجول ، واقترح بعضهم تكوين لجنة للوساطة بين الطرفين المتحاربين ، وهم بذلك يؤيدون الفرنسيين أولياء نعمتهم الذين ألهَوْهم بمناصب وامتيازات لا ترقى أبداً إلى ما كان يحصل عليه أمثالهم من ذوي الأصول الأوربية.

أما الأوساط السياسية الفرنسية فقد أبدت بصمت تأييدها لما يفعله ديجول وتركته يفعل ، وفي شهر أوت من سنة ١٩٥٩ زار ديجول الجزائر ، واطلع في عدة جهات على سير العمليات العسكرية الفرنسية ضد جيش التحرير الوطني، كما زار عدة بلدات كان الجيش يقوم فيها بجمع السكان لاستقباله، إلاَّ أن ديجول لاحظ الصمت الذي واجهه به هؤلاء السكان رغم أنه سمع من بعض التلاميذ نشيد لامارسييز. وقد أوقفه ذات مرة أمين سر إحدى البلديات بمنطقة القبائل، وقال له بصوت منخفض: «يا سيدي الجنرال! لا يغرنك ما رأيت! فكل الناس يريدون الاستقلال.»

ويذكر ديجول أنه سأل في مدينة سعيدة طبيباً عربياً كان ملحقاً بالقوات العسكرية عن رأيه فأجابه قائلاً: «إن ما نريده ونحتاج إليه هو أن نكون مسؤولين عن أنفسنا وألا

يكون أحد مسئولا عنا». وبهذا اقتنع ديجول ميدانياً بأن طريق التفاوض والتسليم بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره هو الحل الأمثل للطرفين.

وبتاريخ ١٦ من سبتمبر ١٩٥٩ أعلن ديجول عن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم وحذر الجزائريين من أنهم إذا اختاروا الانفصال فإن فرنسا ستوقف عنهم كل دعم ومساندة، وأنها ستقوم باللازم لتجميع الجزائريين الراغبين في البقاء فرنسيين.

وقد أحدث التصريح حفيظة بعض القوى الفرنسية في الجزائر، وظهر التمرد والعصيان وتكونت «الجبهة الوطنية الفرنسية» FNL بكل سرية برئاسة أورتيز. وفي فرنسا تجمع المتطرفون في أقصى اليمين وكونوا «تجمع الجزائر الفرنسية» FAF تحت زعامة جورج بيدو في ١٥ من جوان ١٩٦٠. وتعدد المعارضون في الجزائر وفرنسا من صحافيين وضباط جيش متقاعدين. وتجهم الجنرال ماسو قائد فرقة جيش مدينة الجزائر في صحيفة ألمانية على سياسة ديجول - الذي كان صديقاً له - فاستدعاه هذا الأخير إلى باريس.

لم تسر الأمور كما كان يرغب ديجول ، فقد أقدم بيار لاغليار عضو الجمعية الوطنية والضابط الاحتياطي هو وطلاب جامعة الجزائر - الذين كان يترأس جمعيتهم - على الاعتصام بقاعاتها في ٢٣ من جانفي ١٩٦٠ وأقسموا أن يجعلوا منها حصن «الجزائر الفرنسية»، وحاول السكان التجمع في هضبة جلبير لمناصرة المعتصمين ودعمهم، لكن الجيش تدخل لإرغامهم على التفرق ، وكان الهدف - كما يقول ديجول - إرغامه على التراجع عن قراره وهو حق تقرير المصير.

وحاصر الجيش بقيادة الجنرال شال الجامعة لعزلها عن السكان ثم سمح لهم بالاتصال بالمدينة ، وقد تردت الأوضاع كثيراً نحو الأسوأ في الجزائر بوقف المواصلات وإغلاق المخازن بسبب الإضراب، وظهر وكأن المدينة تميل نحو الانفصال.

وفي ٢٩ من جانفي ظهر ديجول على شاشة التلفزيون بلباسه العسكري ليؤكد بأن حق تقرير المصير للجزائر هو المخرج الوحيد الممكن، وأنه سيستعمل القوة ضد كل خارج عن القانون. وخضع الجميع للأوامر وأخليت المراكز المجاورة للمعاهد ، وحوصر المتمردون الذين انسحبوا شيئاً فشيئاً، وأوقف لاجايارد ليحاكم في باريس هو وغيره من

رؤساء الحركة ، وعاد الهدوء إلى الجزائر وسيطر الجيش الفرنسي على الوضع.

لقد وجد ديجول معارضة شديدة من قبل المعمرين في الجزائر والعسكريين الذين لم يقتنعوا بفكر ديجول ، لقد وعدهم الآخرون بالجزائر الفرنسية، كما أنهم أمضوا قرناً وربع قرن من الزمن في هذه البلاد، وهم ينتسبون إلى أكبر دولة بجيوشها وإمبراطوريتها، فكيف يقتنعون بين يوم وليلة بأن الجزائر ستخرج من أيديهم إلى أيدي من كانوا يحتقرونهم ويستغلونهم أبشع استغلال ، ولكن المآسي التي مثلتها القضية الجزائرية وثورة الجزائر لفرنسا حكومة وشعباً كان المخرج الوحيد منها وترك البلاد لأهلها.

لقد رأى ديجول أن ما يسميه بالتعاون الحديث بدل الاستعمار يخفف عن فرنسا أعباء مرهقة ،ويضمن لها آمالاً باسمة في المستقبل.

إنه الاستعمار الحديث الذي يؤدي إلى الاستغناء عن المصاريف الضخمة التي كانت تقوم بها الدولة المستعمرة لإدارتها وجيوشها ومصاريف الحرب ويكسبها، إن هي أحسنت التصرف، مكاسب ضخمة دون أتعاب ، لقد أرادوا تنصيب حكام يخدمون مصالح المستعمر السابق فيصدرون المواد الخام ويستوردون المصنعات ويبقون على لغة المستعمر وثقافته ويحموها، وهذا ما حدث في كثير من البلاد الإفريقية المستقلة، فكانت هذه إذن رغبة ديجول التي تخدم فرنسا ولا شيء غير ذلك.

وهاهو يُظهر أساه وألمه على فقد الجزائر وغيرها من البلدان التي كانت تتكون منها الإمبراطورية الفرنسية في قوله: «ويجب علي أن أتغلب على الألم الذي يحز في نفسي لإقدامي، عامداً متعمداً، على إنهاء سيطرة استعمارية، كانت تُعد في الماضي مجيدة، وأصبحت اليوم مرهقة مالياً».

ويشير في مكان آخر إلى أن الأفضل للفرنسيين هو أن يتخلوا بإرادتهم عن الجزائر التي أصبحت «صندوق أحزان» مع البقاء في أماكن محددة يقيمون فيها حكماً لمن يرغب في البقاء فرنسيين.

ثانياً : الجزائر :

لقد أولى ديجول أهمية كبيرة للجزائر مما يدل على أهميتها بالنسبة لبلده فرنسا ، وذلك

من خلال تخصيص مبحث خاص للجزائر (المستعمَرة والثائرة آنذاك) دون غيرها من مستعمرات فرنسا المترامية الأطراف في مختلف القارات، تلك البلدان التي تعرض لها في المبحث السابق (الأقاليم فيما وراء البحار)، والذي أخذ الحديث عن الجزائر فيه حصة الأسد.

لقد بدأ الاستعمار الحقيقي في الجزائر، وانتهى في الجزائر، كانت الجزائر بالنسبة لفرنسا هي ابنتها التي لا يمكن التفريط فيها، ولقد فقدت فرنسا بسبب حرب الجزائر، مستعمراتها الكثيرة في إفريقيا السوداء والمغرب العربي، لا لشيء إلا لكي تركز جهودها وقوتها للبقاء فيها، ولكن حساباتها كانت خاطئة، يقول الشاعر التونسي الشابي ما يلي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

لقد هب الشعب الجزائري من أقصى البلاد إلى أقصاها عاقداً العزم على التحرر والاستقلال، ولم يثنِه عن هدفه أي عائق؛ إلا أن نظرة ديجول لجبهة التحرير الوطني ولرجالها كان يشوبها نوع من عدم المصداقية، حيث كان يفسر رفضها للمفاوضات المشروطة وللحلول النصفية بأنها تعود إلى المزايدات والانقسامات. بينما كان رجال الثورة يريدون التفاوض المباشر، بين ممثلي الشعب الوحيد، أي جبهة التحرير الوطني وممثلي الدولة الفرنسية، ولأن سياسة ديجول الميدانية من خلال الأساليب الحربية التي اتبعها كانت تجعلهم يفقدون الثقة فيه، ويشككون في أهدافه.

أما الرأي العام الفرنسي فرغم تعدد مشاربه واتجاهاته، بدا أنه حتى المؤيدين للسياسة الديجولية كان يحز في نفسهم التفريط في الجزائر، وهم بذلك لا يستطيعون إخفاء مشاعرهم، حتى وإن لم يصرحوا بها علناً.

وهكذا لم يكن من السهل - كما يرى ديجول - إقناع الفرنسيين بالتخلي عن الجزائر، ولذلك سار على مهل، خطوة خطوة، ليهيئ الفكر والواقع حتى يبقى سيد الموقف، وقد عاد ديجول لزيارة الجزائر في شهر مارس من سنة ١٩٦٠ برفقة أكبر ضباط الجيش وطاف عدة مواقع عسكرية فرنسية، بيَّن فيها للعسكريين أن المهمة لم تنته وأنه يجب البحث عن الخصم والتغلب عليه، أما إنشاء جزائر جزائرية فسيتم في - نظره - بقرار من

الأمة الفرنسية.

وهو يذكر أن الصحافة الفرنسية هاجمته، وأثارت حوله غلياناً مما حمَل جبهة التحرير الوطني على إصدار بيانات حربية زادت من الضغوط المختلفة عليه.

وفي ١٤ جوان ١٩٦٠ وجه ديجول خطاباً للشعب الفرنسي جاء فيه ما يخص الجزائر ما يلي: «ما مصير الجزائر؟ إنه لم يَدُر بخلدي قط أنني سأتمكن، بين لحظة وأخرى، أن أحل هذه المعضلة الماثلة منذ مائة وثلاثين عاماً... ولكن بتاريخ ١٦ سبتمبر، انشق الطريق السوي والواضح الذي يؤدي بنا نحو السلم... إن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم هو الحل الوحيد الممكن لمأساة معقدة ومؤلمة..» ووجه كلامه لثوار جبهة التحرير الوطني يدعوهم إلى المجيء لأنه في انتظارهم، وذلك لإيجاد مخرج للقتال، إلا أنه كان يرى تحويل الجزائر الجزائرية إلى بلد مزدهر متحد مع فرنسا ومتعاون مع الاتحادات الفرنسية.

وقد استجابت جبهة التحرير الوطني لهذا النداء، وأرسلت في ٢٠ جوان وفداً يتكون من علي بو منجل ومحمد بن يحيا إلى مدينة مولان، ولقيهما عن الجانب الفرنسي روجي موريس والجنرال دوجاستين، ولم يتفق الطرفان لتشدد كل منهما بمطالبه، وبعد ثمانية أيام انتهى اللقاء دون اتفاق على أمل اللقاء مرة ثانية.

وقد واجهت ديجول عدة اضطرابات من قبل الفرنسيين الرافضين لفكرة الاستفتاء ولـ «الجزائر جزائرية». ففي الجزائر تجمع حوالي مائة ألف شخص من أنصار «جبهة الجزائر الفرنسية» وتجاوبت معها «الجبهة الوطنية الجزائرية الفرنسية» في باريس، وقد أعرب الجمع عن عدم موافقتهم.. وكان من بين المعارضين الماريشال جوان المولود بالجزائر، الحامل لأعلى رتبة في الجيش الفرنسي، والجنرال سالان الذي التجأ إلى إسبانيا خوفاً من عواقب الأمور، وتبعه آخرون من الذين برأتهم المحكمة الفرنسية على إثر أحداث التمرد السابقة في انتظار عودتهم إلى الجزائر سراً إذا ما واتت الفرصة.

وفي شهر نوفمبر من سنة ١٩٦٠ استقبل ديجول عدداً من وجهاء المسلمين المنتخبين حديثاً الذين أطلعوه على أن الحل النهائي هو الاتفاق مع «جبهة التحرير الوطني».

وفي ٩ ديسمبر من السنة نفسها حل ديجول بالجزائر للالتقاء ببعض الفئات من السكان وبضباط الجيش الفرنسي، وكان إلى جانبه لـوي جـوكس الـذي عـين وزيـر دولـة مكلـف بالشؤون الجزائرية، وجان موران المندوب العام في الجزائر Déléguée general وعـدد من الجنرالات. وفي ٩ من ديسمبر ١٩٦٠ حل بعين تموشنت، حيث قابلـه المسلمون بنداء: «الجزائر جزائرية»، بينما أطلق الأوربيون الصفير ونـادوا بواسطة مكبرات الصوت: «الجزائر الفرنسية.» وبعضهم كان يقول: يسقط ديجول .

لقد كان أوربيو الجزائر لا يريدون في هذه الفترة الحديث عن الحكم الذاتي ، ولا عن التعاون بين المجموعتين المسلمة والأوربية، وبقوا معادين لاقتراحات ديجـول عـلى الدوام ، وكانوا ينتظرون زعيماً عسكرياً يقلب الأوضاع ، ويستلم السلطة في الجزائـر، فيؤازرونه لوضع نظام جديد إبقاء لامتيازاتهم ، ومنعَ كل تغيير يكـون لصالح الأغلبيـة المسلمة.

وفي ١١ من ديسمبر وقعت صدامات بين الجزائريين والفرنسيين، وكان يوماً دامياً، إنها مظاهرات ديسمبر ١٩٦٠ التي وصفها بعض الفرنسيين أنفسهم بـ «ديـان بيـان فـو» جزائرية. يذكر جون موري ـ مرافق ديجول في زيارته للجزائر والمكلف بالنظـام بهـذا البلد ـ أن المظاهرات كانـت بـالجزائر ووهـران يـومي السبت والأحـد ١٠ و١١ مـن ديسمبر، حيث خـرج المسلمون في مظـاهرات وهـم يحملـون أعـلام جبهـة التحريـر الوطني، وقد أطلقت قوات الصاعقة النار على المتظـاهرين، ممـا أدى إلى مقتـل واحـدٍ وستين شخصاً مسلماً وخمسة أوروبيين وشرطي واحد.

أما في وهران فيذكر ١٨ قتيلاً و١٠٠ جريح و٣٠٠ موقـوف ، أمـا يـوم الاثـنين فقـد تناقص عدد المتظاهرين ثم اختفت الأسلحة والأعلام، وفي عنابة قدر عدد القتلى بثمانية أشخاص وثلاثة وثلاثين جريحاً.

لقد خرج الجزائريون إلى الشوارع لإعلان دعمهم لجبهة التحرير الوطني، وليقولـوا بطريقة ما: «نحن موجودون، يجب أخذنا في الاعتبار».

وقد أدت هذه الأحداث إلى تدخل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، وذلـك بقيام رئيسها فرحات عباس بمراسلة الأمين العام للأمم المتحدة وبعـض زعمـاء العـالم

كشوان لاي وخروتشوف وماك ميلان وتيتو ونهرو، كما راسل اللجنة الدولية للصليب الأحمر من أجل الوقف الفوري لأحداث الجزائر الدامية.

وفي ١٩ من ديسمبر عرض كريم بلقاسم قضية الجزائر على الأمم المتحدة وتمكن من الحصول على إدراجها فقرة فقرة على مشروع الحل الذي دافعت عنه ٢٣ من دولة أفرو ـ أسيوية، وهو يعترف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره واستقلاله.

ورغم أن ديجول لم يُعِر اهتماماً كبيراً لأعمال الأمم المتحدة فإن هذا التصويت «والمداولات التي أعقبته بَيَّنت ـ كما يذكر جون موران ـ أن كل العالم ضدنا فيما يتعلق بالقضية الجزائرية».

في هذه الفترة كان ديجول بالجزائر يزور بعض المدن في الغرب والشرق ، وخلال خمسة أيام اقتنع منها أن الجزائر سائرة نحو تقرير المصير ، وأن المسلمين مقتنعون بحقهم في الاستقلال، بينما الأوربيون عازمون على حرمانهم من ذلك مهما كلفهم الأمر.

وفي ٨ من جانفي صوت الفرنسيون في الاستفتاء لمنح الجزائريين حق تقرير مصيرهم أو عدم منحهم، هذا الحق الذي عرضه ديجول على الشعب الفرنسي، حيث صوت لصالح الاستفتاء ١٥ مليوناً فرنسياً بنعم، وصوت خمسة ملايين بكلمة: لا. وهي أغلبية تمثل ٧٦٪ وفي الجزائر صوت لصالح الاستفتاء ٧٠٪ من الأصوات. ولهذا لم يبق أمام ديجول سوى أن يتم ذلك بقرار يصدره هو ـ كما يقول ـ وتناسى أن المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني كانت سائرة، رغم أن الاجتماعات كانت متقطعة، إلا أن ديجول كان يلعب على الحبلين مرجحاً الحل العسكري الميداني دون أن يقطع حبل التفاوض.

وبما أنه كان يتوقع تصويت الجزائريين لصالح الاستقلال، فإنه يذكر أن الفرنسيين سيركزون حكماً حول مدينتي الجزائر وليس لفرنسا، لأن ديجول كان يختار بدل الاستقلال نظاماً قائماً على ما يسميه بالتعاون المتبادل بمنح امتيازات لكل من فرنسا والجزائر ، جاء في إحدى خطبه ببلدة تشرشل: «هذه الجزائر ترونها ظاهرة كل يوم كما هي، أي جزائر تتكون من المجموعتين، الأولى أغلبية والأخرى التي هي ضرورية لهذه الجزائر، مثل الخميرة ضرورية للعجين، هذه الجزائر تتراءى ستأخذ بقَدَرها بيَدَيْها،

يجب أن تبقى موحدة مع فرنسا».

ويتساءل ديجول عن أسباب تردد زعماء الثورة وخوفهم من المجابهة والالتزامات التي تقتضيها المفاوضات الجدية، ويعيد ذلك إلى قلة خبرتهم بالنواحي العملية وإلى التنافس القائم بينهم ، وهو بذلك يحاول زرع الشك بين الثوار ونعتهم بعدم القدرة على المجابهة مما يجعله هو في الصدارة دائماً.

ويتعرض في مذكراته للوفد الممثل للولاية الرابعة الجزائرية الذي التقى به في مدينة باريس سراً والمتمثل في كل من: العسكريين سي صالح وسي الأخضر ورجل سياسي يدعى سي محمد ، ويتحدث عن لقاءات إيفيان وليروس في فبراير ومارس من سنة ١٩٦١ ، حيث انتهت في إيفيان. ويشير إلى أن تلك الاتفاقيات انتهت بأن مَنَحَ الشعب الفرنسي بموجبها الجزائر الاستقلال صراحة، مع التعاون بين الطرفين.

وهكذا يتمادى ديجول في اعتبار استقلال الجزائر منحة منه ومن الشعب الفرنسي وليس أخذا، لأن ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة، ثم لماذا لم يمنح هذا الاستقلال قبل قيام ثورة أول نوفمبر! ولماذا لم يقع التفكير في ذلك إلا بعد فشل الحكومات الفرنسية المتتالية في القضاء على الثورة واستنجاد الفرنسيين به في آخر المطاف؟ في ٢٦ جانفي صرحت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بأنها مستعدة للتفاوض مع الحكومة الفرنسية بشرط أن يتم الاستفتاء بعد جلاء الجيش الفرنسي من التراب الجزائري.

وقبل ذلك بيوم واحد كان الجنرال شال قد طلب إحالته إلى التقاعد لمعارضته لسياسة الحكومة الفرنسية آنذاك ، وفي فانسان تجمعت العناصر المؤيدة لفكرة الدمج بتحريض من جاك سوستيل، وكونت لجنة لهذا الأمر. وفي الجزائر ووهران كون هؤلاء من جميع الفئات منظمة الجيش السري OAS وتضاعفت اعتداءاتها في فرنسا والجزائر.

وفي ١١ من أبريل وفي مؤتمر صحفي صرح ديجول بما يلي:

ـ الجزائر تكلفنا أكثر مما نربح منها.

ـ الحل هو انفصال الجزائر عنا.

ونبه إلى أن أعمال جيش التحرير الوطني هي التي أملت عليه هذا القول ، وقال: «إذا

قمت بكل ذلك، فليس بدافع حركة التحرر الواسعة التي أثارتها الحرب العالمية ونتائجها في جميع أنحاء العالم... وإنما لأنه بدا لي أن إبقاء فرنسا مرتبطة بالتزامات وأعباء تتعارض مع مقتضيات عظمة فرنسا وإشعاعها، لا يتفق مع مصلحتها الحالية، وطموحها الحديث».

كان ديجول يبحث عن مبررات لعرقلة استقلال الجزائر التام، فهو ينكر أن اعترافه بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره ليس خضوعاً وتحت ضغط الحرب التحريرية التي تتزعمها جبهة التحرير الوطني، كما أنه ينفي أن يكون ذلك بسبب رياح التحرير التي اجتاحت العالم أجمع بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، إذن ففرنسا لها وضع خاص ليس كبقية خلق الله، وكأنها تعيش في كوكب آخر منعزل ، أو أنها لا تحس ولا تكترث بما حولها من تغيرات، لقد وقع ديجول فيما قال: «رب عذر أقبح من ذنب».

وفي ٢٢ من أبريل ١٩٦١ توجه الجنرال شارل إلى الجزائر سراً في طائرة عسكرية، حيث استولى على السلطة ودعمه عدة ضباط وكتائب من المظليين، وألقى القبض على المندوب العام جان موران وعلى القائد العام الجنرال جامبيز وكل من يمثل السلطة ونصب محكمة عسكرية للنظر في جرائم الأشخاص المناصرين لمشروع التخلي عن الجزائر والصحراء ، وكان أول عمل قامت به المنظمة قد تم في مطلع شهر مارس سنة ١٩٦١ بظهور عبارة OAS على جدران الجزائر، وتم توزيع منشورات للإعلان عن نشأة جبهة حربية مع لجنة عسكرية وأخرى سياسية تحت رئاسة الجنرال سالان.

وفي ٢٥ من أبريل بدأ تراجع العديد من كتائب الجيش ومن الضباط عن التمرد والثورة، ثم اختفى قادة الجيش السري لتوجيه العمل سراً ، وقام هذا الأخير بأعمال إرهابية خفية في الجزائر وفرنسا، وقام الجزائريون بأعمال دفاعية لاسيما في مدينتي الجزائر ووهران. وقد أحدث ديجول محكمة عسكرية عليا بموجب المادة ١٦ من الدستور لمحاكمة المتهمين الرئيسيين (شال - ديلّر - جورو).

وفي ٢٠ مايو من سنة ١٩٦١ اجتمع الوفدان الفرنسي والجزائري للتفاوض في مدينة إيفيان: لويس جوكس يرأس الوفد الفرنسي وكريم بلقاسم يرأس وفد الجبهة، كانت إستراتيجية ديجول هي «سنرى ماذا يطلبون منا». ومن أجل إظهار حسن النية قام

ديجول بالإفراج عن ستة آلاف جزائري من بين عشرة آلاف محكوم عليهم لأعمال تتعلق بالثورة، وأخلى سبيل بن بلة ورفاقه الموقوفين بجزيرة إيكس ونقلهم إلى قصر توركان، وأطلق سراح مصطفى الأشرف.

كان جوكس حريصاً على مستقبل الجزائر المنفصلة بضمان التعاون الوثيق بين الأطراف ورعاية وضع الأشخاص الأوربيين فيها، وأن تعطى الأفضلية لفرنسا في كل شيء، مع استمرار سلسلة التجارب الذرية والفضائية بالصحراء مع تقديم مساعدات للجزائر في كل مجال، «لكي يتاح للنخبة الجزائرية أن تكتسب الثقافة الفرنسية وأن يتم تعليم الشعب باللغة الفرنسية.» أما رغبات الثوار فمبنية على عدم ثقتهم في الطرف الفرنسي، والشك في بقاء السيطرة الفرنسية على الجزائر.

لقد كانت الجبهة تطالب بوحدة الأمة الجزائرية ووحدة أراضيها، ورفض امتيازات خاصة بالمواطنين الفرنسيين والتخلي عن الصحراء.

أما رغبة فرنسا فهي تجميع الأوربيين والمسلمين الراغبين في البقاء فرنسيين في منطقة ضيقة يؤلفون فيها أغلبية السكان تتولى فرنسا حمايتها، والإبقاء على الصحراء بآبار البترول وتجارب القنابل والصواريخ، وإن اقتضى الأمر فصل الصحراء. فماذا تحقق من ذلك.

لقد جاءت اتفاقية أيفيان الخاصة باستقلال الجزائر، في كثير من بنودها لصالح الطرف الفرنسي باستثناء وحدة الأراضي الجزائرية واعتبار جبهة التحرير الوطني الممثل الوحيد للشعب الجزائري، وقد تخلصت الدولة الجزائرية من تلك القيود بتوالي سنوات الاستقلال، وفي وقت قصير جداً. لقد أحرز الشعب الجزائري في النهاية على الانتصار ـ كما يقول بن خدة ـ ويعود هذا الفضل إلى «جبهة التحرير الوطني التي عرفت كيف تنظم وتكافح على جبهات متعددة: عسكرية واقتصادية وسياسية وديبلوماسية، والتي لم تغلق الباب أبداً أمام المفاوضات مع الخصم...» مما أجبر فرنسا على الاعتراف رسمياً باستقلال وسيادة الجزائر في إطار وحدة ترابها بما في ذلك الصحراء.

ميركل وأولاند يشيدان بالصداقة الثنائية وبشارل ديجول:

أشادت المستشارة الألمانية انجيلا ميركل والرئيس الفرنسي فرنسوا أولاند

بالصداقة الفرنسية الألمانية، في الاحتفال بمرور ٥٠ عاما على إنهاء حالة العداء بين البلدين وضع أول لبنة للصداقة المتينة بينهما بعد الحرب العالمية الثانية

أكد الرئيس الفرنسي فرانسوا أولاند على ضرورة أن تواصل بلاده وألمانيا تعزيز التعاون الثنائي بينهما حتى يمكن السيطرة على المشاكل التي تواجه أوروبا. وفي مستهل الاحتفال بمرور ٥٠ عاما على خطاب تاريخي كان الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديجول ألقاه في ألمانيا، قال أولاند السبت (الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر): «نحن نشكل قلب أوروبا».

وشارك الزعيمان الأوروبيان أنجيلا ميركل وفرانسوا أولاند وفي احتفال بمناسبة الذكرى الخمسين لخطاب ديجول الشهير، الذي كان أول خطاب لزعيم أوروبي في ألمانيا بعد الحرب الألمانية الثانية. وأقيم الاحتفال في مدينة لودفيجسبورغ بجنوب ألمانيا. وطالب أولاند بضرورة أن تعمل أوروبا على تحقيق وحدة سياسية واجتماعية إلى جانب الوحدة المصرفية والمالية التي تسعي إليها وهو الأمر الذي يلقي «بمسؤولية من نوع خاص على البلدين» وطالب أولاند برعاية الصداقة بين البلدين. وختم أولاند خطابه بجملة باللغة الألمانية قال فيها: «عاشت الصداقة الألمانية الفرنسية».

من جانبها قالت المستشارة الألمانية « إن ألمانيا وفرنسا تتحملان مسؤولية خاصة لتحقيق التنمية المستدامة في أوروبا والتي يأتي في مقدمتها خلق فرص عمل للشباب». وتوجهت ميركل في حديثها إلى الشباب المحتفلين بالمناسبة بالقول: « إن مصير أوروبا المستقبل بين أيديكم». وكرر الرئيس فرنسوا أولاند بالألمانية متوجها إلى الشبيبة في نهاية خطابه الذي ألقاه بالفرنسية، ما قالته ميركل. وقال : إن «دوركم هو جعل الحلم الأوروبي حقيقة ومنحه مستقبلا. لتحيا الصداقة الفرنسية الألمانية».

ديجول واستقلال الجزائر

والواقع أن ديجول كان متشدداً جداً فيما يخص المبادئ، ولم يكن يساوم على الشرف الوطني أو الاستقلال الذاتي أو المبادئ العليا، ويبدو أن علاقاته مع تشرشل في تلك الفترة العصيبة من التاريخ شهدت بعض التأزمات والصراعات أحياناً، فكلاهما كان عملاقاً من الناحية السياسية والتاريخية، ولم يكن من السهل على ديجول أن يخضع

لتشرشل حتى لو كان مقيماً عنده.

وفي إحدى المرات صرخ تشرشل في وجهه قائلاً: ولكنك لست فرنسا كلها يا ديجول! أنت تمثل فرنسا المقاومة، أما فرنسا الأخرى فيمثلها غيرك.

فرد عليه ديجول فوراً: أنا أتحرك باسم فرنسا، وأناضل باسم فرنسا كلها، وأنا أقاوم النازية إلى جانب إنجلترا ولكن ليس لصالح إنجلترا، أنا أتحدث باسم فرنسا ولست مسؤولا أمام أحد غيرها!

وعندئذ رد عليه تشرشل قائلاً : كنت آمل أن نحارب جنباً إلى جنب ولكن أملي خاب بكلامك، فقد فهمت أنك قادر ليس فقط على محاربة ألمانيا وإيطاليا واليابان وإنما أيضاً إنجلترا وأميركا!

فرد عليه ديجول: آخذ كلامك على سبيل المزاح لا الجد، ولو عرفت أنك جاد لغضبت منك غضباً شديداً، فلو كان هناك شخص على وجه الأرض مفيد لإنجلترا لكنت أنا هذا الشخص.

وانتهى النقاش عند هذا الحد بين أكبر شخصيتين أثناء الحرب العالمية الثانية.

ثم يردف المؤلف قائلاً:أما علاقات ديجول مع روزفيلت فكانت أكثر تعقيداً لأن الرئيس الأميركي لم يكن يثق بديجول وكانا يحتقران بعضهما البعض على عكس تشرشل، والواقع أن ديجول كان منزعجاً جداً من الغرور الأميركي أو عنجهية اليانكي! وقد قال مرة لتشرشل: قل لروزفيلت بأني أفقر من أن أنحني مذلولاً أمام الأمريكان!

ويبدو أن روزفيلت كان يريد القضاء على القدرة الصناعية لفرنسا وتحويلها إلى دولة تابعة للعالم الأنجلو ساكسوني، بل وكان يعاملها على أساس أنها دولة مهزومة في الحرب مثل ألمانيا وإيطاليا.

وهذا ما كان يجعل ديجول يستشيط غضباً ويخرج عن طوره، فقد كان مفعماً بالأمجاد الفرنسية ولا يقبل إطلاقاً بأن يعامل أحد فرنسا وكأنها دولة ثانوية كان يشعر بأن كل عظمة فرنسا تتجسد في شخصه، ولذلك رفض أن ينحني أمام الأميركيان وحصلت له مشاكل كثيرة معهم بعد الحرب العالمية الثانية، وتحداهم أكثر من مرة أثناء

الحرب الباردة، بل وخرج من حلف الأطلسي أو من إحدى هيئاته الأساسية وراح يتقارب مع الاتحاد السوفييتي ويعترف بالصين.

وأما روزفيلت فقد رد عليه بالصاع صاعين، وحاول إهانته أكثر من مرة، وكان يعتبره ديكتاتورياً مقبلاً أو شخصاً انتهازياً على الأقل، ولكنه كان مخطئاً فقد اتبع ديجول بعد الحرب سياسة ديمقراطية تجاه الشعب الفرنسي، وكان أول قرار اتخذه هو إعطاء حق التصويت للنساء، أي لنصف الشعب ومعلوم أن المرأة الفرنسية كانت محرومة من هذا الحق سابقاً.

ثم أسس ديجول الضمان الاجتماعي للفرنسيين الفقراء والمتوسطي الحال، وهذا من أكبر إنجازاته، بالإضافة إلى تصويت المرأة ثم قام ببعض التأميمات لصالح العمال والطبقات الشعبية.

وعلى الرغم من كل ما فعله لفرنسا منذ تحريرها من الاحتلال النازي إلا أن الأحزاب السياسية تآمرت عليه فاضطر إلى ترك السلطة عام ١٩٤٦، أو قل أنه لم يضطر إلى ذلك وإنما استقال من تلقاء نفسه عندما شعر بأنه لا يستطيع أن يحكم البلاد كما يريد.

وبما أنه أكبر من الحكم ولا يستمد قيمته الشخصية من كرسي السلطة فإنه تخلى عنه بكل شموخ وكبرياء وعاد إلى قريته في كولوملبي لودو زيجليز.

ثم توالت على الحكم بعده عدة وزارات في ظل النظام المدعو بالجمهورية الرابعة، وكان النظام مضطرباً وغير مستقر لأن الحكومة تتغير فيه كل سنة وأحياناً كل بضعة أشهر.

ثم يردف المؤلف قائلاً: وبعدئذ اندلعت الأزمة الجزائرية وراحت الحكومات الفرنسية المتعاقبة تتخبط في طريقة حلها أو كيفية مواجهتها وفشل الاشتراكيون بقيادة جي موليه في تهدئة الأوضاع، وبعد أن فلتت الأمور من أيديهم لم يجدوا بداً من اللجوء إلى الجنرال ديجول، فذهبوا إليه في قريته الصغيرة لإقناعه بالعودة إلى الحكم، وبعد تردد طويل فهم أن البلاد بحاجة إليه مرة أخرى لإنقاذها من خطر محدق.

ولذلك قبل بالعودة إلى سدة السلطة حيث استقبله رئيس الجمهورية رينيه كوتي بهذه الكلمات، الآن أصبح أول الفرنسيين رئيساً لفرنسا، وسلمت له فرنسا قيادها لكي يخرجها من المستنقع الجزائري الذي غرقت فيه.

وبما أنه رجل تاريخي وذو حدس بعيد المدى فإنه فهم بعد فترة قصيرة بأن الحل لن يكون إلا باستقلال الجزائر وخروج فرنسا منها، وكان حلاً صعباً على الفرنسيين لأنهم تعودوا على الإقامة هناك منذ قرن ونصف تقريباً، وكان هناك شخص واحد قادر على إقناعهم بقبول هذا الحل الذي هو أصعب عليهم من تجرع السم الزعاف، الجنرال ديجول.

ومع ذلك فقد اتهمه اليمين المتطرف بالخيانة العظمى، وحاول اغتياله ثلاث مرات كاد أن ينجح في إحداها لو لا أن العناية الإلهية نجته منهم، وهكذا استطاع أن يوقع في نهاية المطاف قرار استقلال الجزائر مع أعضاء جبهة التحرير الوطني الجزائري، وبعدئذ ابتدأت صفحة جديدة في تاريخ الجزائر وتاريخ فرنسا على حد سواء.

مظاهرات ديسمبر ١٩٦٠ أسبابها ونتائجها:

كانت ولازالت الثورة الجزائرية المظفرة مدعاة للدراسة والتمحيص التاريخي، نظرا لدقة ووضوح إستراتيجيتها فالأهداف المعلنة في كل أدبيات الثورة بدءا ببيان أول نوفمبر ومرورا بأرضية مؤتمر الصومال وكل مقررات دورات المجلس الوطني للثورة، حددت الهدف الإستراتيجي من العمل الثوري بتحقيق الاستقلال الوطني، بل استفاضت في طرق الكفاح، بين العمل العسكري في كل ربوع الجزائر بأريافها ومدنها وبين العمل السياسي الذي يعنى بدوره في عدة ميادين كالتعبئة والدعاية الإعلامية والمثابرة الدبلوماسية، واستطاعت الثورة الجزائرية تجديد أساليب الكفاح حسب متطلبات المعركة وهذا ما ضمن أغلب فرص النجاح للقضية الجزائرية وينصع هذا المثال أكثر فأكثر في مقاربتنا للأحداث في مظاهرات ديسمبر سنة ١٩٦٠.

إن اعتلاء ديجول لمقاليد الحكم في فرنسا في الثامن والعشرين من مايو سنة ١٩٥٨ كان عبارة عن محصلة لأزمة سياسية خانقة كان يضرب في صميم المؤسسات السيادية الفرنسية من جراء حرب الجزائر، تتجلى مظاهرها في العزلة الدولية التي حجبت فرنسا

عن دورها الريادي في العالم أو حتى في علاقتها مع مستعمراتها وكذلك عجز الجيش الفرنسي على إحراز التفوق العسكري على جيش التحرير الوطني ، ثم تنامي حدة الصراع بين المعمرين في الجزائر مع الفرنسيين في الوطن الأم من جراء سيطرة لوبي المعمرين أو الأقدام السود على أغلب مناحي الحياة السياسية في فرنسا وسعى هذا اللوبي الحثيث على تجنيد كل الطاقات الفرنسية لإنهاء حرب الجزائر ، مع كل هذه المعطيات برزت شخصية الجنرال شارل ديجول كالمنقذ التاريخي لفرنسا وهو ذلك القائد الذي أنقذ فرنسا من براثن النازية وعاد كالعظماء ليعيش حياته الخاصة تاركا السياسية للسياسيين . لقد برز اسم الجنرال الذي عقد صفقة مع الأقدام السود الممثلين في لجنة الإنقاذ العمومي والتي تشكلت في الجزائر من جنرالات على رأسهم ماسي معلنين شق عصا الطاعة عن حكومة الوطن الأم ونادوا بالجنرال ديجول للحكم .

وفور مجيئه إلى الحكم باشر الجنرال ديجول بمخططاته الهادفة إلى القضاء على الثورة الجزائرية في كل الميادين ففي المحور العسكري عمل الجنرال على إطلاق ما يعرف بمخطط شال والذي يهدف إلى خنق الثورة الجزائرية في الأرياف وهو مخطط شامل سعى على تطبيقه أكبر الجنرالات الفرنسيين وتم في شكل عمليات عسكرية تمشيطية شاملة بقوة تدميرية موجهة للحروب المفتوحة ولا تستعمل في حرب العصابات كم هو الحال في الجزائر إضافة إلى الطيران والقنابل المحرمة دوليا، وكذا العمل على عزل وحدات جيش التحرير الوطني لوجيستكيا وبدأت هذه العمليات من الغرب الجزائري إلى الشرق وليس العكس لقناعات ديجول وشال أنه من الخطأ ضرب الثورة في مهدها ،لقد تمكن جيش التحرير الوطني من إبقاء الأسبقية العسكرية لوحداته نظرا لتمكنه من العمل في ظروف مخطط شال وكما أن مشاريع ديجول السياسية استهدفت كل شرائح الشعب الجزائري كمشروع قسنطينة والذي أطلقه ديجول بهدف عزل الثورة شعبيا وضخ في غلافه المالي أموالا باهظة وعمل ديجول كذلك على طرح تصوره للقضية الجزائرية والذي اختصره في« الجزائر جزائرية » وهي محاولة لتشكيل جبهة ثالثة في الجزائر تقحم في المفاوضات.وهذا ما أثار حفيظة المعمرين الذي تهيكلوا في« جبهة الجزائر الفرنسية» وقرروا التخلص من ديجول لمجرد تفكيره في تقرير المصير للشعب الجزائري لكل هذه المستجدات قررت القيادة السياسية لجبهة التحرير الوطني

ممثلة في الحكومة المؤقتة أخذ زمام المبادرة، هذه المرة في قلب المدن عبر انتفاضة شعبية عارمة في كل أنحاء الوطن وتكون صورة العلم الجزائري هي السيدة وتتزامن مع زيارة ديجول المقررة للجزائر في أواخر ديسمبر ١٩٦٠ والتي تأتي كحملة يقوم خلالها الجنرال بشرح مشروع« الجزائر جزائرية» وتزامن كذلك مع انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة والتي ستدرس القضية الجزائرية.

لقد بدأ الجنرال ديجول زيارته للجزائر من يوم التاسع من ديسمبر ١٩٦٠ وحبذا أن تكون البداية بالغرب الجزائري ومن مدينة عين تيموشنت نظرا لكتلة المعمرين بهذه المنطقة ولكي يجابهم لأنه فضل خيار مواجهتهم أن تحتم الأمر، ولهذا فقد استقبله المعمرون بمسيرات مضادة وعدائية له وهنا كانت المصالح الاستعمارية قد أعدت العدة بإخراج الشعب الجزائري ليهتف بحياة ديجول ولمشروع الجزائر الجزائرية أمام الرأي العام الدولي وللتقليل من شأن جبهة التحرير الوطني وكذلك للتخلص من ضغوطات المعمرين على الحكومة المركزية

وهنا عملت الجبهة على الخروج من هذه الحالة بفرض شعاراتها وإخراج الشعب الجزائري عن بكرة أبيه بالعلم الوطني ويهتف بالاستقلال وشعارات جبهة التحرير الوطني، وكانت عين تيموشنت هي المحطة الأولى وامتدت شرارة المظاهرات إلى كل من تلمسان ثم وهران فالأصنام والعصمة ومنها إلى قسنطينة وعنابه وكل مدن الوطن وكان العلم الجزائري هو سيد الموقف كما وصف المراسلين الصحفيين الأجواء أو كما عبر عنها أحد الضباط الفرنسيين حين قال : إن علم الفلاقة أصبح يرفرف في شامونيفر بقلب الجزائر بعد أن كانوا لا يرونه إلا في مخابئ جيش التحرير في أعالي الجبال .

لقد صبت الآلة العسكرية الاستعمارية جام غضبها على الأمواج البشرية في المدن وتعاملت معها بالذخيرة الحية ثم بالطائرات العمودية في كل من نواحي القصبة وبلكور وباب الوأد وسقط ما يربو عن ألف شهيد جزائري ثمنا لكرامة جبهة التحرير الوطني ولكرامة الجزائر. ولقد نقلت وسائل الأعلام صورة واضحة عن بشاعة الاستعمار الفرنسي واستطاعت أن تكسر حالة الضبابية التي أراد ديجول أن يسيرها لصالح

الاستعمار ، هذه الصورة التي نقلها الإعلام كانت محور نقاشات الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٥ ديسمبر ١٩٦٠ لتدار في مقر منظمة الأمم المتحدة بنيويورك معركة أخرى دبلوماسية ضد الاستعمار حيث طرحت القضية الجزائرية أمام الجمعية العامة وتمكنت دبلوماسية جبهة التحريري من ضمان تصويت الأغلبية الساحقة من الأعضاء لصالح تقرير المصير للشعب الجزائري وخرجت فرنسا خائبة مرة أخرى أمام المجتمع الدولي .

بعد أن حققت المظاهرات الأهداف المسطرة لها اضطر الجنرال ديجول إلى فتح باب الحوار مع جبهة التحرير الوطني كممثل شرعي ووحيد للشعب الجزائري وهو ما كان يرفضه قبل المظاهرات.

إن الثورة التي تبدأ من الجبل وتصونها القرى والمشاتي ثم تحضنها المدن ويكون وقودها الشعب يجب أن يكتب لها النصر وهذا ما تأكد في الثورة الجزائرية





الفصل الحادي عشر

رسائل ديجول السرية

هذه مجموعة نادرة من الرسائل والوثائق الرسمية تبادلتها مع القادة والزعماء نتبادل فيها المشورة والآراء حول الحرب الدائرة بيننا وبين العدو الغاشم وكيفية الانتصار عليه.

رسائل ديجول الحربية السرية تخرج إلى النور بعد ٧٠ عاما

معرض في باريس لكنز صغير احتفظت به كاتبة طابعة وأورثته لابنها الوحيد.

باريس: إنعام كجه جي .

- «سيدي.. ماذا أفعل بكل هذه الرسائل التي تجمعت لديّ؟».

- «احتفظي بها.. إنها بين يدين أمينتين».

صاحبة السؤال هي ماري تيريز ديسينييه، كاتبة الطابعة في مكاتب قوات «فرنسا الحرة» في لندن خلال الحرب العالمية الثانية. وصاحب الجواب هو الجنرال شارل ديجول، قائد عمليات المقاومة لتحرير فرنسا من الاحتلال النازي. أما الرسائل موضوع الحديث فهي النسخ الأصلية المكتوبة بخط الجنرال وتوقيعه لـ٣١٣ وثيقة سرية كان الجنرال قد كلف السكرتيرة بطباعتها لإرسالها إلى حلفائه وأنصاره في الدول الكبرى، بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٣.

كانت ماري تيريز تقيم في إنجلترا عندما قامت الحرب. وبدافع الشعور الوطني

التحقت بمكتب قيادة قوات فرنسا الحرة، منذ صيف ١٩٤٠، وأصبحت مسؤولة عن قسم الآلة الكاتبة والتحرير وعملت بشكل قريب من ديجول وسافرت معه، بعد ذلك، إلى الجزائر. وكان الجنرال قد أدرك أن الاحتلال الألماني قد وضع فرنسا خارج ميدان القتال ولا بد من تنظيم خلايا للمقاومة داخل البلاد، وذلك بمساعدة الحلفاء الإنجليز والأمريكان. لقد توسعت الحرب وبلغت الشرق الأوسط وآسيا وشمال أفريقيا وجزر المحيط الأطلسي وروسيا. وكان على الجنرال الذي خسر أرضه الأصلية أن يزرع رايات قواته في رمال الصحراء الأفريقية والمناطق التابعة لفرنسا وراء البحار. ولتحقيق هذه الغاية كانت رسائله المشفرة وأوامره تتوجه إلى قادة خلايا المقاومة في الوطن، كما كانت رسائل أخرى تتوجه إلى زعماء العالم وقادة قوات الحلفاء.

ماري تيريز كانت تتلقى الرسائل المكتوبة بخط الجنرال وتطبعها على الآلة الكاتبة ثم تشفرها مع فريق العاملين معها، قبل إبراقها إلى وجهاتها. وبعد ذلك تحتفظ بالأصل، بعناية، في صندوق من الكرتون. ولما رحل ديجول إلى الجزائر أخذها معه لتقيم وتعمل في «فيلا دي جليسين» في العاصمة. وبعد انتهاء الحرب وعودة قيادة أركان «فرنسا الحرة» إلى الوطن، تخلفت السكرتيرة لبعض الوقت قبل الالتحاق بهم. ولما ذهبت لتأخذ حاجياتها الخاصة من المكاتب وجدتها خالية. لقد نقلوا كل الملفات لكنهم أهملوا الصندوق الذي احتفظت فيه بالنسخ الأصلية من مراسلات القائد. ولما التقت به، فيما بعد، سألته عما تفعله بالرسائل فطلب منها ديجول أن تبقيها عندها.

في عام ١٩٥٨ وصل شارل ديجول إلى كرسي الحكم في «الإليزيه». وذهبت ماري تيريز ديسينييه لتعيد تذكير رئيس الجمهورية برسائله القديمة، فطلب منها مجددا أن تحتفظ بها. هل أراد الجنرال أن يترك هدية رمزية ثمينة لكاتبة الطابعة الوفية والأمينة؟ بعد وفاتها، عام ١٩٩٦، انتقل ملف الرسائل إلى ولدها الوحيد جان كلود شالومو. وقال الوريث إنه كان قد سمع من والدته، بشكل عابر، عن الرسائل التي كانت تطبعها وتصححها للجنرال لكنه لم يكن يظن أنها احتفظت بها كل تلك السنوات. ولما عثر على الرسائل وطالعها ووجد أن بعضها موجه إلى تشرشل وستالين، أدرك أهميتها التاريخية والمادية فاتصل، في الخريف الماضي، بجيرار لريتييه، مدير المتحف الفرنسي للرسائل والمخطوطات، عارضا بيعها للمتحف، ذلك أنهم كانوا بصدد تنظيم معرض وثائقي عن

الجنرال ديجول. ولم يهتم لريتييه كثيرا وتصور المكالمة مزحة من شخص ثقيل الدم ولم يتوقع أن الأمر يتعلق بكنز صغير ظل مخفيا لسبعين عاما. وبعد الإلحاح وافق على تحديد موعد للمتصل وهو يتوقع أن يرى نسخا مصورة من رسالة أو رسالتين تحتملان الشك، ذلك أن رسالة حرب واحدة بخط ديجول وإمضائه تمتلك قيمة كبيرة فكيف بأكثر من ٣٠٠ رسالة؟ حين وقعت عينا لريتييه على الملف، استبد به التأثر حتى كاد يغمى عليه، حسب قوله، ولم يصدق ما يرى، لا سيما أن الرسائل كانت محفوظة بعناية وكأنها كتبت بالأمس. بكم اشترى المتحف رسائل ديجول؟ لا أحد يعرف بالضبط لكن المشتري يؤكد أن المبلغ «أكثر من مشرف».

ومن مجموع تلك الوثائق تم اختيار ٢٠٠ رسالة وتقديمها للجمهور في معرض يقام، حاليا وحتى ١٢ مايو (أيار) المقبل في متحف الرسائل والمخطوطات في باريس. وعدا عن كونها وثائق تاريخية فرنسية فإن لرسائل شارل ديجول أهمية كبيرة للعرب، في جانبها الأفريقي. إنها تظهر، بشكل واضح، دور «جيش أفريقيا» المؤلف من مقاتلين عرب وبربر وأفارقة مسلمين في غالبيتهم، في تعزيز الجيش الفرنسي وأفضال أولئك الجنود المنسيين في كسب أعتى معارك الحرب التي انتهت بتحرير فرنسا. ويشير دليل المعرض إلى أن مصير الحرب العالمية الثانية، بل مصير الكرة الأرضية، تقرر في دول مثل الجزائر والمغرب وتشاد ولبنان وسوريا وليبيا. ويؤكد الدليل أن «فرنسا الحرة»، من دون أولئك الشجعان، ستكون «أقل حرية».

يمكن لزائر المعرض أن يقرأ رسائل كثيرة توزعت على مساحة ١٠٠ متر مربع موجهة من الجنرال إلى ضباطه وقادة عملياته العسكرية، مصدرة بكلمة «سري» بالخط الأحمر. أما الرسائل الموجهة إلى قادة معسكر الحلفاء فتعكس الشخصية القوية والحازمة للقائد الفرنسي العنيد والمكابر والمهموم بتحرير بلاده. لقد كان يصارع حلفاء من أمثال الرئيس الأميركي روزفلت، يتحسسون من كبريائه ويتجاوزنه في قرارات يسمع بها من الصحف. وبين كل تلك الرسائل، يتوقف الزوار، بشكل خاص، عند البرقية التي بعث بها ديجول إلى حليفه الزعيم السوفيتي ستالين للتهنئة بمرور ٢٥ عاما على ثورة أكتوبر الروسية. لكن الجنرال أخطأ إذ كتب في البرقية مهنئا بـ«ذكرى تأسيس الاتحاد السوفيتي». وإلى جانب الرسائل الأصلية، احتفظت ماري تيريز

بالرسائل المطبوعة التي عاد الجنرال وأجرى عليها تصحيحات بقلمه. ففي رسالته إلى ستالين كان قد كتب «أُحيي الجيش المنصور للجمهورية السوفيتية في جهده المدهش الذي يستمر بينما تتوحد فرنسا بأجمعها في المقاومة»، ثم صححها إلى «أُحيي الشعب والجيش المنصور في جهوده التي ترافق جهود فرنسا».

لأول مرة .. عرض ٢٠٠ برقية سرية بخط يد شارل ديجول

في متحف الرسائل والمخطوطات بباريس عرضت لأول مرة برقيات سرية أرسلها الجنرال الفرنسي «شارل ديجول» من منفاه في لندن بين عامي ٤٠ و ٤٢ من القرن الماضي إلى رؤساء العالم آنذاك كـ «ستالين» و «ونستون تشرشل» وبعض قادة فرنسا الحرة كذلك.

ونجد برقيات أرسلت من الجنرال «ديجول» إلى قوات فرنسا الحرة التي كانت تتشكل في جانب كبير منها من محاربين من أصول مغاربية وأفريقية.

برقيات لها صلة ببلدان الإمبراطورية الفرنسية السابقة في أفريقيا ومنطقة المحيط الهادي والشرق الأوسط وشمال أفريقيا كالجزائر والمغرب وتشاد ولبنان وسوريا وليبيا.

يعرض المتحف مجموعة مختارة من حوالي ٢٠٠ برقية في شكلها الأصلي بخط اليد ومليئة بالإضافات والمحو والتصليح من رجل حرب دافع عن بلده وفرض فكرته عن فرنسا والحرية .. برقيات أو رسائل تعبر عن قوة شخصية ديجول غير العادية وصلابة إرادته والمكانة التي حظي بها من منفاه في لندن أو عند السفر إلى أفريقيا أو الشرق الأوسط.

وفيما يلي مجموعة نادرة من تلك الرسائل :

من الجنرال ديجول إلى الشعب الفرنسي :

زعمت الحكومة التي نصبت نفسها على شدة الحكم في باريس في ١٩ من يونيو ١٩٤٠ ، أن جيشها قد مني بهزيمة ثقيلة ، وأمسكت حبل المقاومة مع العدو ، ولا أنكر على الأعداء براعتهم وقدراتهم عتادا وتسليحا ومهارة وأداء وتفوقا ، وهذا هو سبب لجوء هذه الحكومة المزيفة إلى إجراء التفاوض.

لم يهزم الجيش الفرنسي حتى الآن ، ولن نتخلى عن آخر بصيص أمل ، إنني أطالب

شعبي العظيم أن يمنحني ثقته وألا يكذبني إذا أنا أخبرته أن القضية لم تضع بعد.

وأنا لم أقل ذلك عن جهل ، بل لأنني على يقين من هذه الحقائق وتلك الحقيقة التي لا يخالج أحد الشك بها ، إن فرنسا لا تقف وحدها في الميدان فمن ورائها تقف إمبراطوريتها وبمقدورنا أن نعتمد على موارد الأرض الجديدة « أمريكا » لنواجه العدو بسلاحه.

إن الحرب الشاملة على نطاق عالمي واسع للغاية ، ولكننا لم نخسر الحرب حتى الآن ولم يتسرب اليأس إلينا ، لكن بوسعنا أن نتطلع إلى المستقبل على أمل أن يكون في حوزتنا أسلحة ومعدات حرب حتى نستطيع صد الأعداء .

وإني أنا الجنرال ديجول أتحدث إليكم من لندن ، وأدعو جميع ضباط وجنود القوات المسلحة الفرنسية والذين قد يأتون مجهزين بأسلحتهم أو بدونها وأنني أناشد كافة المهندسين والعمال الفنيين أن يتصلوا بي حال وصولهم ومهما يكن الأمر فشعلة المقاومة لن تنطفئ إلى الأبد .

سوف أخاطبكم غدا عبر الإذاعة البريطانية.

وزير الدفاع ورئيس هيئة أركان ووزارة الحرب البريطانية يبعث ببرقية للقائد الأعلى الجنرال ديجول

لندن في يناير ١٩٤٠

سيدي الجنرال : قائد فرنسا الحرة

إنني أتشرف بإبلاغكم بأن رئيس الحكومة البريطانية ورؤساء أركان حرب القوات المسلحة قد اتفقوا على مشروعك الذي بادرت به. ولكن يجب توضيح بعض النقاط :

- نرجو أن تسمى العملية المنتظرة « ماري » كما نرجو أن لا تتسرب أية أخبار عن موعد البدء بها.

- ونرجو أن تنقل قواتك ومعداتهم وأسلحتهم إلى الشرق الأوسط وتكون هيئة أركان الحرب سعيدة للغاية لو أنك تشاورت معها حول تنفيذ العملية ويكون للقوات

البريطانية شرف العمل بها مع تحياتي وأمنياتي.

رئيس أركان حرب القوات المسلحة

المفوض السامي في برازافيل يتسلم رسالة من قائد قوات فرنسا الحرة

لندن ١١ من يناير ١٩٤٠

عزيزي الجنرال :

أرجو أن ترسل القطع والسريات الآتى ذكرها من أجل أن نضاعف من تحركاتنا ضد الأعداء :

١. اللواء الأجيني .

٢. سرية من جنود البحرية .

٣. سرية لاسلكي

٤. سرية من الدبابات الثقيلة

٥. فوج مشاة من السنغاليين .

٦. المدفعية ذات القياس : ٧٥ م م

٧. سرية نقل سريعة .

٨. بعض من أجهزة المؤخرة .

على أن تكون كل هذه التجهيزات والقوات بقيادة العقيد ماجران فريزيه وقد اتفقت أنا الجنرال ديجول مع السلطات البريطانية حول إمكانية انتقال هذه القوات .

وأرجو أن تسرع في إعداد الفوج السنغالي في خلال عشرين يوما إلى أبعد مدى ، شريطة يتكون من سريات أربع أو حتى ست.

ومهما واجهت من صعوبات في تشكيل هذه القوة أرجو ألا تتكاسل في هذا الإعداد العاجل.

فرنسا الحرة تصدر البلاغ الآتي

لندن في ٢٢ من فبراير ١٩٤٠

باسم الشعب الفرنسي الحر

وباسم فرنسا الحرة

يعلن الجنرال ديجول القائد الأعلى لقوات فرنسا الحرة البيان التالي :

١ . إن الكارثة التي حلت على فرنسا لا يمكن تبريرها بأن الدول الأجنبية هي التي ألحقت الأذى بسلامة الإمبراطورية.

٢ . إن كل قرار صادر عن حكومة فيشي أو أحد ممثليها فيما يتعلق بمسألة التخلي عن أي جزء من الأراضي الفرنسية يعتبر كأن لم يكن كما في عرف المجلس الأعلى للدفاع عن الإمبراطورية.

٣ . ينطبق هذا البلاغ على الهند الصينية بصورة خاصة.

٤ . لا يمكن لفرنسا الحرة أن تقبل أي عمل يضر بالمصلحة الإقليمية والوضع السياسي في الهند الصينية .

أما التفاصيل التي تحتاج إليها من أجل وضع نواة القوة المنتظرة ، سوف ينقلها إليك الجنرال ليجنتيوم شفويا.

تفضلوا مع وافر الاحترام .

القائد الأعلى للقوات الفرنسية

ديجول

إلى القائد العام للقوات الفرنسية في شمالي إفريقيا

رسالة من الجنرال ديجول

١٤ من يونيو ١٩٤٠

إن لجنة سوف يتم تشكيلها من أجل توحيد أعمال رجال المقاومة الفرنسية إلى

جانب جهود الحلفاء .

وإننا نطالبك بصفة شخصية ضرورة المشاركة في تلك اللجنة ، ونحن في انتظارك كقائد عبقري ملهم وعسكري باسل يتولى قيادة قوات المقاومة الفرنسية .

أرجو قبول احترامنا وشكرنا ، وأملنا بك كبير أيها الجنرال العظيم المغوار

عن اللجنة الفرنسية المرتقبة

الجنرال ديجول

الجنرال ديجول يتكلم عبر الإذاعة

١٩ يونيو ١٩٤٠

بعد أن التمست الحيرة التي وقع فيها الشعب الفرنسي نحو حكومته المزيفة ، يحق لي أنا القائد الحربي الجنرال ديجول أن أتحدث إليكم باسم أمتي فرنسا ، وأعلن هذا البيان :

على كل مواطن فرنسي ما زال يمسك السلاح بيده حتى الآن أن يواصل الحرب. وليعلم الجميع أن كل من يتخلى عن شبر أرض فرنسية يكون بذلك قد ارتكب جريمة لا تغتفر في حق بلاده وهذا الكلام موجه إلى أفريقيا الشمالية الفرنسية بالذات .

إن الهدنة الإيطالية هي بمثابة كمين مزيف.

فالواجب العسكري وشرفه يدعو القادة الفرنسيين الموجودين في أفريقيا إلى ضرورة رفض شروط الأعداء.

ولن ينتقل تزعزع حكومة « بورودو » إلى أفريقيا .

رسالة من الجنرال ديجول إلى الجنرال ريجان

لندن ٢٠ من يونيو ١٩٤٠

سيدي الجنرال ريجان :

بعد أن تسلمت أمرك لي بالعودة إلى وطني العزيز فرنسا ذهبت أبحث عن الطرق التي

من خلالها أنفذ ما حلمت به ، لأنني مصمم على مواصلة القتال ، ولأنني جندي فرنسي. وأتوقع أن أكون أمامك بعد مضي أربع وعشرين ساعة إذا قمتم بتوقيع الاتفاق ، واعلم أنني سوف ألتحق بأية حركة تتعهد بالمضي في الحرب إذا ما وقعتم الهدنة.

وفي لندن بعض هذه المنظمات الحربية التي سوف يلتحق بها آخرون ، وأود أن تكون أنت على أتم استعداد لمواصلة الحرب ، حيث لا يوجد هناك أي مجال إبرام الهدنة .

ودعني أزيد أن علاقتي مع المستر ونستون تشرشل تساعدني على مساعدتك ومساعدة أي أحد من أبناء فرنسا الأبطال إذا ما أظهر أي منهم استعداده لقيادة القوات الفرنسية المناضلة الباسلة .

وتقبل مني وافر الشكر

يا سيدي الجنرال

من القائد الفرنسي ديجول إلى المستر تشرشل

لندن ٣ أغسطس ١٩٤٠

سيدي الرئيس :

رأى قائد المقاومة الفرنسية أن يطلعكم على بعض ما يجول في خاطره خاصة بعد أن أصدرت إنجلترا قرارها بأن الحصار الذي ستفرضه سوف يشمل الأراضي الفرنسية وشمال أفريقيا .

وما من شك أن بريطانيا التي تتحمل القدر الأكبر من المسؤولية نحو تفعيل الكفاح هي التي تقرر الحالات الثانوية من أنظمة الحصار.

ومن واجبي أن ألفت عنايتكم إلى أن المساعدات التي جاءت للشعب الفرنسي الذي يقيم في إحدى المناطق التي لم تخضع للاحتلال حتى الآن كان بمقدورنا أن نجعل تلك المساعدات وتوظيفها في شكل مواد غذائية إلى البلجيكيين وشمال فرنسا.

وقد استطاعت لجنة المراقبة من أن توصل للسكان بعض ما في حوزتها من المواد الغذائية ، وأنها لم تتول تسيير مهام الأعداء بل أنها قد مكنت السكان من الاحتفاظ بقوتهم

البدنية ورفع قدرتهم المعنوية والمادية وحثهم على مقاومة الاحتلال ، وقد قلت في أكثر من مرة أن فرنسا قد اتخذت جانب الحياد المؤقت ولكن الروح الفرنسية سوف تظل حيث يحميها رأى الشعب الفرنسي الباسل ، إلا أن الرأي هذا يقدر كل التقدير جميع المساعدات التي أتاحت للأمهات والأطفال التغلب على متاعب الحياة وقسوة العيش ، وإنى على أتم الاستعداد أن أوجه كلمة لمناشدة الشعب الأمريكي لكي يقدم لنا الدعم والمساعدة إذا كان في ذلك فائدة لنا ولتشكيل لجنة توافق عليها الحكومة الأمريكية من أجل اتخاذ التدابير التي تمنع العدو أن يستفيد من هذه المساعدات ولكن من المناسب لنا أن تتولى أنت مهمة المبادرة لكي يشعر الشعب الفرنسي أن بريطانيا لا تزال مهمومة به ولم تدخر جهدا لمساعدة هذا الشعب العظيم عند تعرضه للأزمات والمحن والمصائب.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

الجنرال ديجول

من المستر تشرشل إلى القائد الفرنسي ديجول

لندن ٧ من أغسطس ١٩٤٠

حضرة القائد الأول لأحرار فرنسا:

بعد أن تفضلتم بكرم بالغ وعرضت على شخصي النظم التي تراها من وجهة نظرك أنها ستؤتي ثمارها في إعادة تنظيم أعمال المتطوعين الفرنسيين والذين يناضلون تحت رايتك . وبما أنك القائد الأول لجميع أحرار فرنسا أينما كانوا وفقا لاعتراف الحكومة الإنجليزية .

أبعث إليك هذا الكتاب وقد أرفقت به مذكرة ، إذا أبديت أنت الموافقة إزاء ما ورد في سطورها بمقدورنا أن نتفق على أن المذكرة تلك هي التي تتحكم في تنسيق أعمال قواتك والاستفادة منها ، وأقول : إنه حين يتحقق النصر لقوة الحلفاء فإن حكومة جلالته ستقرر إعادة العظمة والمجد والاستقلال لفرنسا .

المخلص لك

ونستون تشرشل

من الجنرال ديجول إلى المستر ونستون تشرشل

٧ من أغسطس ١٩٤٠

سيدي رئيس الحكومة :

تسلمت رسالتك المؤرخة في ٧ من أغسطس ١٩٤٠ والتى تشير بأن الرسائل المتبادلة بين كلتا الدولتين - وأقصد بهما فرنسا وبريطانيا - لكنك لم توضح بعد ما بيننا من علاقات حول ضمان الحدود الإقليمية لفرنسا الحرة وقد أحطت علما بما تتطلع إليه الحليفة بريطانيا وأنا على أمل من أن تتمكن الحليفة والشقيقة إنجلترا من إعادة النظر في مثل هذه المسائل مع قليل من الحذر والحيطة .

وتفضل بقبول وافر احترامي

الجنرال ديجول

نص رسالة المستر تشرشل السرية إلى الجنرال ديجول

حضرة القائد الأول للقوات الفرنسية :

حيث إن الرسائل بيننا متبادلة على قدم وساق واطلاع الرأى العالمي عليها كان من الضروري أن أقول وأكتب أن عبارة «الاستعادة الكلية لاستقلال وعظمة فرنسا » لم يدخل موضوع ضمان التخوم الإقليمية إن كان بالنسبة لفرنسا أو لأية دولة أخرى تحارب معنا وبجوار قواتنا ، ولكن أود أن أخبرك أن بريطانيا سوف تبذل جهدها على حفظ وحماية تخوم الحلفاء.

وأما العبارة التي تنص على « عدم شهر السلاح على فرنسا » فتفسر ذلك - كما أرجوه - : أن فرنسا وحدها هي التي تقرر سياستها دون الرضوخ والخضوع لأي ضغوط تمارسها ألمانيا ، واعتبر أخيرا أن الحرب التي كانت قد أعلنتها حكومة بوردو على إنجلترا لم تكن تنطق باسم فرنسا الحرة إلى ما هنالك من أمثلة أرجو إعلامي عند استلام رسالتي .

رئيس الوزراء البريطاني

المستر ونستون تشرشل

القائد الفرنسي الأعلى يبعث ببرقية لقائد القوات الإنجليزية في الشرق الأوسط

لندن في ٢٩ من أغسطس ١٩٤٠

عزيزي الجنرال :

لقد انضمت إلى صفوفنا بعد أن التقينا معا كل من الكاميرون وتشاد ، وما من شك في أن هذا الانضمام له من الأهمية العسكرية الشيء الكثير ، ومن ثم أناشدك أن تجري اتصالا مع العقيد مارشان وتحمله على الشعور بأنه يعيش في الشرق كما لو أنه فيه ، كما أرجو أن تبلغه عن حقيقة الأوضاع الحالية لأبطال ليبيا .

وبخصوص السرية الفرنسية في القاهرة ، فأنا أرجو أن تتأسس لكي تتجه من فورها إلى ساحة المعارك .

مع كل احترامي وفخري بكم

الجنرال ديجول

رئيس وزراء اليونان يتسلم برقية هامة من القائد الفرنسي الأعلى شارل ديجول

٢ من نوفمبر ١٩٤٠

باسم الشعب الفرنسي الحر ، وباسم كل من عاش تحت وطأة الذل والعبودية الاستعمارية نبعث لسعادتكم هذا الكتاب وقد انطوى على إعجابنا وصادق إخلاصنا.

وبدون مبالغة دعني أقول : إن الشعب اليوناني قام بعمل بطولي أثناء إشعاله للثورة وذلك من أجل الدفاع عن إعلاء حقوق الإنسانية والإنسان اليوناني.

وسوف يأتي هذا اليوم الذي أنتظره وأترقبه على أحر من الجمر.

عزيزي الرئيس : نستطيع في هذا اليوم أن نحطم ونبيد صروح الخيانة وأعمدة الذل وقواعد العبودية جنبا إلى جنب.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

القائد الأعلى لقوات فرنسا

الجنرال ديجول

رئيس وزراء اليونان يبعث ببرقية إلى القائد الفرنسي شارل ديجول

أثينا في ٤ من نوفمبر ١٩٤٠

سيدى القائد الأعلى لقوات فرنسا الحرة :

لا يسعني والأوضاع كذلك سوى أن أعبر لك باسم الشعب اليوناني كما أنني أعرب في هذا الكتاب عن شكر وأمل كل مواطن يوناني بالثورة الفرنسية التي تقودها وتتزعمها .

إن أملنا كبير في أن تكونوا معنا يدا بيد من أجل تأييد الحركة اليونانية وقضيتنا العادلة

رئيس الحكومة اليونانية

متكساس

كاترو يتلقى رسالة من الجنرال الفرنسي الأعلى والقائد العام لقوات فرنسا الحرة

لندن في ١٨ من ديسمبر ١٩٤٠

عزيزي الجنرال :

ينبغي أن نركز هجماتنا وعملياتنا ضد الإيطاليين أنفسهم ، ولقد أصبح اللواء الذي طلبت من المفوض السامي في برازافيل تجهيزه على وشك التحرك بقيادة ماجران إلى الشرق الأوسط ، ويقوم الجنرال سوتو على تجهيز كتيبة مشتركة من القوات الأوربية أثناء انتقال الأوقات التي سبق ذكرها.

وسوف أرسل تلك الكتيبة إلى مصر تنفيذا لطلبها.

وجميع جنود الفوج على أتم الاستعداد والتجهيز في أية لحظة لانتقالهم.

وسوف أبعث بكل ما لدى من سلاح عقب الحصول عليه من بريطانيا ، والسلاح سيأتي مرفقا بما تفتقد إليه من ضباط يقوموا بقيادة الوحدات على أن تكون جميع القوات والقواد تحت قيادتك جنرالي العزيز : كاترو

أرجو أن يصل العقيد الركن منزلي لكي أصدر إليه أمرا بتعيينه رئيسا لأركان حربي.

مع تحياتي وأمنياتي

القائد الأعلى لقوات فرنسا الحرة

شارل ديجول

برقية صادرة عن برازافيل

٥ من فبراير ١٩٤١

أصدر الجنرال دي لارمينا اليوم البيان الآتي :

قامت قواتنا باحتلال « الكفرة » وجاءت نتائج المعركة كما يلي :

١ . قمنا بأسر ٣٥٠ شخصا ، بينهم ١١ ضابطا .

٢ . حصدنا أربعة مدافع ميدان ، وأربعين مدفعا رشاشا .

٣. ما زالت القوات الفرنسية تسيطر على تنظيم وإدارة أعمال المنطقة .

برقية من ديجول إلى الجنرال دى لارمينا في برازافيل

١٠ من مارس ١٩٤٠

عزيزي الجنرال : دى لارمينا :

إن الوقت غير مناسب حتى الآن لكي نعلن عن ما لدينا من التزامات فيما يخص منطقة « الكفرة » وأنا لا أعني البحث في مصيرها لأننا لا يمكننا أن نتعهد بأي عمل قبل معرفة موقف بريطانيا ، إذا ما عملنا على إثارة موضوع مدينة « فزان » في أي ساعة .

وأقول : إن من الواجب أن تحال إليَّ هذه الاتفاقات لأنها تحمل طابعا عاما .

القائد الأعلى لقوات فرنسا

الجنرال ديجول

ديجول يحدد القوات اللازمة لعملية « ماري ». وتشرشل يدرسها

لندن ٨ من فبراير ١٩٤١

تتكون القوات اللازمة لعملية « ماري » من الوحدات التالية :

١ . فصيلة مدفعية .

٢ . سرية دبابات .

٣ . سرية واحدة من جنود البحرية .

٤ . فوج واحد من اللواء الأجنبي .

٥ . فوج من السنغاليين.

وقد وقع الاتفاق على هذه الخطة التدبيرية بين الجنرال ديجـول ورؤسـاء أركـان حـرب القوات المسلحة البريطانيين ، وقد أبحر اللواء الأجنبي على متن السفينة « ينوراليا » وبسـبب التأخير في وصول القوات الباقية حيث تأجل موعد العملية « ماري » إلى آخر إبريل.

القائد الأعلى لقوات فرنسا الحرة

الجنرال ديجول

رئيس وزارة بريطانيا يتسلم برقية من قائد فرنسا الأعلى الجنرال ديجول

لندن في ١٣ من فبراير ١٩٤١

استجابة لأمنيتكم أبعث إليكم صور الرسائل وبرقيات حول موضوع مهمة الجنرال ليجنتيوم .

وأعتقد أنك سوف تعلم أن الجنرال كاترو على أهبة الاستعداد لإتمام المهمة .

أما مهمة اطلاع الجنرال ويفل والسير مايلز لامبسون فلم تكن من شأني ، وسوف أعهد للجنرال ليجنتيوم بقيادة القوات الفرنسية في الحبشة والسودان .

وأنا كلي أمل أن نقصف ونوجه ضربات عنيفة إلى الإيطاليين لكي نحقق بعض الشيء من العظمة لفرنسا العزيزة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؛

القائد الأعلى لقوات فرنسا

ديجول

قائد اللواء « إريتريا » يبعث ببرقية إلى الجنرال شارل ديجول

أول مارس ١٩٤١

قامت قوات الفوج السنغالي بالعمليات الآتية :

١ . هاجم الفوج السنغالي مراكز العدو في ٢٠ فبراير .

٢ . هاجم الفوج السنغالي « قبقب » في ٢٣ فبراير .

٣ . قام رتل آلي من الإنجليز بحركة التفافية .

٤ . نجحت العملية ، وقمنا بأسر ٤٣٠ أسيرا ، وحصدنا أربعة مدافع .

المفوض السامي دى لارمنيا في برازافيل يبعث ببرقية إلى الجنرال ديجول

برازافيل ٢ من فبراير ١٩٤١

أعلن مركز الأعداء في الكفرة استلامه لقواتنا وهذا أول مركز يعلن استسلامه للقوات الفرنسية الحرة إنها أول خطوة نحو النصر النهائي.

عاشت فرنسا

البعثة الفرنسية الحرة في لندن تتسلم برقية من الجنرال ديجول

٢٨ من مارس ١٩٤١

على الحكومة الفرنسية أن تعلن عن موقفها فيما يتصل بمسألة يوغوسلافيا ، وإذا رفضت البلاد أو جزء منها قبول المطالب والشروط التي وضعتها ألمانيا فإننا سوف نصدر قرارا رسميا بالرغم من حكومة فيشي المزيفة لكي نعلن من خلاله مقاومة يوغوسلافيا .

وفي حال استجابة يوغوسلافيا الرسمية للتهديدات الألمانية وإنذاراتها فإننا سوف نوجه الدعوة ليوغوسلافيا الحرة من أجل اتباع السياسة نفسها التي تتبعها فرنسا الحرة ، وأرجو أن تكون العناصر الوطنية من الجيش ، ويكون بإمكانها الوصول إلى اليونان من أجل متابعة القتال جنبا إلى جنب مع الحلفاء .

وأرجو أخيرا أن تقوموا بكل ما يجب القيام به في هذا الأمر.

القائد الأعلى لقوات فرنسا الحرة

ديجول

القائد الفرنسي يعد العدة لحرب أخرى ويطالب رئيس الأركان بتنفيذها

برازافيل ٣٠ من مارس ١٩٤١

قررت تشكيل مجموعة آلية صحراوية على النحو الآتي :

١ . ٥٠ سيارة شاحنة تزن حمولتها طن ونصف الطن.

٢ . ١٠٠ سيارة شاحنة حمولة ٣ أطنان من ماركة شيفروليه .

٣ . ١٠ سيارات مدرعة

٤ . ٨ بنادق مضادة للدبابات

٥. ١٢ مدفعا رشاشا من طراز ١٣ (٢ ملم)

٦. ٥ مدافع مضادة للدبابات وأخرى للطائرات

٧. مدافع رشاشة عادية

يجب أن تكون جميع السيارات صالحة للصحراء ، وجميع الأسلحة مجهزة بكل ما تحتاجه من عتاد.

ونناشدكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة من أجل تأمين هذه المجموعة ، وإرسالها على جناح السرعة .

القائد الأعلى للقوات الفرنسية الحرة

الجنرال شارل ديجول

رئيس الحكومة المصرية يتسلم برقية من الجنرال ديجول

القاهرة ١٥ إبريل ١٩٤١

حضرة السيد : حسين سري باشا ، رئيس مجلس الوزراء

أود بداية أن أعرب لدولتكم عن عميق شكري وعظيم امتناني ، وذلك لما قابلتني به حكومتكم الكريمة وشعب بلادكم من حفاوة وكرم.

ولقد تأثرت نفسي كثيرا للعمل الذي تعمل بلادكم من أجله ، وهو إحراز العدالة والحرية للشعب .

إنني مسرور عندما أدركت مدى تفهمكم لقضيتنا الفرنسية عند شعب مصر وحكومتها.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر

القائد الأعلى للقوات الفرنسية

شارل ديجول

برقية خطيرة لمعلومات سرية يعلنها القنصل الإنجليزي في سوريا

دمشق ١٢ من مايو ١٩٤١

١. إن الطائرات التي تتبع المحور قد هبطت في مطارات دمشق .

٢. اعترف المفوض السامي الفرنسي بذلك.

٣. اعترف المفوض السامي بأن الطائرات الثلاثة قد هبطت في مطار حلب ، وأن اثنتين منها عراقيتان والثالثة فرنسية

٤. إن المندوب الفرنسي سوف يطيع الأوامر الصادرة والآتية ، بل وأية أوامر تدعو إلى احتلال سوريا .

معلومات خطيرة يرسلها رئيس بعثة الارتباط إلى القائد الفرنسي ديجول

القاهرة ١٤ من مايو ١٩٤١

سيدى الجنرال ديجول :

تم اليوم الاتفاق بين القائد العام والمفوض السامي ، وهذا نصه :

١. سيعلن الجنرال كاترو حديثا إلى الفرنسيين عبر إذاعة القدس.

٢. سيصدر الجنرال كاترو منشورات تلقى على دمشق وجميع البلاد السورية ليلتي الخميس والجمعة القادمتين .

٣. تظل القوات الفرنسية في مكانها .

٤. إن القائد العام سوف يقدم كل ما لديه من معونة ممكنة إذا كانت نتائج الحملة الدعائية مرضية .

٥. تقول مصادر مطلعة في جيبوتي إننا سوف نحافظ على فرض الحصار .

٦. سيطير الجنرال كاترو إلى فلسطين غدا وأنا معه .

الإمضاء

رئيس بعثة الارتباط

الجنرال سبيرس

تشرشل يطلع ديجول على القرارات التي اتخذها مجلس الدفاع بالنسبة لمسألة جيبوتي

لندن ١٤ من مايو ١٩٤١

سيدي الجنرال :

بعد أن عقدت لجنة الدفاع اجتماعها بعد ظهر اليوم فقد اتخذت القرارات التالية بالنسبة لمسألة جيبوتي :

١ . التشديد والمحافظة على الحصار المفروض على جيبوتي

٢ . عليك أن تبقى الجنرال كاترو في فلسطين .

٣ . إذا كان بمقدورك القيام بزيارة القاهرة للاطلاع على أن الممتلكات الفرنسية في أيد أمينة فيمكنك أن تفعل ذلك

تفضلوا بقبول وافر الاحترام

المستر ونستون تشرشل

ديجول يرد على رسالة تشرشل

برازافيل في ١٥ من مايو ١٩٤١

سيدى رئيس الوزراء : وتستون تشرشل .

بداية دعنى أتوجه إليك بالشكر العميق على رسالتك ، وأؤكد لك أن الجنرال كاترو سوف يظل في فلسطين ، وأنني سأقوم بزيارة القاهرة قريبا ، وأؤكد أخيرا أنكم ما من شك في ذلك سوف تربحون الحرب والنتيجة ستكون لصالح الطرفين .

مع شكري

القائد الأعلى لقوات فرنسا الحرة

ديجول

رد من ديجول على رسالة الحاكم في كاليدونيا الجديدة السيد هنري سوتو

القاهرة ٢ من يونيو ١٩٤١

أوافق على الاتفاق بين الحكومة الأسترالية وبيننا حول قضية كاليدونيا ولكن حسب الشروط الآتية وعدم التنصل منها.

١. تكون الطائرات ، والزوارق في كاليدونيا الجديدة بقيادة القائد الفرنسي العام.

٢. يمكننا بموجب الصلاحيات الممنوحة لنا أن نعمل على تجديد عدد الضباط الاستراليين الذين يعملون كضباط ارتباط.

٣. لا يجوز لأي ضابط إسترالي أن يتدخل في شؤون قواتنا من حيث تنظيمها أو توزيع أسلحتها واستخدامها.

٤. يرتبط جميع الضباط الاستراليين بالقائد الفرنسي العام دون أي من معاونيه.

٥. ينبغي أن يمثلنا ضابط فرنسي في استراليا بموجب المعاملة بالمثل.

٦. جميع الاتفاقات الموقعة بين هنري سوتو وكاليدونيا الجديدة تكون باسم الجنرال ديجول ومجلس الدفاع عن الإمبراطورية وليس باسم الحاكم.

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

ديجول

ديجول يضع قواته تحت تصرف القيادة الإنجليزية

لندن ٧ من أكتوبر ١٩٤١

حضرة الجنرال أوكلينك : رئيس أركان حرب القوات المسلحة البريطانية.

أرجو أن تعلِم أن الفرنسيين يحدوهم الأمل في مشاركة قواتهم في الحرب إلى جانب الإنجليز ، كما أرجو أن تعلم أن المفوض السامي في الشرق يعد سرية كبيرة من الجنود الفرنسيين بعتادها الحديث الكامل ، ويضعها تحت تصرف الجنرال دي لارمينا.

وهذه الوحدة ستكون تحت إمرة القيادة الإنجليزية إذا سمحتم بذلك ، وهم سيلبون كل مطالبهم العسكرية ، كما وأن الجنرال ليكيلرك يمكنه الهجوم على مدينة « فزان » متى أمرته بذلك.

أرجو لك انتصارا باهرا .

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

ديجول

وزير الخارجية البريطانية أنتوني إيدن يتسلم رسالة من شارل ديجول

لندن ٤ من ديسمبر ١٩٤١

سعادة الوزير : أنتوني إيدن

إن جميع الوثائق التي صدرت عن حكومة فيشي من أجل التهوين والتقليل من شأن ومكانة الأميرال موزيليه هي للكذب أقرب منها للصدق ، وللخيال أقرب منها للواقع وما من شك في أن الحكومة الفرنسية برئاسة فيشي قد لعبت دورا ضخما قد ألقى بظلاله الكئيبة إلى حد لم نكن نتصوره.

ولا شك أيضا أن هذا الدور الماكر هو من أجل ابتكار الجفاء لإحلاله موضع النقاء والصفاء بيننا وبين الحليفة والشقيقة إنجلترا ، وأقول بكل صدق وصراحة: إن طريقة المعالجة لهذه المسألة كانت في منتهى السوء.

وإن البيانات الكاذبة التي لم تكن يوما لترتكز على قاعدة من الصواب لم تكن هذه البيانات كافية لأن يعتقل ويقع في الأسر أميرال فرنسي يتمتع بمكانة بارزة وأهمية قصوى في قيادة البوارج الحربية ، وهذا بالطبع شيء يفوق الخيال خاصة إذا كان عليه اعتماد كبير من الناحية الفرنسية البريطانية.

ولم يكن اعتقال الأميرال على يد السلطات الإنجليزية في مكان الحق ، ولا يجوز بحال من الأحوال للحكومة أن تلقى عليه القبض قبل أن تتصل بي شخصيا.

وإنني أناشدكم بوجه خاص أن تترفقوا مع الأميرال موزيليه خاصة عند تعامل السلطات الأمنية معه، ومن ثم أرجو تدخلك من أجل تحسين معاملته بما يليق بمكانته وموضعه.

وفي الختام أرجو سعادة الوزير أن تبعثوا لي بالأسباب التي دفعت السلطات البريطانية لاعتقاله.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

ديجول

أوامر القائد الفرنسي للجنرال ليجنتيوم

لندن ١٧ من ديسمبر ١٩٤١

بعد الاتفاق الذي تم توقيعه بين حكومة بريطانيا والجنرال ديجول قائد فرنسا الحرة وتوارها البواسل، وإتماما لهذا الاتفاق المبرم وبموجبه فإن على الجنرال ليجنتيوم تنفيذ العملية « ماري » عند البدء فيها وعليه أن يقف مع الحكومة الإنجليزية وسلطانها على مدى إمكانية توجيه دفة الحرب ويكون الجنرال ليجنتيوم تحت تصرف قائد قوات الحلفاء في الشرق الأوسط الجنرال ارتيبالد ويفل.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

ديجول

ديجول يحدد صلاحيات قواده

لندن ٤ من فبراير ١٩٤٢

بعد قبول استقالة الأميرال موزيليه تم القرار الآتي :

١ . قبول استقالة موزيليه على أن يكون قائدا للعمليات والتحركات المشتركة .

٢. تعيين الأميرال أو بوينو أميرالا ومفوضا للأسطول الحربي.

٣. تعيين القبطان « مورلي » قائدا أعلى للبارجة الحربية «تريومفان» .

٤. تعيين القبطان « أورتولي » رئيسا لأركان حرب الأسطول الفرنسي.

أرجو إبلاغ هذه الأوامر إلى أصحاب الشأن.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

الجنرال ديجول

المبعوث العسكري الفرنسي يؤكد لديجول إخلاص السوفييت

موسكو في ١ من إبريل ١٩٤٢

سيدي الجنرال : ديجول

لي الشرف العظيم في إبلاغكم أن فرنسا الحرة تتمتع بسمعة حسنة وسيرة طيبة بين الدوائر السوفييتية والرأي العام نفسه.

وحرصا منا على الحفاظ على هذه السمعة أعود فأكرر طلبي بشأن القوات الفرنسية التي يمكن إرسالها إلى جبهات القتال السوفييتية .

والحكومة السوفييتية هي في انتظار هذه القوات ، وتتمنى أن تشترك معها في الحرب ضد الأعداء.

أما بالنسبة إليَّ فإنني سأتبع تعليماتك بشأن الوحدة الحقيقية ، إننا هنا نلقي من العناية الخاصة والحفاوة والتكريم والترحيب الهائل ما لم نكن نتخيله من أية دولة من دول الحلفاء.

ومن هنا ومن هذا المنطلق أرجو أن نسعى جميعا من أجل تذليل العقبات وإزالة الصعوبات التي تواجهنا بسبب إرسال هذه القوات المنتظرة.

وتأكد أنني الوفي المخلص لك دائما

رئيس البعثة العسكرية

الجنرال بيتي

ديجول يدعو إلى المقاومة في فرنسا

لندن في ١٠ من إبريل ١٩٤٢

إن الجنرال ديجول رئيس اللجنة القومية ، والقائد الأعلى لقوات فرنسا الحرة يرى من الأهمية أن تشترك القوى الفرنسية في عمليات الفدائيين البريطانيين داخل الأراضي الفرنسية.

وما من شك أن التعاون المخلص بين القوتين سيترك بصمات طيبة بين الرعايا الفرنسيين ، ولديّ من القوة ما هو مكون من فصيلة كاملة من المظليين ، هي تستطيع العمل ساعة الطلب ، كما أني ساع في إعداد وحدة من ٤٠٠ رجل تتميز بالقوة والشجاعة والصلابة من أجل أن تتجه إلى العمل الفدائي.

وإذا كان هناك متسع للعمل معا فإنني سأحتفظ لنفسي بإصدار الأوامر ، وإذا كان الرد بالإيجاب من السلطات البريطانية فإنني سوف أصدر التعليمات الضرورية إلى قواتي.

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

ديجول

المبعوث الفرنسي في الولايات المتحدة الأمريكية يبعث برسالة إلى الجنرال ديجول

واشنطن ١٣ من إبريل ١٩٤٢

سيدي القائد الأعلى للقوات الفرنسية الحرة :

أرجو أن تأخذ علما بأن الولايات المتحدة قد أبلغتني أن حكومة فيشي سوف تدافع

عن جزيرة « مدغشقر » عند غزوها من الخارج ، كما وأن الحكومة المذكورة لم تطلب من أمريكا حمايتها، ولم يحدث حتى الآن أي تبادل في النظريات بطريقة جديدة.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المبعوث الفرنسي

أدريان يتكسنيه

كاترو يطلع ديجول على تحركات القوات

بيروت ٢ من مايو ١٩٤٢

سيدي الجنرال :

أحيطك علما أن تحركات قواتنا التي جهزناها قد تحركت على النحو الآتي :

١ . تحركت الوحدة الخفيفة وخرجت من سوريا ولبنان في ٢٣ من الشهر الماضي متجهة صوب الصحراء ، وقد أطلقت عليها اسم سرية « ال » .

٢ . تحركت القوة المدفعية المكونة من فوج الدبابات اتجاه القاهرة في ١٣ من الشهر الماضي ، لتتسلم دبابات بريطانية ثقيلة كما أشرت لك في السابق

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المفوض السامي في الشرق

الجنرال كاترو

ديجول يلغي منصب المفوضية السامية في أفريقيا

لندن ١٠ من مايو ١٩٤٢

عزيزي الجنرال اليكليرك والحاكم العام السيد إيبوبي.

بعد عدة مشاورات قامت بها اللجنة القومية مع أعضائها تقرر الآتي :

١ . يعين مفتشا عاما على إدارات الصحة والإدارات الاجتماعية الجنرال الطبيب سيس ، وسوف يتخذ مقر اللجنة ومركزها مركزا له.

٢ . تم الاتفاق بين الجنرال ديجول ورئيس اللجنة القومية ، وبين أعضائها على إلغاء منصب مفوض سامٍ في أفريقيا الاستوائية.

٣. للسلطة العسكرية صلاحية إعلان حالة الطوارئ في حال نشوب أية حرب أو أية فوضى .

وتفضلا بقبول فائق الاحترام

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

ديجول

رئيس البعثة الفرنسية في واشنطن يتلقى برقية من القائد ديجول
لندن ١٠ من يونيو ١٩٤٢

عزيزي رئيس البعثة :

قد يصل إلى واشنطن في وقت قريب السيد بيرنارد القائد الأعلى للحركات التحررية ، أرجو أن تمدوا له يد العون لتسهيل مهمته التي تتعلق بشأن تفسير وتوضيح الموقف الفرنسي نحو الولايات المتحدة الأمريكية ، نرجو المحافظة على سرية المهمة وأرجو ألا يعرف بها كائنا من كان شأنه من رجال البعثة .

مع ثقتي واحترامي

القائد الأعلى للقوات الفرنسة الحرة

الجنرال شارل ديجول

معلومات مؤسفة عن الخسائر الفرنسية
التي بعث بها الجنرال كاترو إلى الجنرال ديجول

القاهرة ١٤ من يونيو ١٩٤٢

سيدي القائد الأعلى :

جاءتني المعلومات التالية من مقر القيادة ، وهي :

١. الجنود :

- وصول ٣٤٠٠ جندى وضابط من جنود الفرقة الخفيفة إلى مركز التجمع .

- علينا أن نعتبر بأننا خسرنا ما يتراوح بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ قتيل وجريح .

٢. المعدات :

- لقد كانت خسارتنا في العتاد والسلاح فادحة ورهيبة .

- أخبار القائد كوينج مقطوعة عن مقر القيادة .

- إن الجنود المغاربة يقومون بحراسة الساحل وحمايته .

أرجو منك أن تبعث بتوجيهاتك في أسرع وقت .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المفوض السامي في الشرق

الجنرال كاترو

القائد الفرنسي يصدر تعليماته بعد تغيير موقف العمليات الحربية

لندن ٢٧ من يونيو ١٩٤٢

عزيزي : البارون دي بنوا المبعوث الفرنسي في مصر.

بعد أن حدثت تغيرات في الموقف الميداني الحربي أرجو منكم أن تتخذوا أي إجراء

قد يخفف وطأة هذا التغير من أجل المحافظة على سلامة الرجال الفرنسيين الموجودين حاليا في القاهرة ، هذا فضلا عن أنه من واجبك أن تصدر الأوامر باسمي إلى الراشدين والقادرين على حمل السلاح.

ينطبق هذا القرار على عمال قناة السويس.

أرجو أن تتصل بالمفوض السامي في سوريا ولبنان الجنرال كاترو ، وأن تظل على اتصال دائم معه . كما أرجو إبلاغي بكل الإجراءات التي تم اتخاذها والتي سوف تتخذ عما قريب.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

القائد الأعلى للقوات الفرنسة

الجنرال ديجول

ديجول يحذر كاترو من الاشتباك في منطقة العلمين

لندن ٦ يوليو ١٩٤٢

عزيزي الجنرال : كاترو :

أرجو منك ألا تقوم بأية معركة في منطقة العلمين ؛ لأن التسلح في عتادنا قليل ، وقد نحتاج لجنود في المعارك القادمة .

وأنا أوافق على القرار الذي اتخذته فيما يتعلق بمسألة عدم سحب الجنود من معركة ساحل النيل.

أرجو أن تخبروني بما يحدث بشأن سرية المظليين والطائرات القاذفة.

اكتب لي أسماء الجنود الذين يستحقون أن يظفروا بالترقية ووسام التحرير.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

القائد الأعلى للقوات الفرنسة

الجنرال ديجول


DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثاني عشر

مؤامرة دنيئة

في أوائل شهر يناير كنت برفقة عائلتي في منطقة «شروبشاير» طلبني المستر إيدن لمقابلته على جناح السرعة من أجل تبادل الآراء ووجهات النظر في أحد المسائل الخطيرة.

وفي اليوم التالي توجهت لمقابلة المستر إيدن.

كانت أمارات واضحة على معالم وجهه. وخطورة الأمر بادية لا تحتاج لبرهان خاصة في تصرفاته، وما كدت أجلس في مكتبه حتى أسرع يقول: « لقد تأكدنا بما لا يدع مجالاً لأدنى شك - مع بالغ الأسف - وجود ثغرة كبيرة للغاية، وهي أن الأميرال موزيليه على اتصال خفي بحكومة فيشي، كما أنه كان يعمل لاطلاع دارلان على خططنا التي جهزناها لمهاجمة « داكار » وتسليم الغواصة « سيركوف » إليه أيضاً..

لم يكن بوسعنا سوى إلقاء القبض عليه بعد أن تأكدنا، ومن ثم فإن الأميرال موزيليه حالياً رهن الاعتقال، ونحن بغير شك نعرف يقيناً ما لهذا الأمر المؤسف من آثار وخيمة في نفوسكم وفي نفس الشعب الفرنسي، ولكن الضرورات أرغمتنا على تفعيل هذا الأمر ».

ثم بدأ السيد إيدن يطلعني على بعض المستندات والوثائق التي تثبت وقوع ما لم يكن في حسبان أي أحد وكلها من أسف تؤكد ضلوع السيد روزوي رئيس بعثة السلاح الجوي الفرنسي في بريطانيا سابقاً في عدة توقيعات بخط يده شخصياً فضلاً عن أنها تحمل شعار فرنسا الحرة وممهورة بختم القنصلية الفرنسية.

كما أخبرني المستر إيدن بأن أحد رجال الاستخبارات قد عثر عليها حين كانت في طريقها من روزوي إلى الولايات المتحدة الأمريكية لنقلها إلى فيشي كما أن التحقيقات قد أظهرت بوضوح جوهر الحقيقة ولم يكن من عملية الاعتقال هذه أي مفر..

أصابني ما يشبه الدوار أمام هذا الأمر الخطير ولكن.. لم أقف زائغ البصر وتعديت ببصيرتي كل احتمال، وأوضحت للسيد إيدن رأيي في أن الأميرال موزيليه غير مدان بل بريء من هذه الجريمة شكلاً وموضوعاً..

وقررت أن أتولى إجراء التحريات الكاملة بنفسي.

وسرعان ما ظهر لي في البداية.. فكرة إعداد وتحفيز هذه الخطة على يد رجال المخابرات الإنجليزية أنفسهم، ومحاولة إلصاقها إلى حكومة فيشي، ولكن لم أعتد بها.. ومن ثم سلكت مسلكاً آخر.. واكتشفت سهولة حصولها بواسطة أحد رجال حكومة فيشي نفسها وذلك بوضع تلك القنبلة الموقوفة ليتم تفجيرها في وجه حركة فرنسا الحرة.

ولم أتوان عن مسعاي في إجراء تحرياتي بهدف الوقوف على كبد الحقيقة، بعد ذلك توجهت للقاء وزير الخارجية مرة أخرى وأبلغته بأن الوثائق التي لوح بها أمامي واعتمد على الأخذ بها في توجيه أصابع الاتهام إلى موزيليه والزج به وراء القضبان إنما هي ملفقة ومزورة جملة وتفصيلاً.. كما أن الاعتقال لم يعد هناك مبرراً لوجوده حتى تلك اللحظة، ومن ثم فإنني أرى وجوب إطلاق سراحه على الفور ومعاملته بشكل يتناسب مع مكانته لحين ثبوت أدلة إدانته أو براءته..

ولكن كان المستر إيدن الذي يتصف باللباقة قد أبدى رفضه بأسلوبه الراقي متذرعاً بتمسكه بدقة وصرامة التحريات الإنجليزية.

وقدمت احتجاجي برسالة ثم بمذكرة دون أية نتيجة، ثم ذهبت للقاء اللورد دادلي بلوند أميرال البحرية الإنجليزية وأبلغته بالأمر حسب ما أراه.. ورحت أذكره بقانون معاملة سادة البحار الدولي، ورجوته التدخل المباشر والعاجل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وقابلت بعد ذلك الأميرال موزيليه في سكوتلنديارد، ولم يسمح له بلقائي من قبل

وأكدت له عدم تصديقي بالتهم الموجهة إليه.

وظهرت أمامي قضية شديدة الأهمية - كما رأيتها - تتلخص في استدعاء شخصين من البريطانيين ثم ضمها إلى جهاز مخابراتنا وفقاً لرغبة عارمة من المخابرات الإنجليزية.

وسرعان ما تبخر الشك وبرزت براءة الأميرال لا يشوبها شائبة، وذلك لما انتاب هذين الرجلين من هلع وخوف عند بداية التحقيق معهما، وتأكد لدي بشكل قطعي أن هذه التهمة لفقتها له المخابرات الإنجليزية بهدف العزف على أوتار كفاحنا ونضالنا من خلال اتهام الأميرال موزيليه حتى نظهر أمام العالم في صورة الضعفاء، وتحقق المخابرات بعد ذلك ما تشاء.

ومع ذلك فقد أوضحت للجنرال سبيرس إصرار فرنسا الحرة على قطع جميع علاقاتها مع بريطانيا إذا مضت في اعتقال الأميرال موزيليه دون وجود دليل واقعي لإدانته وإني أمنحكم من الآن مدة ثمانية وأربعين ساعة لإطلاق سراحه.

كانت الصورة التي رسمتها للحكومة البريطانية عن براءة الأميرال موزيليه جلية لا تحتاج إلى أي جهد، ومن ثم عاد الجنرال سبيرس إليَّ في نفس اليوم على عجل يخبرني بنبأ اعتقال الرجلين المزورين اللذين اخترعا هذه التهمة، وأنهما الآن رهن التحقيقات الجادة والدقيقة لنيل جزاء ما صنعوا كما أن الأميرال موزيليه على وشك الخروج من محبسه الآن.

بعد ظهر اليوم نفسه أبدى لي كل من ونستون تشرشل وإيدن أسفهما نحو السيد موزيليه، وتعهدا أمامي بإصلاح كل شيء حرصاً من بريطانيا على كرامته بعد العار الذي لحق به.

وبالفعل فإني أقر هنا وأعترف بشجاعة : أن الحكومة البريطانية قد أوفت بما ألزمت نفسها به أمامي.

ففي اليوم الخامس عشر من شهر يناير تم الاتفاق بيني وبين المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية على إعادة ترتيب وتنظيم العلاقة بين الهيئات البريطانية الحكومية

وحركة فرنسا الحرة، وكان هذا الاقتراح يدعوا إلى أن أبناء فرنسا الحرة لا يخضعون إلا للنظم والقوانين والتشريعات الفرنسية لا البريطانية ومحاكمها، وهو الاقتراح الذي أدى إلى فصل تسلط البريطانيين علينا.

من هنا استطعنا توظيف هـذه الظـروف، ودعونـا الإنجليـز إلى مائـدة المفاوضـات الاقتصادية والتجارية بصورة خاصة.. كما أن هذه المفاوضات قد تمخض عنها معادلة الجنيه الإسترليني بقيمة قدرها مائة وستة وسبعون فرنكاً فرنسياً وهي القيمة التي كانـت قائمة قبل انعقاد الهدنة بين حكومة فيشي والألمان.

ورغم المصاعب والشدائد التي واجهتنا استطعنا تأسيس بنك خاص لفرنسا الحـرة في لندن أطلقنا عليه اسم « البنك المركزي لفرنسا الحرة » كانت أولى مهامه تتعلق بتنظيم رواتب ومصروفات الحركة، فضلاً عن جمع الأموال الواردة إلينا من الهيئات وعائـدات المستعمرات والتبرعـات، بالإضـافة إلى الأمـوال التـي قمنـا باقتراضـها مـن الماليـة البريطانية..

من خلال هذه الخطوات السريعة المتعاقبة قطعنا الطريق على إنجلتـرا فيمـا يخـص دس أنفها في شؤوننا - وخاصة الشق المالي - مما أدى إلى تقويـة أواصـر الوحـدة بيننـا وأصبحت ظروفنا أفضل من السابق بعد أن كانت قلة الموارد تشكل لنا حجـر عثـرة في طريقنا الطويل.

أمام كل هذا عادت بنا الذاكرة رغم ما بلغناه من تقدم ملموس إلى قلب فرنسـا التـي ترزح وطأة الهدنة المجحفة، وقررنا القيام بعمل حاسم يرد لوطننا العزيـز الغـالي عزتـه وكرامته ولسيدتنا فرنسا سيادتها وليمضي بها صوب طريق الخلاص.

لكننا كنا نتميز بغموضنا الواسع في هذا المضمار، أضف إلى ذلك كل ما كان يواجهنا من هواجس وتحديات ومخاطر التي حاصـرت عملنـا الـذي كنـا نـتمكن مـن خلالـه بترهيب العدو من الخلف وتقوية عزيمة المقاومة في الداخل.

ورغم العتمة والظلمة الكالحة كان بصيص الأمل يلوح لنا في الأفق البعيد ففي عـام ١٩٤٠ وفي الفترة التي تقع بين الحرب العالمية الأولى والثانية كان تنظيم العمل السـري يخطو نحو طريق الواقع الذي لابد منه، حيث تم إعداد مجموعة رائعة من الصبية للقيام

بتلك الأعمال بواسطة الإعداد والتأهيل النفسي عبر الإذاعة والصحف والسينما والمسارح التي كانت تعرض صراحة أساطير وخوارق الأبطال الذين كانوا يبذلون النفس والنفيس من أجل إنقاذ أوطانهم التي يعرقل نهضتها الاستعمار المستبد، وأضحى هذا العمل الخفي يمضي بدقة متناهية داخل فرنسا رغم الصعوبات والمخاوف والفشل المتربص لإفساد مخططاتنا ورغم ذلك فقد أخفق الفشل في تحقيق مآربه وإن اشتدت الخطوب علينا.

أما المهمة الأساسية التي كنا نسعى إليها منذ البداية فهي إنشاء منظمة في قلب الوطن فرنسا.

وعادت مرة أخرى قصة اختلاف وجهات النظر مع البريطانيين إلى الظهور على السطح حيث كان همهم الأول هو كيفية الاستفادة من عملائنا داخل فرنسا وفقاً لمشيئتهم.

كانوا يبذلون جهدهم للاستفادة من المعلومات المتناثرة التي تأتيهم منهم لضرب العدو في مخططاته، وهذا هو أسلوبهم الشائع والمعروف في أعمالهم التخابرية.

أما هدفنا من هذا العمل أو المنظمة المنشودة فهو تأسيس منظمات وخلايا سرية تعمل في قلب فرنسا على ألا تنقطع اتصالاتها الدائمة بنا مع تقوية ارتباطاتها فيما بينها، الأمر الذي يقودنا إلى أروع النتائج التي نتطلع إليها.

وخلال وقت وجيز ظهر إلى الوجود المكتب المركزي للعمليات، ومهمته جمع المعلومات وتنظيم العمل بين مختلف العاملين بشكل سري، وبدأ هذا المكتب في إعداد العدة وتجنيد المتطوعين الذين توافدوا بكثافة حيث كان الاعتماد في التنقلات على الطائرات، وبعض السفن إلى جانب الغواصات.

وسرعان ما تم الوصول في زمن قياسي قصير للغاية حتى تم الوصول إلى تنظيم العمل أيضاً مع بعض القوات المسلحة داخل فرنسا بشكل دقيق.. الأمر الذي جعل كل العمليات تتزايد وتسير نحو غايتها المنشودة بشكل إيجابي سريع.

أضف إلى ما سبق فقد وجدنا أن من الضرورة وضع ونشوء كيفية العمل مع الإنجليز

بحيث تحافظ جميع أعمالنا على فرنسيتها وهويتها الوطنية على ألا تكون متصلة بأية سلطات أجنبية.

ومن هنا كانت الشرارة الأولى في اختلاف رؤيانا مع رؤى البريطانيين الذين كانوا يرون فائدة لا تنكر في مجالات المخابرات الفرنسية الخفية بحيث تقدم لها الكثير من الخدمات.

وكان الخلاف هو نتيجة عمل الإنجليز في الاستحواذ والسيطرة على عمليات الاستخبارات وجعلها على صلة وثيقة بهم مع إلحاق أفضل العناصر القائمة على تنفيذ المهام السرية التي أوكلت إليهم حتى إننا لم نستطع الحصول على رجال مخابراتنا العباقرة إلا بعد أن قدمنا احتجاجات وعرائض رافضة لهذه السلوكيات في ذات الوقت الذي كنا نطلب من رجالنا عدم التعاون مع أية جهة أجنبية إلا بعد موافقتنا على ذلك.

وكان طريق البريطانيين إلى هذا أنهم كانوا يظهرون للفرنسيين حسن نواياهم من خلال اتباع الأسلوب الإنجليزي الذي اشتهروا به، وقد اعتمدوا على ذلك بالمقولة الشهيرة التي طالما رددوها: « إن إنجلترا والجنرال ديجول شيء واحد فقط ».

ولكن سرعان ما تتبدد هذه السحب الغائمة حيث إن بريطانيا كانت حريصة على خدماتنا خاصة في هذا الشأن.

ثم وجدنا أن الاتصال بالفرنسيين هو أمر مستحب من أجل الاهتمام بسير العمل ودفعهم إلى الوقوف إلى جانب فرنسا الحرة، ولذلك استطعنا تنفيذ هذا الهدف من خلال دار الإذاعة البريطانية فقد سمحت لنا الحكومة بالبث عبر إذاعتها مدة خمس دقائق لمرتين فقط خلال أربع وعشرين ساعة في برنامج إذاعي بعنوان « الفرنسيون يتحدثون إلى الفرنسيين ».

كما استطعنا أيضاً تأسيس مجله باسم « فرنسا الحرة » وصحيفة تصدر بعنوان «فرنسا ووكالة للأنباء» باسم «وكالة فرنسا الحرة للأخبار».

ومع المضي قدماً في طريق النهوض والتقدم في كافة أعمالنا واجهتنا بعض الصعوبات التي أدت بنا إلى سوء التفاهم مع الحكومة الإنجليزية الأمر الذي جعلهم

يقاطعون برنامجنا عبر الإذاعة وكذلك الفنيين الموكول إليهم القيام بهذه المهمة.

لكننا لم نستسلم ومضينا في إذاعتنا بواسطة دار الإذاعة الخاصة بنا في « الكونجو برازفيل » على الرغم من الضعف والتواضع.

ولقد حاولنا أن نصلح الأمر ونقوي الإذاعة وقد تتطلب ذلك التوصية على أجهزة خاصة من أمريكا، وتحتم علينا لذلك أن نصبر مدة زمنية طويلة للحصول على هذه الأجهزة كما دعت الظروف أن نسدد قيمتها بالدولارات، فضلاً عن الاعتراضات التي واجهتنا من مؤامرات ومكائد داخل الولايات المتحدة الأمريكية وتم لنا توسيع مساحة بث إذاعة الكونغو في عام ١٩٤٣ وكانت نبراسا مضيئاً على طريق نضال وكفاح وجهاد فرنسا الحرة.

ومن الشجاعة أن أنقل بصراحة أن غالبية الرأي العام كانت لا تنتظر محطتنا، وإن حدث واستمعت إليها فالسلبية واللامبالاة والفتور سمات كانت قد ألقت بظلالها على هؤلاء الذين يسمعونها عرضاً في الوقت الذي كان الفرنسيون يرهفون السمع لإذاعتنا بحماس منقطع النظير حتى قد تبادر لذهني ضرورة توجيه رسالة إلى الشعب الفرنسي في شهر يونيو صور النساء والرجال والأطفال من أبناء فرنسا مهللين سعداء ليوم قريب يرتفع فيه العلم الفرنسي بكل عزة وكرامة كما كان دائماً في السابق.

لقد وجهنا هجوماً لاذعاً إلى اتفاقية « بيتان وهتلر » دون أن نخشى أية مخاطر قد تنجم من هجومنا العنيف.

ولكن كان الواقع يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العمل الحاسم سوف يقربنا من ساعة الخلاص بشكل أسرع من البث الإذاعي، حيث أن الفرنسيين جميعهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة بصبر طويل.

وبالطبع فإن جنوب إفريقيا هو الذي أثار انتباهنا وساعدنا على خوض المعركة بغير تردد ولذلك بعثت برقية إلى الجنرال ويفل قائد القوات الإنجليزية في الشرق الأوسط وسألته أن يعمد إلى جمع كافة القوات الفرنسية وجعلها صفوفاً في غاية النظام وإرسالها في الحال إلى الجنرال ليجنتوم لمساعدته في منطقة « جيبوتي ».

كما طلبت منه أن تشارك فرقة المشاة التي انضمت إلينا من قبرص لمساعدة البريطانيين بدعم من بعض الجنود الفرنسيين المتواجدين في مصر في الهجوم على « درنة » و« برقة » و«طبرق».

ولعلك أيها القارئ الكريم يمكنك أن تتخيل الفرحة العارمة والغبطة والسرور للشجاعة التي تجلت في الجنود بقيادة الجنرال ويفل في معركة « براين »...

بالإضافة إلى ما قد سبق وجدنا أهمية أن نرسل بعض الفرق إلى ساحل البحر الأحمر من أجل أن تشارك في المعركة هناك، وذلك في المنطقة الاستوائية الإفريقية.

وفي منتصف شهر يناير كنت قد أصدرت أمراً إلى كل من الجنرال كاترو ولارمينا للبدء في تنفيذ خطة تقضي بجمع بعض القوات قوامها فرقة من السنغاليين وكتيبة من رجال البحرية، إلى جانب مجموعة من الدبابات وبطاريات مدفعية فضلاً عن قوات لا بأس بها من كافة الوحدات وذلك بقيادة العقيد مونكلار.

وكان قد انضم إلى تلك القوات بعض الطيارين الذين أقبلوا علينا من قاعدة « رياق » في لبنان كما جاء بعضهم من تونس.

ولذلك قررت أن أبعث بعدد من الطائرات الحربية القاذفة للقنابل إلى الخرطوم، واتخذت كل من المدمرة سافوريانان دي برازا والمدمرة « القومندان دوبوك » إلى منطقة البحر الأحمر، وتخيلت في نفسي براعة وإجادة القوات الفرنسية ومدى تأثيرها على سير المعارك وقلت في نفسي أيضاً : لو أن الصومال الفرنسي الذي يحتضن عدداً هائلاً من الجنود يقدر بعشرة آلاف من جنود فرنسا الحرة وفي حوزتهم كل ما يحتاجون إليه من ذخيرة وسلاح وعتاد ومؤن قد عاد إلى ميدان المعركة في الحبشة.

ولذلك أعدت المحاولة مرة أخرى في الإصرار على انضمام هذه المستعمرة الفرنسية إلينا.. أما في حال عدم الانضمام فقد قررت أن تظل القوات الفرنسية تقاتل بجانب الإنجليز مهما كانت النفقات باهظة.

ومن خلال تلك الروح العالية في دعم مهمة البريطانيين في منطقة الشرق الأوسط رأينا أنه ينبغي أن نتجه لفتح جبهة فرنسية في ليبيا.

وظهرت في الأفق خطوط جديدة، وأصدرت أمراً للجنرال دي لارمينا بوجوب الإسراع في احتلال « فزان » بوصفها أولى الحلقات التي دفعتني لاتخاذ مثل هذا القرار، وذلك بعد أن تبين لي سرعة الزحف البريطاني في ليبيا.

ولكن ما وقع أثناء ذلك في ليبيا أرغمني على التراجع عن هذه الفكرة... وكانت خطة الارتكاز للبدء في خوض غمار تلك المعارك هي الحلقة الثانية التي دارت في رأسي حيث إن العدو كان يستولي على مقاليد المبادرة فيما يتعلق بإستراتيجية الحرب.

لكننا على أية حال لم ندخر وسعاً في دراسة جميع الاحتمالات والتوقعات التي تمخض عنها ضرورة اشتراك قوات فرنسا الحرة في الحرب بشكل لا يدعو للتردد إطلاقاً، كما قررت أن أظل المتحدث الرسمي باسم فرنسا الحرة مهما كانت نتائج الهجمات التي يشنها الألمان وحلفاؤهم في العالم كله.

وفي بواكير شهر فبراير تلقينا أنباء تفيد بوصول بعثة ألمانية إلى سوريا برئاسة السيدين فون هينج وروزر.

لقد سبب وصول هذه البعثة قلقاً بالغاً في كافة البلدان العربية، خاصة تلك التي كانت معرضة لغزو الألمان وحلفائهم، وهو ما أدى إلى نشوء مناخ من الثقة أثناء مهاجمة كييف وأوديسا.

ورغم ذلك فإن خطر اليابان تصاعدت حدته في منطقة الشرق الأقصى.

لقد أصابتنا الحيرة في تحديد مدى هذا الخطر ومعرفة أبعاده، وما سينجم من ورائه وإذا كان القصد منه تعريض قواتنا إلى ممارسة الضغوط العنيفة حتى تتمكن من عرقلة وتجميد نشاط وفاعلية مجموعة ضخمة من القوات الإنجليزية ليسهل على الألمان والإيطاليين نشر قواتهما على الطريق صوب موسكو أو البحر الأبيض المتوسط.

وكان من الثابت أن اليابان تسعى على نحو أو آخر لمعرفة مدى سيطرتها على منطقة الهند الصينية بشكل عاجل وسريع، وهو ما قد يعرض بعض مستعمراتنا في بلاد « كاليدونيا » و « الهند » و « مدغشقر » إلى قمة المخاطر، وفي الوقت الذي لم أكن فيه قادراً على التقدم لعملية تساعد على تحطيم فكرة اليابان في مهدها وجدت أن التحلي بالصبر والتريث ضرورة يجب الالتزام بها في البداية حتى تتضح لي مواقف الحلفاء منها

والواقع أن السيد كازو[1] قد أخبرني أن أغلب المواطنين يميلون نحو حركتنا، وأن اليابان لم تعد قادرة على الوصول لأهدافها.

وكانت اليابان قد بدأت منذ ١٩٤١ في عملية على « سيام » لتتمكن من خلال ذلك من السيطرة على نهر الميكونج وكمبوديا ولاوس.

كما زعمت بأنها لها الحق الكامل في الإشراف على الأمور الاقتصادية في الهند الصينية، وبدأت بعد ذلك في بسط نفوذها على بعض مناطقها بقوة السلاح.

وقد أخبروني بتلك الأشياء تباعاً من رسل فرنسا الحرة في العالم وهم كثر، ولم يكن لدينا من المكر والحيلة لدعم ومساعدة الهند الصينية في مقاومة القوات اليابانية.

إن قوات فرنسا الحرة لا تستطيع لأنها لا تمتلك الاحتياجات اللازمة.

بريطانيا تباطأت في الإغاثة رغم أنها على قناعة بأن المد الاستعماري يجب أن يبدأ بالطرق على أبواب سنغافورة.

وكذلك بالنسبة للولايات المتحدة التي لم ترد أن تدخل في هذا الصراع من أية ناحية مادية أو حتى معنوية، ومن ثم لم تبرز أية بادرة منها من شأنها التدخل لحسم الموقف.

على أية حال لم تخب أبداً آمالنا في يوم من الأيام.. فقد أصدرت بسرعة بياناً بأن كل عملية بيع أو اتفاق أو حتى تنازل عن بعض الأراضي في منطقة الهند الفرنسية يعتبر كأن لم يكن.

وبدأنا العمل على بناء أواصر علاقات مع الدول الصديقة حتى لا تتحول إلى حكومة فيشي، كذلك بذلنا جهدنا من أجل تنظيم أعمالنا مع بعض الدول التي يتربض بها الخطر الاستعماري هذا في المحيط الهادي.

كما عملنا - وإن كان بغير أمل في بعض الأحيان - على تدشين خطة للدفاع عن الهند الصينية تشارك فيها كل من بريطانيا وأمريكا وهولندا، وكذلك كانت الخطة تحتوي على تنظيم عملية الحفاظ على «كاليدونيا » و« تاهيتي »، وذلك بالمشاركة بين أستراليا

---

[1] مدير المستعمرات الفرنسية.

ونيوزيلندا.

ومضت هذه الظروف القاسية التي لو تركت على الطبيعة لأدت إلى إصابة حركتنا بالشلل التام والفشل الذريع.. في اتصالها الدائم والذي لا ينقطع مع الإنجليز.. وإني أذكر صراحة مما يوحيه عليَّ واجبي من أنني اكتشفت أن بعض الانجليز ينسجمون مع كرامة الوطن كواجب مهما غلا ثمنه، وكان من بين هؤلاء الملكة والملك والمستر تشرشل والسيد أنطوني إيدن، فضلاً عن السادة : « جون أندرسون... وإيمري، وإدوارد كريج، وإليكياندر، وسنكليد، ولويد، وكرابنورن، وهانكي، وكريبس، واتلى، وكوبر، ودالتون، وبيفن، وموريسون، وبيفان، وبراكن» وبعض كبار الموظفين والعسكريين من أمثال : « فانسبارت، وكادو جان، وسترانج، ومورتون، وجون ديل، وإيسماي، وباوند، وبورتال وغيرهم ».. كل هؤلاء كانوا يبذلون قصارى جهدهم في تفانٍ وإخلاص من أجل المصلحة الإنجليزية العليا حيث إن الخلاف في الرأي كان يباعد بينهم إلى حدود معينة حتى يوحدهم الخطر، حيث يلتفون حول وطنهم بطريقة تثير إعجابي وانبهاري بغير حسد.

ولكن هذا الالتفاف المثير للتأمل والإعجاب كان يدفع إلى مائدة المفاوضات بيننا وبينهم بالعديد من العقبات التي كان لها أثرها المهم في تجميد المفاوضات فترة من الزمن، ولأن البريطانيين كثيراً ما كانوا يسعون للحصول على ما يتطلعون إليه في استغلال واضح للظروف المتردية والمؤلمة التي كانت تحاصرنا في كل جانب على أمل أن نخضع لمطالبهم، ولكننا كنا نقف موقف الرافض المتصلب العنيد.. وتتجمد كافة اتصالاتنا معهم فلا يوجد هناك من يريد أن يستفسر عن أحوالنا وما نحتاج إليه بحيث يتضح للمراقب النابه أن صفحة فرنسا الحرة قد طويت من سجل الأحداث التي تعتلج في نفوس الإنجليز.

جدير بالذكر أن الإنجليز كانوا يعتمدون بذلك على ما يرونه من نزوع مألوف لدى الفرنسيين في الخضوع للأجانب.

وقد تبادر إلى أذهان الفرنسيين بأن فرنسا لا تعرف كلمة « لا » على وجه الإطلاق، ولذلك كنت أبدو في تلك المواقف متصلب الرأي حاد الطباع أمام مخططات الإنجليز

وعدم الامتثال لرغباتهم، مما أفسح المجال لبعض الإنجليز وبعض من رجالي على حد سواء إلى التساؤل غمزاً ولمزاً حول نقطة واحدة وهي : إلى أين يمضي هذا الإنسان ؟ ويوجهون الاتهامات إلى شخصي بأني ديكتاتوري الفكر متسلط النزعة مستبد الرأي.

لكن سرعان ما تعود الأمور إلى طبيعتها عند اندلاع أي هجوم، حيث نرى الإنجليز يدعوننا إلى طاولة الاجتماعات للتباحث في الأمر الذي طرأ، ويحققون بعض احتياجاتنا ويتراجعون عن التصميم العنيد على بعض متطلباتهم وتخرج الصحف في اليوم التالي تحمل أرق التحيات وآخر الأخبار الوليدة للجنرال ديجول وفرنسا الحرة.

ومهما يكن من أمر فإن احتمالات الحرب ظلت مسيطرة على تفكيري وأدركت أن العدو قد يدفعنا لمواجهته في إفريقيا والشرق الأوسط، وحرصاً على عدم الانزلاق إلى نزاع جاد مع الإنجليز وجدت أنه من الضروري الإسراع إلى هذه المنطقة.

وفي اليوم التاسع من شهر مارس استدعاني السيد ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني وأخبرني بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد وافقت على مشروع الإعارة والتأجير، ولذلك يمكن الحصول على السلاح الضروري للمهمات الضارية في مواجهة العدو.

لقد كان لهذا المشروع الأمريكي أبلغ الأثر في أنفسنا فضلاً عن أثره الطيب في نفوس المقاتلين، لأنه كان يعني تحول في مجريات الحرب بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التي كانت لا تزال تقف موقفاً سلبياً نحو ما يجري على جبهة النزاع التي تفحمت واسودت حرصاً على الكرامة الوطنية ورفضاً للأطماع الاستعمارية.

وقبل بدء الرحلة طلب مني رئيس الوزراء أهمية التعاون مع سيبرس أياً كان حجم الخلافات التي اندلعت بيني وبينه فيما مضى، ولم أجد مبرراً حكيماً لرفض هذه الرغبة فاضطررت لقبولها حيث أنه اعتبر ذلك منة أمنحها له.

وحين أقلتني الطائرة أدركت أن فرنسا الحرة تملك جهازاً كبيراً صالحاً للعمل قوامه العديد من رجالنا الأفذاذ، مثل، كاسان، وبليغان، وبالوسكي، وأنطوان، وتيسيه وديجان، والفان، وبوريس وغريهم.. فضلاً عن أن عدداً من رجالنا الضباط الأشداء الذين كانوا يمثلون بالفعل الناحية العسكرية في جهازنا الكبير.. وعلى رأسهم بيتي وداسونفيل وانجيبنو وبروسيه وبيرو أويبونو وفالان.

وقد تبين لي أيضاً أن كاترو يمسك بزمام السيطرة الفعلية في منطقة الشرق الأوسط، كما هو الحال بالنسبة للجنرال لارمينا في منطقة إفريقيا، وقد استطعنا ترتيب أعمالنا من خلال البعثات في جميع أنحاء العالم وفقاً للتخطيط التالي :

١. تعيين جارو - دومبال في الولايات المتحدة الأمريكية.

٢. دراجينليو ومارتان في كندا.

٣. ليدو في أمريكا الجنوبية.

٤. سوستيل في أمريكا الوسطى.

وقد كان لهذه البعثات أثرها في كافة أنحاء العالم كله.. وراحت تكبر وتترعرع تعزز صمودها مكائد ودسائس فيشي ويدعمها بعض التوترات والمشاحنات بين الرجال الفرنسيين القادرين، إذ سرعان ما تندثر لتصب في وعاء الإمبراطورية.

الجدير بالذكر أن أشير إليه - حيث أني أفتخر به - هو وسام التحرير الذي أصدرت قراراً في « برازافيل » بإيجاده فقد كان له أبلغ الأثر الطيب والإيجابي. حتى إن الفرنسيين راح أغلبهم يسارع من أجل الحصول عليه مهما كان الثمن.

وانتابني شعور غريب نحو فرنسا التي كانت تتطلع إلينا عبر البحار.

وفي أثناء زيارتي لكافة القطاعات والجبهات التي كانت تتحصن فيها القوات الإنجليزية اتضح لي أن الكرم الذي ظهر في مقابلاتهم لي في زيارتي السابقة وحفاوتهم قد أضحى إكباراً وتقديراً جلياً في نظراتهم وما بين رموش أعينهم.

كما أتاح لي المجال لدى هذه الزيارات.. أن أرى الإيمان بالمصير المشرق قد اتخذ صفة الصمود في النفوس، وأن الأمل الكبير قد شق طريقه إلى قلوب المؤمنين من الرجال المحاربين وبرز في الأفق هتافات العالم وأبصارهم تتجه إلى قوات فرنسا تولد من رحمها لتواجه العدو الغاضب وتدحره وتعود إلى فرنسا نفسها وهي ترفع رايات النصر وأعلام فرنسا الحرة.

لقد أصبحت فرنسا منذ ذلك الحين بلداً قوية.. عظيمة.



DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الثالث عشر

هانيبال

لاشك أن القراءة هي غذاء العقل، والإنسان بلا عقل.. هو حيوان، ولقد ميزنا الله سبحانه وتعالى ومنحنا العقل كي نفكر ونعيش حياة سعيدة.

والقراءة عندي كانت تسليتي الوحيدة في أوقات فراغي النادرة، ولم يكن هذا الوقت إلا قبل النوم كنت أقرأ كتب التاريخ والسياسة والعظماء من الذين حكموا العالم.

ولعل قصة نابليون بونابرت هي أروع ما قرأت، والإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر وقصة عذراء اللورين « جان دارك » الفتاة الريفية ذات السابعة عشر ربيعاً التي كافحت وناضلت في سبيل الحرية وماتت شهيدة حفاظاً على مبادئها وعقيدتها..

ولا يفوتني أيضاً أن أذكر هذه القصة الرائعة قصة هانيبال التي ذكرها مونتجومري في كتابه « الحرب عبر التاريخ »، لأنها مليئة بالأحداث التاريخية والخطط الحربية التي ينبغي أن يتقنها كل قائد حربي وكل من حمل السلاح دفاعا عن وطنه.

التوسع الروماني

إننا نتحرك الآن إلى الأمام، نحو العصر الروماني، وتشير لنا القصة التي نحن بصددها إلى أن الرومان قد امتلكوا المقدرة السياسية والإدارية التي مكنتهم من تعزيز فتوحات قادتهم لصالح الجمهورية التي صارت فيما بعد إمبراطورية، والجدير بالذكر أن هذه المقدرة افتقرت إليها اليونان القديمة وسنرى أن كلاً من التطور الاجتماعي والتنظيم العسكري الروماني قد أثر كل منهما في الآخر بعمق لذلك أخذت روما تتحول من مجرد

ولاية إلى إمبراطورية، ومن الممتع أن نلاحظ في الحروب التي شنتها روما ضد خلفاء الإسكندر الأكبر استخدامهم للكتائب المشاة اليونانية في أول الأمر ولكن ظهر لهم أهمية وفائدة القتال بحشد وبتشكل مفتوح أكثر من التشكيل اليوناني المنظم ومن هنا ظهر أهمية القتال بفرق كاملة.

ولقد لمعت روما في عام ٧٥٣ ق.م كما تقول الأسطورة، وكانت في ذلك الوقت مجرد ولاية من بين عديد من الولايات، ولكنها بعد مرور ٥٠٠ سنة سيطرت على شبه الجزيرة الإيطالية وبعد ذلك بـ ٧٥٠ عامًا حكمت كل غرب أوروبا ودول البحر المتوسط وكان ظهور روما كدولة بارزة في إيطاليا شيئاً طبيعياً وليس حدثاً عرضياً كالمثل القائل «البقاء للأصلح» فكان هذا الشعب يؤمن بنفسه وأهمية الدفاع عن كيانه، فأدى هذا إلى أن أصبح الرومان ذوي ميول حربية ونزعات عدوانية.

وعلى مر القرون هزموا كلاً من التسكانيين والفاشيين والسمنيين وصدوا هجوم الغال وردوهم على أعقابهم، ولكن في عام ٣٢١ ق.م هزم الرومان هزيمة منكرة في كودين فوركس إلا أنهم انتقموا على اتحاد كل من الغال والسمنيين في موقعة سنتينوم عام ٢٩٥ ق.م، مما أعطى روما السيادة على إيطاليا الوسطى، وفي عام ٢٧٥ ق.م هزموا الأبيروس في موقعة بينفنتوم وهذا حقق السيطرة على جنوب إيطاليا.

ولا نعرف سوى القليل عن الجيش الروماني قبل القرن الرابع ق.م ويعتقد أن سيرفيوس توليومس ملك تسكاني، قام في القرن السادس ق. م ببناء أولى تحصينات روما مع تنظيمها لتكون قاعدة عسكرية. وأصبح الرومانيون دولة عسكرية، فجميع الذكور ما بين سن ١٤ و ٤٦ يعتبرون صالحين للخدمة العسكرية أما الرجال ما بين ٤٦ و ٦٠ فيعتبرون صالحين للاستدعاء كاحتياط.

وكان لهم مجلس يدعى للاجتماع في ميدان مارس بواسطة النداء في النفير، وكان هذا الميدان يقع خارج أسوار المدينة. وكان المواطنون مقسمين إلى درجات. الفرسان وهؤلاء عبارة عن درجتين عليا وصغرى وهذا يتوقف على مسؤولية الأفراد من حيث الخدمة ودفع ضريبة الحرب. وكانت الدرجات الصغرى تمثل القوة العسكرية الرئيسية وكان الأغنياء منهم يلبسون رداء الهوبليت الكامل مع خوذة برنزية ويسلحون بدرع

واقية للصدر والأرجل وحربة وسيف، أما الفقراء منهم ويطلق عليهم فيليت. وكان التكتيك المستخدم في ذلك الوقت مقارباً لما يستخدمه الهوبليت، أما الفرسان فكانوا عبارة عن مشاة راكبة فقط.

وكان على الرومان أن يبدؤوا من جديد في تكوين جيش متطور بعد الهزيمة الفادحة التي تلقوها على أيدي الغال عند نهر أليا عام ٣٩١ ق.م. وفي الجيلين اللاحقين وبوحي من ماركوس فيوريوس كامليوس أعيد تحصين روما كما أعيد تنظيم جيشها الذي كان مكوناً من المجندين من السكان وتدفع لهم الأجور عند القتال الفعلي. وقد حلت الفرق الكاملة بدلاً من الكتائب وأصبحت المشاة الثقيلة هي القوة الرئيسية للفرقة، ولكن الفرقة كانت تضم في تنظيمها مجموعات من الفرسان والفيليت.

وتشكل الفرقة المشاة الثقيلة في ثلاثة خطوط، الخط الأمامي أو المقدمة والخط الرئيسي ثم خط المؤخرة وكل خط من هذه الخطوط الثلاثة يضم عشر سرايا، أما المشاة الخفيفة فتنتشر بين هذه السرايا، وكانت هذه الفرقة توزع سراياها على شكل مربع بحيث تغطي السرايا الخلفية الفواصل بين السرايا الأمامية، وكان عمق الخط الواحد أربعة صفوف من الجنود. ويضم الخطين الأولية على ١٠ سرايا أي كل خط به ١٢٠٠ جندي بينما المؤخرة « الخط الثالث » تحتوي على ٦٠٠ جندي، وتوضع الفرسان على الأجنحة وكانت الفرقة بها ٣٠٠ فارس مشكلة في ١٠ فصائل، وفيما بعد ارتفع عدد جنود الفرقة المشاة حتى وصل إلى ٦٠٠٠ جندي عندما تم تجنيد أعداد كبيرة من حلفاء الإيطاليين.

وكان الجنود في الخط الأول والثاني يحمون أنفسهم بخوذات نحاسية ودروع واقية للصدر بالإضافة إلى دروع نصف أسطوانية مثلثة الشكل ويتسلحون برمحين قصيرين وخنجر طويل وسيف طوله قدمان مزدوج الشفرة. وكان جنود المؤخرة يتسلحون بنفس الأسلحة ما عدا الرمحين وقد حل محلها حربتان. وقد تطور تسليح الفيليت فأصبح سيفاً ورمحين قصيرين ودرعاً مستديرة قطره ٣ أقدام ويلبسون في رأسهم غطاء من جلد الذئاب. ومن المحتمل أن يكون الرومان نقلوا صناعة الرماح عن الغال. وفي بعض الأحيان كان هذا الرمح يقذف بمساعدة سير مثبت خلف مركز الثقل، وعند

تحرير هذا السير ينطلق الرمح طائراً في حركة حلزونية فتزيد من مجاله ودقته، وقد بطل العمل بهذا الجهاز في القرن الثاني ق.م عندما لم تتطلب التكتيكات سوى القذف القصير الذي لا يتجاوز ٢٥ ياردة. أما وحدات الخيالة في الفرق فكانت فقيرة التسليح، فلم تتجاوز درعاً من الجلد وحربة وسيفاً.

الفرقة المشاة في الهجوم

وكانت الحكمة من تشكيل الفرقة على هيئة مربعات هي إتاحة المرونة في الدفاع والسهولة في الهجوم حتى يمكنها مواجهة المشاة اليونانية الصلبة أو جحافل الغال. ويبدأ هجوم الفرقة المشاة بدفع الفيليب لمناوشة العدو وتغطية تقدم المشاة الثقيلة، وعندما تدخل قوات الخط الأول مجال المعركة تطلق رماحها ثم تلتحم مع العدو بالسيوف وخلال القتال تدعم قوات الخط الثالث قوات الخط الأول بالمقاتلين بدلاً ممن قتلوا أو أصابهم الإرهاق وكان قادة الفرق مدربين على إحلال خط كامل محل خط آخر مع القيام بهجوم جديد ضد العدو، إما إذا ساءت الأمور. فتندمج قوات الخط الأول مع قوات الخط الثاني في خط واحد ويتراجعوا خلال الفواصل بين مجموعات قوات الخط الثالث التي تقاتل في ذلك الوقت وهي ثابتة. أما الفرسان فكانت تستخدم للاستطلاع والمطاردة ولم يكن لها دور رئيسي في التكتيك الكلاسيكي للفرقة، وفي الحقيقة كانت الفرسان تقاتل مترجلة وليس من على ظهور الخيل، وقد استطاع الرومان تطبيق هذا الأسلوب بكفاءة نتيجة للتنظيم والتدريب العالي للقوات وكان يوضع في الخط الأول الجنود المدربين من الشباب حتى تكون القوة الضاربة أكثر تأثيراً وتركيزاً، بينما يوضع الرجال الأكبر سناً في الخط الثالث ليكونوا بمثابة احتياطي للصفوف الأمامية عند الحاجة. وكان الرومانيون يقومون دائماً بهجوم نهائي بقوات جديدة محتفظة بنشاطها فيتحقق النصر. وكان استخدام أسلوب الثلاثة خطوط في الهجوم مفيداً جداً بالنسبة للروح المعنوية للجنود، فهذا النظام كان يضمن ١ / ٣ الجنود بعيدين عن منطقة الخطر لأطول وقت ممكن، كما كان يعطي فرصة كافية للجبهة المهزومة للانسحاب بأمان.

وقد وصف فوللر الجيش الروماني على أنه أعظم جيش دفاعي في التاريخ فكانت للفرقة المشاة معسكر محصن يقوم بدور المؤخرة لها، وإذا دعت الضرورة كانوا يبنون

معسكراً جديداً في نهاية كل يوم حتى ولو كان ذلك على حساب اختصار وقت السير في الصباح إلى ثلاث أو أربع ساعات حتى يستغلوا فترة بعد الظهر في عمليات الحفر. وكان حجم وشكل العسكر يختلف تبعاً لطبيعة الأرض، ولكن في الغالب يبني على شكل مربع كبير وبدرجة تسمح باستيعاب فرقتين من المشاة ويجري تحصينه بالأسوار والخنادق والمتاريس، وكان الرومان يتحملون مشاقاً في بناء المعسكرات لسببين :

أولاً : لأنهم عرفوا قيمة الأمن والراحة. فكانوا يمضون معظم وقتهم في تلك المعسكرات للتدريب والتمرينات الرياضية ليحافظوا على لياقتهم البدنية وينموا قدراتهم على الثبات مع الضبط والربط، وكانت هذه الصفات ضرورية لتكتيك الفرقة والتي كانت على أي حال صفات طبيعية في جنود الرومان.

وثانياً : عندما تخوض الفرقة القتال يجب أن يكون بالقرب منها منطقة محصنة تستطيع الانسحاب إليها إذا ساءت الأمور ونتيجة لذلك لم تصل هزائمهم إلى حد الكارثة. وكان جنود الرومان أثناء السير يحملون بخلاف أسلحتهم حملاً ثقيلاً يتضمن أدوات الحفر ومعدات الطهي. وكان غذاء الجنود الرئيسي داخل المعسكرات عبارة عن الخبز ولم يحصلوا على تغذية جيدة، بينما القليل جداً منهم كان يتناول اللحم.

القيادة

كانت قيادة الجيش في يد قنصلين ينتخبان سنوياً وهم بصفة عامة من السياسيين وليس لهم دراية بفن القيادة العسكرية. وكان الغرض من هذا الازدواج الغريب في القيادة هو التقليل من احتمال قيام دكتاتورية عسكرية، ولكن كان هذا النوع يعتبر من الحماقة العسكرية لأن الانتخاب السنوي أدى إلى صعوبة استمرار سياسية، وحدة علاوة على أن أعمال القيادة اليومية كانت تصطدم دائماً بحائط ضخم بسبب اختلاف وجهتي نظر القنصلين المنتخبين، وكان يحل هذا المشكل بانتخاب قائد دكتاتوري لفترة الطوارئ.

وفي القصص الشعرية لروما القديمة روي ماكولي عن معركة بحيرة ريجيللوس عندما لم تسر الأمور كما ينبغي :

« في الأوقات العصيبة، من الأفضل أن يتحمل شخص واحد المسؤولية، فيجب أن

يختار قائد ديكتاتوري ليطيعه كل الناس، وذلك لمدة ستة شهور فقط وليس أكثر ».

وتلك نصيحة ممتازة، وربما تكون أكثر سهولة في العالم اليوم، على أن ينتخب ديكتاتور لمدة ستة شهور فقط.

ولم يكن لدى الرومان طبقة من الضباط الأرستقراطيين. وكانت السرية هي الوحدة التكتيكية الرئيسية ويقودها قائدان. أما القيادة التكتيكية للفرقة فكان يسيطر عليها ويتحكم فيها الموثوق بينهم من المحترفين والذين يفهمون رجالهم جيداً، ويصف بوليبوس هؤلاء القادة:

« ليس رجالاً مغامرين أو متهورين بل كان لديهم الاستعداد الطبيعي للقيادة، فيتميزون بالمثابرة والروح المتأصلة ويصمدون أمام جحافل العدو وضغوطه الساحقة، ومستعدين للموت دفاعاً عن مواقعهم، لقد كانوا مثابرين شجعان يفهمون الحرب جيداً وأنها عمل يجب أن يؤدى تماماً، وكان السبب الرئيسي لنجاح روما في معظم حملاتها أنها أنتجت ضباط صف من الدرجة الأولى وجنوداً ممتازين.

وهكذا كانت الفرقة مكونة من ثلاثة خطوط من المشاة الثقيلة المسلحة بالرماح والسيوف، ومدعمة بالمشاة الخفيفة والفرسان. وكانت المشاة مدربة على القيام بالأعمال الشاقة. وأصبح تنظيم الفرق المشاة ثابت لأكثر من ٧٠٠ عام بعد منتصف القرن الرابع ق.م، بالرغم من أن بعض القادة القادرين قاموا ببعض التغير إلا أنه لم يحدث أي تغيير جوهري في تنظيم الفرقة المشاة، وعندما ندرس حروب الرومان سيظهر لنا مواطن الضعف والقوة في هذه الفرق.

هانيبال يغزو إيطاليا:

لقد اتسعت مصالح روما السياسية والتجارية في منتصف القرن الثالث ق.م حتى وصلت إلى التحدي لقرطاجة أغنى دولة في الغرب فنشب أولى الحروب القرطاجية ما بين ٢٦٥ - ٢٤١ ق.م وانتهت لصالح روما، إلا أن قرطاجة في عام ٢٢٠ ق.م استعادت قوتها مرة أخرى في إسبانيا، وفي عام ٢١٨ ق.م قام هانيبال وهو قائد روماني عمره ٢٩ عاماً بعد عدة استفزازات بعبور جبال البرانس لغزو إيطاليا وذلك لسببين أولهما بسبب النفوذ الإيطالي الذي أخذ يؤثر على التاريخ العالمي وثانيهما دورها القيادي للشرق

والغرب.

والحرب القرطاجية الثانية «٢١٨ - ٢١٠ ق.م» جديرة بالدراسة لأن كل من قرطاجة وروما متساويين في القوة، وكل منهما على يقين تام من أنه لابد من الانتصار وإلا سيدمر دماراً أبدياً.

وقد زرت تونس التي تقع فيها أرض قرطاجة وشاهدت المدينة القديمة هناك وذلك بعد نهاية الحرب في شمال إفريقيا عام ١٩٤٣.

لقد درس هانيبال منذ الصغر الحرب والأسلحة، وقام بدراسة شاملة لفنون الحرب الإغريقية والرومانية، وقاد الجيوش لمدة ثلاث سنوات وكان واثقاً تماماً أنه سيهزم الرومان وقد عبر جبال البرانس بجيش مكون تقريباً من ٤٠٠٠٠ مقاتل و٣٧ فيلا وكان معظم جنوده آتين من أنحاء متفرقة من إفريقيا وأسبانيا، كما قام بإلحاق مجموعات أخرى وهو في طريقه إلى إيطاليا من الغال، وكان أغلب جيشه من المرتزقة ولم يجمعهم تحت قيادة واحدة.

وتمثل القوة الرئيسية لجيش هانيبال من المشاة الخفيفة المسلحة بسيف قصير وحربة ودرع واقي صغير، بينما كان أكفأ قواته الراكبة من حملة الرماح النورميديين تحت قيادة القائد المحنك ماهربال. وقال بوليبيوس: «لم يكن جيش هانيبال كثير العدد، ولكنه ذو كفاءة عالية... ولياقة بدنية ممتازة.»

وخلال فترة الحرب، كان القرطاجيون يواجهون بأعداد كبيرة من الرومان الذين رفعوا عدد فرقهم من ٥ إلى ١١، وفي المراحل الأخيرة للحرب وصل عدد الفرق الرومانية إلى عشرين فرقة أي ١٠٠٠٠٠ مقاتل، ولم تكن إستراتيجية هانيبال تهدف إلى تدمير روما ولكن ليفقدها فقط السيطرة على الحلف الإيطالي مع إجبارها على التعايش مع قرطاجة. وقد قال هانيبال: «لم أحضر لأقاتل الشعب الإيطالي، ولكن لأحرر الإيطاليين من سيطرة روما.»

وتقدم هانيبال سريعاً حول البحر الأبيض متوسط، وخلال عبوره لجبال الألب تعرض لهجمات رجل القبائل ثم لسقوط الثلج المبكر ما أدي إلى هبوط قوة جيشه حتى وصلت إلى ٢٠٠٠٠ من المشاة و ٦٠٠٠ من الفرسان، وبعد اشتباك ناجح عند نهر

تيسينوس استطاع هانيبال وجنوده من عبور نهر البو. وفي ديسمبر عام ٢١٨ ق.م عند نهر تريبيا حقق أولى انتصاراته العظيمة الثلاث فاستطاعت فرسانه وفيلته إجبار الرومان ودفعهم إلى نهر تريبيا مما أدى إلى تدمير ثلثي الجيش الروماني تماماً مع فرار حوالي ١٠٠٠٠ مقاتل عبر منطقة الوسط.

وقرر الرومان في عام ٢١٧ ق.م عدم مواجهة فرسان قرطاجة المتفوقة في السهل على أن يلتقوا بهم من أقصى الجنوب عند جبال الأبنين. ومع ذلك في شهر أبريل من نفس العام استطاع هانيبال من حصر جيش فلامينيوس بين التلال والشاطئ الشمالي لبحيرة تراسيمين، لإهمال الرومان إجراء الاستطلاع والمخابرات مما أدى أن هانيبال قام بهجوم مفاجئ من سفوح التلال، وفي خلال ثلاث ساعات تمكن من تدمير وأسر كل قوات العدو. وبعد هذا الانتصار أعلن هانيبال تحرير إيطاليا من السيطرة والسيادة المطلقة لروما. ثم هبط إلى ساحل الأدرياتيكي حيث استولى في ربيع عام ٢١٦ ق.م على قاعدة الإمداد الرومانية في كانا.

معركة كانا

وفي أغسطس استعد الرومان للقتال عند كانا، فقام هانيبال بتنظيم جيشه على شكل هلال محدب، بحيث وضع المشاة الأسبانية والغالية في منطقة الوسط، أما القوات الإفريقية على كلا الجانبين والفرسان على الأجنحة، أما مشاة الرومان فتشكلوا بالطريقة التقليدية على شكل صفوف متوازية، وابتدأ هانيبال الهجوم وهزم فرسان الرومان هزيمة نكراء، وترك مشاتهم تتقدم متوغلة داخل صحن الهلال القرطاجي حتى أخذ شكل مقعر، وفي هذه اللحظة دفع هانيبال المشاة الأفريقية من اليسار واليمين لتطويق أجنحة الرومان، واكتملت المعركة عندما عادت فرسانه بعد مطاردة فرسان العدو وهاجموا مؤخرة مشاة العدو. وقد قال فوللر عن هذه المعركة: « تم الهجوم من أربعة جوانب فأبيد الجيش الروماني وكأن زلزلاً قد أبتلعه ».

وفي معركة كانا هذه أبيد الجيش الروماني الضخم المشكل من ٧٠.٠٠٠٠ مقاتل وذلك لقيادة هانيبال الحكيمة وحماقة القائد الروماني القنصل هوكيوس تارينتيوس فارو رجل الأعمال الذي كان في منصب القائد.

وهذه المعركة تعد بمثابة أعظم وأفدح كارثة للجيش الروماني.

الحرب حتى الموت

استسلمت معظم دويلات جنوب إيطاليا لهانيبال، بما في ذلك كابوا « مدينة كاسرنا حالياً » الهامة، ولكن روما ظلت ثابتة وظل الأسطول الروماني يحكم البحار. وألح ماهربال على هانيبال بالزحف نحو روما في الحال، ولكن هانيبال رفض، لأن استراتيجيته كما قلنا لم تكن مواصلة الحرب حتى الموت، ولكن ببساطة إخضاع روما لشروطه وعلى أي حال فكان هانيبال يفتقر إلى المواد التي تمكنه من القيام بعمليات حصار كبيرة.

بعد ذلك نشبت حرب الاستنزاف، حيث استغل الرومان قلاعهم وأعدادهم الكبيرة التي يقودها كوينتوس فابيوس مكسيموس وكان يطلق عليه « البطيء الحذر » واستطاع إرهاق وإضعاف قوات هانيبال، وإبقائه في جنوب إيطاليا ولكنه لم يجرؤ على مهاجمته. وفي عام ٢٠٨ ق.م. حققت روما نصراً بحرياً فأعاد لها سيادتها البحرية وسهل إمكانية غزو إفريقيا في المستقبل.

وبعد معركة كانا بعشر سنوات ابتسم الحظ لروما وحققوا نجاحاً باهراً في إسبانيا، ففي عام ٢١٨ ق.م أرسل جيشاً رومانيا إلى إسبانيا وفي أول الأمر أبلى بلاءً حسناً، ولكن في عام ٢١١ ق.م تخلى الحلفاء الأسبان عن الرومان، فلحق بهم هزيمة نكراء فعادت فلولهم إلى شمال نهر الأبرة. وفي عام ٢١٠ ق.م أسندت قيادة الجيش الإسباني إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيو البالغ من العمر خمسًا وعشرين سنة وعرف فيما بعد باسم أفريكانوس.

وقد وضح أن سيبيو سيصبح أعظم القادة الرومان، وذلك أثناء حضوره كارثتي تيسينوس وكانا وأظهر فيهما شجاعة باهرة جعلته قائداً معروفاً ومحبوباً من الشعب. فقد درس الحرب بعناية وعقل متفتح. ففي عام ٢١٠ ق.م نزل إلى إسبانيا عند أمبوريوم ومعه ١٠.٠٠٠ مقاتل بغرض جمع شتات الجيش الروماني المبعثر هناك وإعادة تشكيل قوة تعادل أربعة فرق، وعلى الفور شرع سيبيو في تنظيم جيشه ورفع معنويات رجاله ثم اتخذ خطوة جريئة بإشعال الحرب القرطاجية الثانية، وبدلاً من مهاجمة جيوش العدو

الثلاثة في إسبانيا، اتجه فوراً إلى قرطاجة الجديدة التي تمثل القاعدة الرئيسية للعدو وتبعد ٣٠٠ ميلاً إلى الجنوب على الساحل وتحتاج إلى مسيرة عشرة أيام لكي تصل قوات العدو لنجدتها، لذلك قرر قطع هذه المسافة بجيشه وأسطوله في حوالي أسبوع وبذلك وجد أن لديه الوقت الكافي قبل وصول العدو. كانت القلعة هناك مقامة على نتوء صخري، ومدافع عنها بقوة، ولكن سيبيو أخذهم على غرة وقام هو ورجاله بخوض المياه الضحلة حول القلعة وتسلق أسوارها في أضعف نقطها بالسلالم، ولم يستغرق الأمر طويلاً وسقطت قرطاجة الجديدة واستولى بذلك على قاعدة الجيش واحتلت قواته الجناح الشرقي ومؤخرة العدو.

وفي عام ٢٠٨ ق.م تصدى سيبيو لجيش هازدروبال عند بايكولا في الأندلس وهزمه، وقام القرطاجيون ببناء قوتهم مرة أخرى، وفي عام ٢٠٦ ق.م تقابل سيبيو مع الجيوش المتحدة المشكلة من جيش ماجو وهازدروبال جيسجو عند إليبا وبالرغم من التفوق العددي لهذه الجيوش إلا أن سيبيو حقق نصراً حاسماً عليهم.

فقد دفع الرومان الفرق القوية الموجودة على الأجنحة إلى الأمام مدمرة أجنحة الجيش القرطاجي قبل أن يتقابل الخصمان في منطقة الوسط ثم اتجهت بعد ذلك هذه الأجنحة الرومانية إلى الداخل لحسم المعركة، فانسحب الأعداء وأخذ سيبيو يطاردهم حتى البحر حيث استسلموا.

وفي عام ٢٠٥ ق.م تم لسيبيو تطهير إسبانيا من جميع القرطاجيين وبعدها عاد إلى روما.

هانيبال يقابل سيبيو

أدى هذا أن فقدت قرطاجة سيطرتها على إسبانيا وتحقق السلام مع كل من صقلية وسردنيا ومقدونيا، بينما ظل هانيبال وجيشه في جنوب إيطاليا.

وفي روما اتجهت النية في مجلس الشيوخ إلى خنق جيش هانيبال حيث هو، ولكن سيبيو اقترح خطة إستراتيجية مختلفة، وذلك بإبقاء هانيبال كما هو في جنوب إيطاليا بينما يهاجم قرطاجة في شمال إفريقيا، وأظهر المجلس تشككه في اقتراح سيبيو، ولكن في النهاية سمح له بالذهاب إلى صقلية ومعه فرقتين وهناك بدأ سيبيو في تجنيد وتنظيم

وتدريب جيشه وقام بالتحالف مع ماسينيا ملك نوميديا الذي مده بفرسان من الدرجة الأولى.

وفي ربيع عام ٢٠٤ ق.م وصل سيبيو إلى إفريقيا ومعه ٢٥.٠٠٠ مقاتل بالإضافة إلى ما مده ماسينيسا. وهناك واجه جيشاً قرطاجيا مكون من ٢٠.٠٠٠ من المشاة و٦٠٠٠ من الفرسان بالإضافة إلى ١٤٠ فيلاً تحت قيادة هازدروبال وسوفاكس ملك ماسيسيللي. وبعد حصار ناجح لمدينة أتيكا اتجه شتاءً نحو كاسترا كورنيليا وهناك حاصره سوفاكس وأصبح في موقف حرج إلا أنه استخدم الخداع وتظاهر بطلب الهدنة، فخدع أعداءه وعلى الفور أمر رجاله بإحراق معسكر الأعداء وكان من الضروري على سيبيو أن يهاجم جيش هازدروبال قبل وصول هانيبال إلى إفريقيا، لذلك في ربيع عام ٢٠٣ ق.م تقدم سيبيو ومعه فرقة واحدة وبعض الفرسان حيث التقى بجيش العدو عند سهل باجراداس وهزمهم بأسلوب تكتيكي جديد غير التكتيكات الرومانية المعتادة وذلك بالقيام بهجومين بالفرسان في وقت واحد على أجنحة العدو كما أسر سوفاكس.

وبدأت قرطاجة تطلب السلام واستدعت هانيبال بعد أسر سوفاكس. وفي عام ٢٠٢ ق.م عاد هانيبال إلى إفريقيا ومعه جيش مكون من ١٥.٠٠٠ مقاتل فما كان من القرطاجيون أن قرروا استئناف الحرب. وفي السنة التالية خرب سيبيو وادي باجراداس الخصب، وفي الخريف التقى سيبيو مع جيشه هانيبال عند زاما[1] ودارت آخر معارك الحرب القرطاجية الثانية في عام ٢٠٢ ق.م.

كان قوم كل من الجيشين حوالي ٤٠.٠٠٠ مقاتل، وربما كان هانيبال متفوقاً بعض الشيء من الناحية العددية إلا أن معظم مشاة سيبيو كانوا مدربين تدريباً جيداً ووصل عدد فرسانه إلى ٤٠٠٠ فارس وكان لدي هانيبال حوالي ٣٠٠٠ فارس. ولأول مرة في تاريخ قيادة هانيبال أن يصبح جيشه ناقص العدد بتلك الدرجة وخاصة في الفرسان وكان هذا يعني أنه لن يستطيع استخدام أسلوب التطويق الذي برع فيه وكما حدث في كانا.

وربما حدث نتيجة لذلك ما لم يكن في الحسبان، فطبقاً لما قاله ليفي: « اقترح هانيبال على سيبيو التقابل معاً بين جيشيهما لمناقشة الأمور سوياً ». وإنني أعتقد أنه من الصعب

(١) زاما تقع على مسيرة خمسة أيام إلى الجنوب الغربي من قرطاجة.

حدوث ذلك في القرن العشرين، فلو اقترح على روميل مقابلتي بين خطوطنا قبل معركة العلمين لرفضت بالرغم من أنني كنت سأستمتع جداً بمقابلة خصمي القائد الشهير والذي لم أقابله قط.

وعلى العموم فقد تقابل هانيبال مع سيبيو في وجود المترجمين ومن المحتمل جداً أن هانيبال عرض شروط للسلام ولكن سيبيو رفضها وعاد كل منهما بعد تلك المقابلة إلى معسكره.

معركة زاما

وفي فجر اليوم التالي استعد الجيشان للقتال، فقام هانيبال بتوزيع قواته وكانت تدل على أنه يدرك ضعف جيشه عن جيش العدو لذلك وضع ٨٠ فيلا في مقدمة القوات، واصطفت مشاته في ثلاثة خطوط وكان الخط الأول مكوناً من المشاة الثقيلة من الليجور والغال وانتشرت المشاة الخفيفة بين الفواصل، أما الخط الثاني فضمنه القوات التي لا يثق فيها كثيراً وهم المجندون الجدد من قرطاجة وإفريقيا، أما الخط الثالث فكان مكونا من المشاة المحنكة من الإيطاليين وكان يبعد عن الخط الثاني ٢٠٠ ياردة حتى لا يعزل أو يحاصر بواسطة العدو أثناء قيامه بالضربة الحاسمة، ووضع هانيبال ١٠٠٠ فارس قرطاجي في الجناح الأيمن و١٠٠٠ فارس نوميدي في الجناح الأيسر، وكان هدفه من ذلك اختراق الجبهة الأمامية للرومانيين وقد أاعتمد في هذا على الفيلة.

أما سيبيو فلم يوزع مشاته الثقيلة على شكل مربع بل استغل تفوقه العددي وشكلها في طوابير بينها ثغرات لكي تمر منها الفيلة فيتعامل معها الفيليت، وجعل المسافات بين الصفوف أوسع من ذي قبل ووضع المؤخرة بعيداً في الخلف لإيجاد المسافة المناسبة إذا اضطرت المشاة الثقيلة للانسحاب، أما قوته الضاربة فكانت مشكلة من الفرسان النوميديين التابعة للملك ماسينيسا وحشدها على الجناح الأيمن، أما الجناح الأيسر فحشد فيه الفرسان الإيطاليين تحت قيادة لايليوس.

وبدأت المعركة ببعض المناوشات التي قامت بها الفرسان النوميديين لكلا الجانبين بالمواجهة، وعندئذ بدأ هانيبال هجومه بالفيلة، وأثناء تقدمها نحو الجيش الروماني أمر سيبيو بإطلاق الأبواق والنفائر على طول خطوطه، وأحدثت هذه الصفارات المفاجئة

ذعراً بين الفيلة الموجودة على اليسار فاستدارت عائدة واندفعت فزعة نحو فرسان هانيبال محدثه إرباكاً كبيراً فاستغل ماسينيسا الظروف وقام بهجوم أبعد به هذه الفرسان عن ميدان المعركة، أما في منطقة الوسط فقد دفعت سرايا سيبيو الثمن فقد صبت الفيلة جام غضبها على الفيليت ولكنها لم تلمس المشاة الثقيلة ومرت خلالهم ثم قام فرسان الرومان بمطاردة الفيلة بالرماح نحو يمين القوات القرطاجية وعلى الفور استغل لايليوس ما حدث من إرباك في صفوف فرسان العدو، كما حدث تماماً مع ماسينيسا في الجناح الآخر، واندفع بفرسانه نحو الجناح الأيمن لفرسان هانيبال وبذلك هزمت فرسان هانيبال على كلا الجانبين هزيمة منكرة وأصبح كلا الجناحين مكشوفين، وأثبتت الأحداث بأن الفيلة من الممكن أن تكون مصدراً للكوارث.

وعلى الفور بدأت فرسان الرومان بمطاردة فرسان هانيبال إلى مسافة بعيدة وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية للمعركة وهي الاشتباك مع المشاة، وفي البداية كانت الأمور تسير لصالح مشاة الليجور والغال في جيش هانيبال وذلك لخفة حركتهم، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام واختراق الخط الروماني القوي فما كان من الرومانيين أن دفعوا المقدمة، وابتدأت تشتبك مع الخط الأول لهانيبال ولم يتمكن الخط الثاني لهانيبال من مؤازرة وإمداد جبهته المتقدمة، وعندما شعرت مشاة الغال بأنهم تركوا في الميدان وحدهم، على الفور كفوا عن القتال وتراجعوا بعيداً هاربين تاركين خطهم الثاني ليواجه الرومان، وأصبحت أرض المعركة مليئة بالجثث وملطخة بالدماء لدرجة أنها أصبحت زلقة يصعب فيها القتال. ومرت لحظة من المعركة تراجعت فيها مقدمة الرومان تحت ضغط الخط الثاني لهانيبال ولكن ضباط الرومان تمكنوا من تجميع القوات الرئيسية وإنشاء خط أطول من خط هانيبال، وبذلك تمكنوا من صد الخط الثاني لهانيبال ودفعه إلى الخلف وتمزيقه إلى مجموعات صغيرة، وهرب من استطاع النجاة إلى الخط الثالث طالباً الحماية ولكن هانيبال رفض انضمام هؤلاء المهزومين إلى صفوف قواته المنظمة والتي لازالت في كامل نشاطها وقوتها ولم تشترك بعد في المعركة وأشهرت قوات المؤخرة حرابها مما جعل هؤلاء المهزومين يهربون إلى المناطق الجانبية لأرض المعركة واختفوا.

والآن ابتدأت المرحلة الثالثة من المعركة وكانت أعنف أطوارها فقد استعدت جنود

الخط الثالث لهانيبال للقتال في نفس الوقت كان للرومان سعداء لقضائهم على خطين من خطوط العدو، ولكن في نفس الوقت كانت قوات الرومان في أقصى حالات الإجهاد وكان يتحتم عليهم أن يواجهوا مشاة هانيبال الموجودين في الخط الثالث وهم في أكمل قوة ونشاط. ولكن سيبيو قام برباطة جأش غير عادية بالتفتيش على قواته ذات المستوى العالي من التنظيم حيث أمر بإرسال الجرحى إلى المؤخرة مع إرسال قوات المقدمة المجهدة إلى الأجنحة وقام بتكوين جبهة ممتدة قوية بعد إدماج القوة الرئيسية مع قوة المؤخرة حتى يستطيع توجيه ضربة قوية للعدو واختراق خطوطه وقد قال عنه بولييبوس :- « لقد هاجم الخطين كل على الآخر بأقصى ضراوة وأكبر كمية نيران[1] وكان الجانبين تقريباً متساويين من حيث العدد والروح المعنوية والشجاعة والأسلحة واستمرت المعركة وقتاً طويلاً دون أن تحسم لأحد الطرفين، فكان الرجال يقاتلون ببسالة في كلا الطرفين ويسقطوا قتلى دون أن يسمح أحد منهما بمرور الآخر عبرة ولو خطوة واحدة ».

وأخيراً عادت فرسان ماسينيسا ولايليوس الرومانية بعد أن انتهت من مطاردة فرسان هانيبال، وقامت بضرب مؤخرة مشاة هانيبال فتبعثروا وقتلوا في أماكنهم وتمكن القليل جداً منهم الفرار بجلده وانتهت المعركة. انتهت بنصر سيبيو ويرجع الفضل أولاً وأخيراً للفرسان الذين أكدوا النصر بالمرور خلال المدينة كلها بتطهيرها من فلول الأعداء، أما هانيبال نفسه فقد هرب.

أما سيبيو فلم يحاول الزحف نحو قرطاجة لافتقاره لوسائل وإمكانيات الحصار، بالإضافة إلى رغبته في فرض شروط معتدلة للسلام أكثر من رغبته في فرض شروط انتقامية.

التعليق على هانيبال وسيبيو

والآن سوف نناقش ونقارن بين مزايا كل من القائدين هانيبال وسيبيو وقد علق ليدل هارت على معركة زاما بقوله :- « في تلك المعركة تقابل سيد الحرب مع أعظم منه» وحقيقة هذه العبارة أن سيبيو فاز على هانيبال في المعركة الوحيدة التي تقابلا بها، ولذلك

(١) كمية نيران يقصد بها أقصى استخدام للأسلحة.

فليس من السهل تقييم المزايا القيادية لهذين القائدين، ولكن من الواضح أن هانيبال كان أفضل كقائد تكتيكي لأن عبقريته التكتيكية في معركة كانا لا يمكن مقارنتها بقيادة أي معركة عبر التاريخ الحربي كله. والجدير بالذكر أن جيش هانيبال في معركة كانا كان أقل في نوعيته من جيش سيبيو نتيجة لوجود عدد كبير من مشاته غير مدربة بالإضافة إلى أن فرسانه كانت نصف فرسان سيبيو مما أدى أنه لم يستطع استخدام تكتيكات الالتفاف التي حقق بها انتصاراته السابقة ولذلك كان عليه استخدام الفيلة واعتمد كل شيء في سير المعركة على سلوك هذه الفيلة، وقد أحدثوا له كارثة فادحة، ونرى بعد ذلك أنه في نهاية المعركة أبقى على أحسن قواته من المشاة فنجح في التصدي للمشاة الرومانية وكاد أن يفوز بالمعركة.

أما سيبيو فلم يبدو منه أي خطأ أثناء معركة زاما ويكفيه أنه قام بإعادة تنظيم قواته أثناء سير المعركة، فكان ذلك يؤكد سيادته على مجرى القتال. ومهما كانت مقدرة سيبيو وسيادته فقد ساعدته العناية الإلهية التي أعادت فرسانه في اللحظة الحرجة لمعاونة مشاته وقاما الاثنان بالحصول على النصر الذي يستحقانه بجداره.

أما هانيبال فقام بكل ما كان في وسعه، ولكنه في عام ٢٠٢ ق.م بعد ١٦ عاماً من قيادة مستمرة عظيمة، ألقى بنفسي في هوة النسيان في نفس الوقت وصل سيبيو وبدون منازع إلى القمة.

وقد كان سيبيو بالتأكيد أعظم التكتيكيين الرومان، وأدرك أن الافتقار إلى الفرسان هي نقطة ضعف الجيش الروماني، بينما كانت فرق المشاة الرومانية متفوقة على أي مشاة أخرى شهدها العالم، ولكن بدون فرسان أصبحت هذه الجيوش عاجزة إلى أبعد حد ولهذا السبب لم يكن الرومان يمثلون خصماً قوياً للجيوش المقدونية في القرن الرابع ق.م. وقد قام سيبيو بإصلاح ذلك النقص محققاً النصر في كل من باجراداس وزاما، ولكن يجدر هنا أن نقول أن سيبيو بإدراكه الحاجة إلى الفرسان مع استخدام أسلوب جديد لها ما هو إلا اعتراف بسيادة هانيبال في هذا المجال، لأن استخدام سيبيو للفرسان كان مماثلاً للأسلوب الكلاسيكي الذي وضعه الإسكندر وهانيبال، وتشكيل الهلال الذي طبقه في « اليبا » كان يشبه لدرجة كبيرة لتشكل هانيبال في كانا.

ولسوء حظ سيبيو أنه اعتمد بالنسبة للفرسان على حلفائه والمرتزقة بدلاً من اعتماده على الرومان المدربين. وفي حروب القرن الثاني ق.م « بعد سيبيو » وجد الرومان أنفسهم يواجهون بأعداء من المشاة فقط فنسوا تماماً دروس سيبيو التكتيكية. ولقد كان واضحاً أن كل من هانيبال وسيبيو امتازا بقدرتهما على التعامل مع الجنود. فقد قام هانيبال بغزو إيطاليا بجيش مشكل من عناصر مختلفة من كل أجزاء غرب البحر المتوسط. وقام بتدريب هذا الجيش وقاده نحو أعظم الانتصارات. كما قال بوليبيوس : « استمر هانيبال في إيطاليا يحارب روما لمدة ١٦ عاماً متواصلة دون أن يسرح جيشه ولو مرة واحدة بل احتفظ بأعداده الكبيرة تحت سيطرته بدون أن تظهر أي علامة استياء أو تذمر بين هذه القوات ».

ولقد كان بارعاً في علم النفس، ليس فقط لحفاظه على معنويات جنوده مرتفعة بل أيضاً لخداع وإرباك خصومه.

وكان كلا القائدين شجاعًا ومحبوبًا من جنوده وأظهر سيبيو تفهمه وإدراكه العميق للعامل الإنساني في الحرب فأخذ يجوب بين صفوف رجاله يثير فيهم الحماس، وفي نفس الوقت أمر هانيبال ضباطه بالمرور على الجنود وتشجيعهم. وعلى أي حال ربما يرجع عدم قيام هانيبال بمثل عمل سيبيو إلى مشكلة اختلاف اللغة في جيشه المتعدد الجنسيات.

وإذا كان هناك تفوق امتاز به سيبيو على هانيبال هو بلا شك الإستراتيجية التي حسمت الأمر في النهاية، وقد أظهرت سيبيو على أنه واحد من القادة العظام في التاريخ، بينما كانت استراتيجية هانيبال في إيطاليا بمثابة الفشل الكامل، لأن انتصاراته الثلاثة المتوالية في الفترة من ٢١٨ - ٢١٦ ق.م. لم تحقق ما كان يأمله من حدوث شقاق وتصدع في الشعب الروماني، وقد كان ماهربال على حق عندما قال لهانيبال بعد معركة كانا أنه لم يحسن استغلال النصر ومن العجيب أن هانيبال لم يحاول قط التدريب على أعمال الحصار فلم يفكر في احتلال روما ولكن كان يجب إجراؤها على الأقل ليخضع القلاع التي تعتمد عليها الإستراتيجية الرومانية الفابية[1]. وبعد معركة كانا فقد هانيبال المبادأة فأعطى الفرصة لفابيوس ليحول دفة الحرب ضده، ووجد نفسه فجأة محاصراً

(١) الإستراتيجية الفابية هي الإستراتيجية التي تعتمد على الحذر وتجنب الاشتباك بقدر الإمكان.

في جنوب إيطاليا ومن الواضح أنه لم يفهم أهمية القوة البحرية وعلى النقيض منه فقد أظهر سيبيو عظمته الحربية وبعد نظره في الإستراتيجية، بضرب قواعد العدو مباشرة عندما يكون ذلك ممكناً، وفي كل مرة يقوم بذلك يحصل على نتائج باهرة. فكان استيلاؤه السريع على قرطاجة الجديدة هي نقطة التحول للحرب في إسبانيا.

فخطته في إبقاء هانيبال في جنوب إيطاليا مع توجيه ضربة إلى إفريقيا لتدمير عقار دار العدو لإجباره على وقف نشاطه في إيطاليا كان ذلك عبارة عن إستراتيجية رائعة لقائد عبقري، وقد كان سيبيو على قدر كبير من الذكاء عندما استدرج هانيبال إلى المعركة النهائية في زاما وذلك بالسير خلال وادي باجراداس الخصب وتدميره، فهدد بذلك أهم موارد قرطاجة وفي نفس الوقت سحب هانيبال بعيداً عن قرطاجة نفسها بينما قصر المسافة التي سيقطعها ماسينيسا بفرسانه لينضم لفرسان الرومان فيتحقق التفوق في الفرسان التي سيكون لها دوراً حاسماً.

ويرجع النصر المطلق الذي فاز به الرومان على قرطاجة في الحرب القرطاجية الثانية إلى صمود شعبها في أعقاب كارثة كانا عام ٢١٦ ق.م وإلى تفوقها في البحر وإلى استراتيجية سيبيو.

حرب العبيد الأولى

لقد كان كلا الجانبين في زاما يعلم تماماً بأهمية هذه المعركة وكما كتب ليفي: « قبل حلول الظلام سيعرف من سيضع القوانين للدول.. روما أو قرطاجة، ولن تكون هذه القوانين لإفريقيا أو لإيطاليا... بل سيكون العالم كله غنيمة للمنتصر ».

فمن المؤكد أن تلك المعركة حددت مصير غرب البحر الأبيض المتوسط، مع وضع شروط للسلام تضمنت نزع سلاح قرطاجة مع دفعها تعويضاً، وأصبحت نوميديا محمية رومانية وقسمت إسبانيا إلى مقاطعتين رومانيتين ويقيم فيهما جيش روماني بصفة دائمة، كما خضع السكان هناك للضرائب والخدمة العسكرية الرومانية، وهكذا انبثقت الإمبراطورية الرومانية بعد الحرب القرطاجية الثانية.

وخلال القرن الثاني ق.م خاضت روما حرباً متواصلاً لمد نفوذها في منطقة البحر الأبيض المتوسط والمحافظة عليها. وفي عام ١٤٦ ق.م دمرت قرطاجة تدميراً نهائياً،

وقامت في مقدونيا ثلاث حروب. وفي معارك سينو سيفالا عام ١٩٧ ق.م وبيدنا عام ١٦٨ ق.م انتصرت فرق الرومان التي تتمتع بخفة الحركة على فرق الإغريق القوية، ولكن ظهر في بعض هذه الحملات عدم كفاءة القيادة وسوء تنظيم الفرق وأكثر من ذلك تفشي الفساد في الشخصية الإمبريالية الرومانية وعلى سبيل المثال، فقد ذبح أو استبعد الكثير من ضحايا معركة بيدنا. وفي عام ١٦٧ ق.م ألغيت جميع الضرائب المباشرة في إيطاليا، ومنذ ذلك القوت أصبحت روما تعيش على الجزيات الإمبريالية وتجارة الرقيق، ويحتم مثل هذا الاقتصاد إخضاع واستعباد مناطق إضافية أخرى. وأصبحت إفريقيا ومقدونيا واليونان وآسيا الصغرى مقطاعات رومانية. وأصبح الرومان مكروهين بسبب حكمهم الابتزازي وقامت ثورة في إسبانيا في عام ١٥٤ ق.م ضد الحكم الروماني القاسي، وبعد قتال ٤ سنوات استسلم بعض الثوار للقائد الروماني « جالبا » الذي أمر بذبحهم، ومع ذلك استمر الأسبان في القتال بحرب العصابات بقيادة فيرباتوس، ولكن في عام ١٣٣ ق.م وبعد ثماني سنوات من الحصار الروماني لهم سقط معقلهم في نومانتي، وكما حدث مع قرطاجة ومع كورنيت، فقد أبيدوا عن آخرهم.

وفي عام ١٣٥ ق.م قامت ثورة العبيد في صقلية والتي عرفت بحرب « العبيد الأولى » والتي استمرت وقتاً طويلاً ومضطرباً من التمرد والحرب الأهلية وانتهت الحرب في نوميديا وقضي عليها كل من جايوس ماريوس وسولا في الفترة بين ١١٢ - ١٠٦ ق.م.

ماريوس وتعديلات الجيش

وقام ماريوس في الفترة ما بين ١٠٢ - ١٠١ ق.م بصد غزوات القبائل الجرمانية وقام بتعديلات هامة في الجيش في الفترة بين ١٠٤ - ١٠١ ق.م وبصفة خاصة تنظيم الفرق ونظام التجنيد والتطوع وكان يهدف من ذلك إيجاد تنظيم للجيوش يلائم كل الظروف. وقد مهد قواد كثيرون من قبله لهذه التعديلات مثال لذلك ما قام به أميليوس باولوس في بيدنا بتجميع السريا في مجموعات أكبر.

وقام ماريوس برفع مرتب الوحدة التكتيكية الرئيسية بدلاً من السرية « بها ١٢٠ جندي » إلى الكتيبة « بها ٦٠٠ جندي » لكي يعطي الفرقة أكبر قدر من التماسك مع احتفاظها بالمرونة وفي نفس الوقت قام بتحديد عدد جنود الفرقة ليكون ٦٠٠٠ مقاتل

وبذلك صار هناك ١٠ كتائب في الفرقة الواحدة، وكل كتيبة مقسمة إلى ست مجموعات كل منها بها ١٠٠ رجل وكل مجموعة يقودها قائد يدعى « قائد المائة » وألغيت حربة القذف التي ظلت مجموعات المؤخرة تستعملها لأمد طويل وتم تسليح الثلاث خطوط بنوع متقدم ومتطور من الرماح، واختفت مجموعات الفيليت وكذا فرسان الفرقة، ومن الآن فصاعداً أصبح الحلفاء هم مصدر الفرسان والمشاة الخفيفة وأصبحت الفرقة المشاة الثقيلة أكثر تعاوناً وقوة والتي كانت وسيلة يوليوس قيصر في فتوحاته كما أعطى ماريوس لكل فرقة علماً مميزاً به نسر لتستخدمه في إعطاء الإشارات وكنقطة للتجمع وأصبحت هذه الأعلام بمثابة شعارات للفرق وفقدها في المعارك يعتبر عاراً كبيراً. وكان تشابه الأعلام التي تستخدم في وقتنا الحاضر في كثير من الجيوش أو النسور التي أعطاها نابليون لألويته، وأهم ما قام به ماريوس من تغيير في الجيش هو التوسع في نظام التجنيد والتطوع. ولما كان ماريوس نفسه من أصل فقير فكان نجاحه السياسي يدين للتأييد الشعبي، فلم يرض أن يكون جيشه من طبقة الأغنياء فقط ولذا فتح باب التجنيد والتطوع لكل من يرغب في الالتحاق بالجيش وأدى هذا التغيير إلى سرعة احتراف الجندية، أما على السياسة فكان تأثيره ثورياً فقد امتلأت العاصمة الإمبريالية بأعداد غفيرة من الجنود الكسالى الذين تطوعوا في الجيش وجعلوه مصدر رزقهم. وكان ولاؤهم كبيراً لقائدهم الذي أدخلهم الجيش وليس للدولة، لأن الدولة لم تكن قادرة على دفع أجورهم. ولذلك كان قائدهم يسلحهم ويتبعوه طالما كان ناجحاً، ويسمح لهم بسلب الغنائم من الأعداء. وقد أدى هذا إلى ظهور عدد من الساسة العسكريين في القرن الأول ق.م ومنهم ماريوس وسولا وبومبي ويوليوس قيصر. وكانت هذه البدعة أكثر من أي شيء آخر والسبب الرئيسي في الصراع، وقد كتب ساليست :-

« لقد ألقوا كل شيء... البشر والكهنة في بحر من الفوضى والارتباك حتى وصلوا إلى درجة الجنون، فأسفرت هذه الفوضى الأهلية عن حرب ودمار إيطاليا. »

وقد أدى تطور نظام المرتزقة عند الرومان أنهم هزموا أعداءهم كثيراً في الخارج، ويعني أيضاً أن سياسة روما الداخلية أصبحت تعتمد على القوة.

وقد اتسع مجال التطوع في الجيش عندما منح الحلفاء حتى التجنس بجنسية روما.

سولا الدكتاتوري

ومنذ عام ١٠٦ ق.م أصبحت العلاقات على غير ما يرام بين كل من ماريوس وسولا، واصطدمت أطماعها السياسية، وفي عام ٨٨ ق.م قام ميتريديتس الرابع ملك بونتس[١] بغزو إقليم آسيا، بينما ثار الرعايا الأحرار في اليونان وقتلوا حاكمهم الروماني، وعلى الفور انتخب سولا قنصلاً ومنح القيادة الشرقية، فامتلأ ماريوس غيرة عندما وصله هذا النبأ وكان يسحق تمرداً في كامبانيا، فما كان منه أن توجه في ثورة غضبه إلى روما، منتهكاً التقاليد التي تنص على عدم دخول الجيش العاصمة، وأطلق رجاله في العاصمة وانتشر الماريانيون في الشوارع يحاربون وأصبح ماريوس نفسه خارجاً عن القانون فانطلق هارباً.

وفي أوائل عام ٨٧ ق.م بدأ سولا التقدم شرقاً ومعه خمسة فرق حيث استولى على أثينا ونهبها، ثم هزم بعد ذلك أرشيلوس القائد البونتي عند كايرونيا ثم أوركومنيوس أيضاً. وفي تلك المعارك استغل سولا التشكيلات الجديدة للفرق إلى أقصى حد. وأضاف إلى تكتيك المشاة مرونة وقوة دفع جديدتين. في ذلك الوقت غدرت عليه روما وقررت عزله ولكنه لم يرض بالتخلي عن قيادته.

وفي عام ٨٣ ق.م عاد بجيشه إلى جنوب إيطاليا وكان ماريوس قد مات، وفي نوفمبر عام ٨٢ ق.م دخل سولا إلى روما وهزم آخر خصومه في معركة خارج بوابة كلين، وقام بقتل جميع الأسرى في المدرج الرماني، ونصب سولا نفسه حاكماً ديكتاتوري، وقام بتأمين حكمه بالتخلص من ٣٥٠٠ من أعدائه يقتلهم وظل يحكم حتى اعتزل عام ٧٩ ق.م.

وأثبتت حكومة سولا بأنها حكومة مفيدة، ولكن الحقيقة المؤلمة أنها كانت حكومة ديكتاتورية تؤيدها القوة العسكرية.

صلب ستة آلاف سجين

كانت القوة الأساسية للفرق الرومانية مشكلة من الجنود المتطوعين الفقراء

(١) بونتس : تقع شرق الأناضول.

والكسالى وكانوا على استعداد لبيع أنفسهم لأي قائد حتى لو كان عديم الضمير ومجرد من المبادئ والأخلاقيات.

وقد استطاع جنايوس بومبيوس [1] أن يصبح أحد قادة المرتزقة.

وخلال السبعينيات انفجرت ثلاث ثورات خطيرة ضد روما، ففي عام ٧٦ ق.م أرسل بومبي إلى إسبانيا ليخمد التمرد الذي قام به القائد الروماني السابق كونيتوس توريوس وكان هذا القائد من تلاميذ ماريوس، وقام بتدريب جيشه على البراعة في كل من تكتيك الفرق المشاة وحرب العصابات، وكان يسيطر على كل إسبانيا واستطاع في أول الأمر التفوق على بومبي ولكن في عام ٧٢ ق.م أخمدت هذه الثورة.

وفي عام ٧٢ ق.م قام ماركوس لوسينيوس كراسوس بإخماد ثورة قام بها العبيد تحت قيادة المصارع سبارتكوس وقد حوصر العبيد بواسطة زلزال على أطراف إيطاليا واقتيدوا ليقوموا بأعمال الحفر على طول الطريق « من روما إلى كابوا » حيث صلب ٦٠٠٠ منهم. في ذلك الوقت كان لوسيوس لوكولاس مشغولاً في إخماد الاضطرابات التي قام بها ميتريدتس. واستطاع في الفترة بين عام ٧٣ - ٦٩ ق.م من تطهير آسيا الصغرى. ولكن عندما بدأ التقدم نحو أرمينيا قام جنوده بالتمرد فاضطر إلى العدو قبل أن يكمل النصف الثاني من مهمته.

وكان لوكولاس قائداً كفؤاً وشجاعاً كما كان إنساناً يعترف بالقيم الإنسانية أكثر من أن يكون قاهراً وغازياً، كما كان في نفس الوقت غاية في الصرامة والنظام حتى يضمن ولاء المرتزقة وجنود روما المحنكين. وبعد عودته اعتزال الحياة العسكرية ليقضي بقية حياته في هدوء وترف ونعيم.

وكانت أقوى شخصية في روما خلال الستينيات هو بومبي، فخلال حروب ميتريدتس أصبحت القرصنة مصدراً للإزعاج والخطورة، فكانوا يعملون في جميع أنحاء البحر الأبيض في تعاون قريب، متخذين كريت وسيليسيا قاعدة لهم. وكانوا يمتلكون حوالي ١٠٠٠ سفينة مطلية بالذهب والفضة والأرجوان.

(١) جنايوس بومبيوس : وهو أحد ضباط سولا وقد عرف باسم بومبي.

وكانوا يعانون كل من سيرتوريوس وميتريدتس، وأصبحت غاراتهم تتميز بالجرأة فسببت خسائر فادحة، واستولوا على مدن وجزر منطقة بحر إيجة وقاموا بغارات على سواحل إيطاليا لاختطاف الأغنياء وعلى سبيل المثال اختطفوا يوليوس قيصر وهو صغير، وأخطر من ذلك كله هو قطع واردات القمح عن روما لذلك وضع علة عاتق بومبي عملية تصفية هؤلاء القراصنة.

القضاء على القراصنة

وقام على الفور بحشد ٢٧٠ سفينة وتكوين عشرين فرقة وقدراً كبيراً من المال «٦٠٠٠ تالنت» وقسم كل من البحر الأبيض والأسود إلى ثلاث عشرة قيادة كل منها تحت إمرة قائد يسمى ليجاتوس. وكان كل ليجاتوس عليه أن يحاصر سفن القراصنة مع إخضاع قلاعهم الموجودة في منطقته. وكان هؤلاء القادة يعملون متعاونين لمنع سفن القراصنة من مساعدة بعضها البعض. وفي ربيع عام ٦٧ ق.م قام بومبي ومعه أسطول مكون من ٦٠ سفينة وأخذ يجوب البحر المتوسط من الغرب إلى الشرق. وكان يستخدم أسلوباً تكتيكياً مستحدثاً بأن يجبر سفن القراصنة للدخول في مدى الضرب لسفنه الأخرى المنتشرة في المنطقة. وفي خلال أربعين يوماً تم تطهير المنطقة الواقعة غرب إيطاليا. وقام بزيارة سريعة لروما لتفقد الأمور السياسية ثم استأنف عملياته من بروونديزيوم[١]. ومع تحرك الرومان شرقاً تحول حصار موانئ سيليسيا إلى هجوم شامل بينما كان الغرب في حالة من الأمان، وأخذت القراصنة في الاستسلام عندما شاهدوا المعاملة الحسنة للأسرى. أما القراصنة الأقوياء المتهورين فقد هربوا إلى حصون مختلفة. فأعد بومبي قوة كبيرة معززة بأدوات الحصار وبعد أن هزم آخر القراصنة أمام شواطئ كوراسيزيوم، قام بحصار معقلهم الموجود على الشاطئ وكان عبارة عن قلعة مقامة على صخرة عالية منحدرة بحدة على البحر وتتصل بالشاطئ عن طريق برزخ ضيق، وباستسلام المدافعين في هذه القلعة استسلمت باقي القلاع في سيليسيا، وقد استغرقت عملية التطهير من بدايتها إلى نهايتها حوالي ثلاثة شهور. وقد أظهر بومبي مقدرة رائعة كقائد بحري ليس لأنه من قادة الحرب البرية بل أيضاً لأن الرومان كانوا

(١) بروونديزيوم وهي برنديزي

قليلي الخبرة في معارك البحر. ولكن عندما استعدت الظروف لذلك، عادوا إلى قتال البحر ولكن عندما انتهت تلك الظروف عادوا ثانية إلى حياة الأرض واضعين السياسة الخارجية والإستراتيجية في إطار يمكنهم من تحقيق أغراضهم من هناك. ولم يبنوا أسطولاً كبيراً إلا عندما اضطروا للقتال مع القوة البحرية الكبيرة القرطاجية. واستطاعوا في خلال ستين يوماً بناء ٢٠ سفينة من النوع ثلاثي المجاديف و١٠٠ أخرى من السفن السريعة. وكانت الخطة التي اتبعوها هي وضع السفن الرومانية على طول خط سفن الأعداء بحيث يمكن لجنودهم من العبور بعد ذلك إلى سفن الأعداء عن طريق ممرات خشبية توصل بين السفينتين.

وحقق ديليوس نصراً مثيراً بالأسطول الجديد في صقلية فقد أغرق أو أسر أربع وأربعين سفينة معادية.

بينما ضاع النصر الثاني أمام رأس إيكونامس عندما فقد الأسطول على أثر عاصفة هوجاء وفقدت روما خلال تاريخها البحري سفناً نتيجة للعوامل الطبيعية أكثر مما فقدته نتيجة للعدو، وكان انتصاراً دريانا البحري عام ٢٤١ ق.م خاتمة للحرب القرطاجية الأولى. وفي الحرب القرطاجية الثانية، «٢١٨ - ٢٠١ ق.م» ساهم تفوق روما البحري في تحقيق انتصارها الكامل، فضاعت الفرصة من هانيبال لإعادة تقوية نفسه في جنوب إيطاليا في الوقت كان الرومان يغزون إفريقيا. وقد أهملت روما أسطولها خلال القرن الثاني ق.م واعتمدت على أسطول حلفائها من رودس وبرجاموم. وعندما أصبحت روما المسيطرة على جميع بلاد البحر المتوسط، أهملت سيادتها للبحار ونتج عن ذلك انتشار القراصنة.

أما في نهاية ٥٩ ق.م وصلت أنباء إلى روما بقيام هجرة من سويسرا عبر الجنوب الغربي للغال.

يوليوس قيصر يظهر على مسرح السياسية :

كلف يوليوس قيصر حاكم أليريكوم والغال بهذه المهمة، وبمجرد أن انتهى من واجباته كقنصل في هذا العام تحرك بسرعة فائقة إلى جنيف في ذلك الوقت كان عمره ٤١ عاماً وتجربته العسكرية السابقة محدودة، ففي عام ٨١ ق.م خدم في آسيا الصغرى، وفي

حرب ميتيلين حصل على وسام الوطنية لإنقاذه لحياة جندي من زملائه، ولكنه بعد ذلك ركز اهتمامه على الأعمال السياسية وضمن لنفسه مركز قنصل بعد أن توصل في عام ٥٩ ق.م لاتفاق مع كل من بومبي وكراسوس لأنه ابن عم لماريوس. وقد شق يوليوس طريقه وأصبح قنصلاً عن طريق النفوذ السياسي وجمعه بين التهديد العسكري والقدرة على الخطابة والتعامل مع طبقات الدنيا وعامة الشعب. ومن المحتمل عندما أسرع إلى جنيف عام ٥٨ ق.م مع تيتس لابينوس لم يكن في نيته غزو الغال، ولكنه كان طموحاً ويريد اكتساب شهرة ويكون لديه جيشاً قوياً حتى يستطيع البقاء متربعاً على قمة السياسة الرومانية.

وفي بداية صيف عام ٥٨ ق.م أقام سلسلة من الحصون في وادي الرون لمسافة ١٩ ميل ثم هزم السويسريين بعد ذلك عند أرميسي وتحول بعد ذلك إلى الغال في صورة منقذ وليس فاتحاً، ثم واصل تقدمه شمال الحدود القديمة لروما لتطهير الألزاس من الغزاة الجرمان الذين استوطنوها حديثاً واكتسحت ست فرق ليوليوس في تشكيل الخطوط الثلاثة سبع قبائل جرمانية بالقرب من فيسونتيو.

وفي شتاء ٥٨ – ٥٧ ق.م، ترك يوليوس فرقة في تلك المنطقة مما أدى إلى حقد بيلجا[١] لهذا الاختراق للجيوش الرومانية. وفي ربيع ٥٧ ق.م هرع يوليوس قيصر شمالاً ليواجه الجيش البيلجى المكون من ٣٠٠.٠٠٠ مقاتل بقيادة جاليا عند نهر إيسن. وقد اتبع الجيش البيلجى أسلوباً بدائياً بربرياً فقاتلوا بجماعات غير منظمة من المشاة، ومعظمهم غير مسلحين إلا بسيف طويل ودرع من الخشب أو الوتل[٢] وكانوا يقاتلون وهم نصف عرايا، في نفس الوقت قادتهم يلبسون دروعًا واقعية للصدر من البرونز وعلى رؤوسهم خوذات مزخرفة. وقد كان أسلوبهم الوحشي البربري في القتال ينجح دائماً، ولكن عندما طبقوه مع الرومان كما قال فوللر :« تحطمت الشجاعة على صخرة النظام » واستغل يوليوس قيصر الانشقاق بين قبائل البلجية فحارب كل قبيلة على حدة وفي نهاية عام ٥٦ ق.م، تم له فتح كل الغال فيما عدا «ماسيف الوسطى»

(١) بيلجا. إحدى أجزاء التحالف الجرماني للقبائل التي استوطنت شمال الغال.

(٢) الوتل عبارة عن قضبان مضفرة من الأغصان.

يوليوس قيصر يغزو بريطانيا

وفي خريف عام ٥٥ ق.م قام يوليوس قيصر بأول رحلة له إلى بريطانيا وفي الواقع كانت رحلة استطلاعية. وفي يوليو عام ٥٤ ق.م أبحر أسطول يمكن أن يقال عنه من أضخم ما شهده بحر المانش لما قبل حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ متجهاً نحو ساندويتش ويحمل خمس فرق و٢٠٠٠ فارس من الغال وكان البريطانيون منزعجين جداً من مواجهة هذا الحشد الضخم عند نزوله إلى الشاطئ فما كان من يوليوس أن طاردهم داخل البلاد ولكنه سمع خلال أربع وعشرين ساعة بأن سفنه دمرت نتيجة للطقس السيئ وهنا تشجع البريطانيون وبدؤوا حرب العصابات وكانت عنيفة يقودها كسفيلونس. وعموماً فقد هزمهم يوليوس في معركة بالقرب من برينتفورد واستولى على قلعة كسفيلونس على الجانب الآخر من نهر التيمز. وحان الوقت ليعود إلى الغال لذلك فرض شروطاً معتدلة على البريطانيين ثم انسحب ولم يعد الرومان بعد ذلك إلى بريطانيا لمدة مائة عام. ولم يحدث مطلقاً أن دفع البريطانيون ما فرض عليهم من الجزية. ويجب النظر لعملية الغزو الذي قام بها يوليوس لبريطانيا بشيء من العمق ويمكن تفسيرها بأنها مجرد تغطية للفشل.

ولم يكن عامل الوقت هو الاعتبار الوحيد لعودة يوليوس إلى الغال ولكن لاعتبارات أخرى وهي قيام الثورات التي تفجرت في عدة أماكن هناك. وفي عام ٥٣ ق.م ظهر أمبيوريكس قائد للمتمردين وكان يقود الأيبورنز وقد أباد فرقة رومانية كاملة بالقرب من أمينز ثم حاصر معسكراً رومانياً مستخدماً الأسلوب الروماني في الحصار. وقد قام يوليوس بفك هذا الحصار. فاضطر يوليوس أن يقضي باقي السنة في سحق الأبيورونز. أما أمبيوريكس فقد دفع به نحو الأردين، كما جلد قائداً آخر للمتمردين حتى الموت. وبنفس النمط تمت تصفية الأيبورونز بتدمير محاصيلهم وماشيتهم كما يقول يوليوس:

«لقد تم حرق كل ما يمكن أن يراه المرء من قرى صغيرة ومنازل وما حولها» وقد ساعد الانشقاق العميق بين المتمردين أن استطاع يوليوس النيل منهم، ولكن في عام ٥٢ ق.م ظهر قائد جديد لهم.. وتمكن بقسوته ونظامه أن يوحد بين ثوار الغال وكان يدعى أنتوي فرسنجتركس قائد الأرفيرني.

في بداية العام قام يوليوس قيصر بتقدم مفاجىء عبر التلال الثلجية، مما أدى إلى إرباك العدو حتى أمكن محاصرة القلعة التي يحتلها أفاريكوم « بورج » وهنا قرر فرسنجتركس استخدام أسلوب حرب الإنهاك والاستنزاف وتجنب مواجهة فرق يوليوس بقتال سافر، وذلك باستخدام حرب العصابات. وحاول فك حصار أفاريكوم بإشعال النيران في المنطقة حول المدينة كلها لحرمان الرومان من الطعام، ولكن يوليوس استولى على المدينة وقتل جميع سكانها واستولى على مخازن القمح بها. وأخيراً استطاع يوليوس محاصرة القلعة التي يحتلها فرسنجتركس نفسه في باليسيا ولكنه هوجم بجيش قوي من الأعداء من الخلف وحاصره هو وقواته، وبذلك أصبح يوليوس محاصراً بينما هو يحاصر القلعة إلا أنه سيطر على مساحة خمسة وعشرين ميلاً من الخنادق والمواقع الدفاعية، وفي النهاية تمكن من هزيمة الجيشين المعاديين داخل وخارج القلعة وكان هذا الانتصار الرائع بمثابة تحطيم السلسلة الفقرية للثورة الغالية وتم وضع سلام مبني على الحرية وبذلك لم تعد الغال تمثل أي خطر على روما.

وفي نفس الوقت تغير الوضع السياسي في إيطاليا تغييراً كاملاً.

كارثة روما

وفي ربيع عام ٥٣ ق.م عبر كراسوس نهر الفرات حيث اصطدم بالعدو عند كارا، وكان جيش العدو يتكون من ١٠٠٠ مقاتل من الرماة الثقيلة و ١٠.٠٠٠ من الرماة الراكبين وخلف هؤلاء يوجد ١٠٠٠ جمل محمل بأعداد كبيرة من السهام كاحتياطي للقوات تحت قيادة سورناس. اتخذت القوة الرئيسية لجيش كراسوس تشكيل مربع وصمدوا أمام وابل من السهام الذي ظل ينمو عليهم حتى هبوط الليل. وخلال الليل بدأ كراسوس في الانسحاب نحو التلال، ولكن الجمل الذي كان يقوده ضل الطريق... وسقط كراسوس في الفخ، ثم اغتيل هو وأركانات حربه أثناء إجراء مفاوضات الاستسلام مع سورناس وفر حوالي ١٠.٠٠٠ مقاتل من جيش كراسوس الذي يقدر بحوالي ٣٦.٠٠٠ مقاتل وكانت معركة كارا بمثابة كارثة للرومانيين إذا قورنت بكل من كودين فوركس وكانا.

وفي خريف عام ٥٠ ق.م عندما عاد يوليوس إلى إيطاليا، لم يكن هناك سواه. وبومبي

يتصارعان على السلطة. وقد ذاع في روما قسوة يوليوس قيصر في الغال، وتخوف الجميع أن يصبح سولاً آخر وقد صرح بعض الشيوخ علانية أنهم سيتهمونه بالخيانة العظمى بسبب عودته، وفي هذه الظروف لن يكن هناك مفر من حرب أهلية وخاصة أن يوليوس له جيش يدين له بالولاء والإخلاص ويتكون من تسع فرق أما بومبي فله جيش مكون من عشرة فرق منها سبعة في إسبانيا علاوة على سيطرة بومبي على الأسطول. وكان يوليوس يحظى بولاء شعبي أكثر مما يحظى به بومبي.

وفي يناير عام ٤٩ ق.م تأهب يوليوس للحرب وعبر نهر روبيكون[1] زاحفاً نحو الجنوب، أما بومبي فلم تكن لديه الرغبة في الدخول في معركة سافرة مع فاتح الغال وقواته المحترفة المحنكة وذلك لأنه لم يشهد أي عمل حربي منذ عام ٦٢ ق.م علاوة على ضعف قواته من الناحية العددية والتدريب، ولذلك قام في نهاية شهر مارس بترحيل جيشه بحراً من برونديزيوم، في الوقت الذي كان يزحف فيه يوليوس قيصر وجيشه نحوه، وفي خلال عشرة أسابيع من عبور يوليوس لنهر روبيكون تمكن من السيطرة على إيطاليا ودخل روما دون أي قتال.

. وفي أبريل عام ٤٩ ق.م رحل يوليوس إلى إسبانيا، وهناك خلال سبعة شهور أخضع الفرق السابعة التابعة لبومبي دون إراقة أي دماء وضمن ولاءهم، وبعدها زحف سريعاً وعند نهر سيكوريس بالقرب من إليردا أوقع خصمه في شرك في إحدى الممرات الضيقة حيث استسلمت هذه القوات.

يوليوس قيصر وكليوباترا

وفي يناير عام ٤٨ ق.م عبر يوليوس وجيشه إلى مقدونيا، حيث تسلل خلف سفن دوريات بومبي وأنزل سبع فرق شمال كورسيرا. وحاصر جيش بومبي في ديرا كيوم مدة من الوقت حتى بادر جيش بومبي بالقتال في أغسطس ودارت أعنف المعارك في الحرب الأهلية وخاضها الجيشان عند فارسالوس في بتيسالي. وكان بومبي يرغب قبل وقوع هذه المعركة في تجنب القتال ولكن ضباطه نفد صبرهم، وأدى هذا أن لحقت الهزيمة بجيش بومبي منذ البداية لإخفاق لابينوس في دفع فرسانه الموجودين في اليسار إلى

(١) بالقرب من أريمنيوم.

المعركة. وفي اليوم التالي استسلمت جميع القوات المتبقية من جيش بومبي بينما فر بومبي إلى مصر. وبعد ذلك كان على يوليوس أن يتخلص من أتباع بومبي الموجودين في مختلف القطاعات، فقام أولاً بالسير في أثره إلى مصر حيث قتله ووقع في حب الملكة كليوباترا، وبقي في مصر تسعة شهور. وفي يوليو عام ٤٧ ق.م تمكن من هزيمة الفارناس المتمردين في زيلا وأرسل بعدها رسالة إلى روما موجهة إلى أعضاء مجلس الشيوخ يبلغهم بانتصاراته العظيمة. مر حوالي عام على معركة فارسالوس في ذلك الوقت وحد أتباع بومبي صفوفهم في إفريقيا تحت قيادة لابينوس، وفي ديسمبر عام ٤٧ ق.م نزل يوليوس قيصر إلى إفريقيا بفرقة واحدة و٦٠٠ فارس، وفي البداية اصطدم بمقاومة عنيفة، ولكن وصله في الربيع التالي الإمدادات والتعزيزات فساعدته على إنهاء حملة إفريقيا بانتصاره في ثابسوس.

وفي عام ٤٥ ق.م هزم آخر ما تبقى من أتباع بومبي في إسبانيا عند موندا[1] وبذلك أصبح يوليوس قيصر سيد العالم كما أصبح دكتاتور روما الدائم.

وبالرغم من أن حكمة لم يكن بغيضاً إلا أنه اغتيل في نهاية الأسبوع الثاني من مارس عام ٤٤ ق.م على يد كل من الجمهوريين بروتس وكاسيوس.

يوليوس قيصر كقائد وسياسي

بالرغم مما حققه يوليوس من نجاح وانتصار كبير، إلا أنه كان عرضه للنقد، فقد فشل في إجراء التغيرات الضرورية لإعادة تنظيم جيشه فكان يفتقر للمشاة الخفيفة مما استغرق وقتاً أطول في هزيمة الغاليين، علاوة على أنه لم يقم بتدريب فرسانه للوصول إلى المستوى اللائق، بل اعتمد على البرابرة في الخيالة. وقد كان الاستطلاع في جيشه رديئاً جداً وأهمل خطوط مواصلاته وأدى هذا الإهمال أن أسطوله كاد أن يفقد مرتين عند الساحل البريطاني ولم يكن لديه هناك أجهزة لإجراء الإصلاحات اللازمة، علاوة على سوء الإمداد وقطع خطوط المواصلات عند كل من إليردا وديرا كيوم لدرجة أن الكثير من جنوده كانوا يموتون جوعاً.

(١) موندا بالقرب من قرطبة.

علاوة على ذلك كان يوليوس قيصر شاذاً في تفكيره الإستراتيجي، فبعد أن قضى على الغال قام بقضاء الصيف في جزيرة نائية، ليس لها أي أهمية اقتصادية أو سياسية أو إستراتيجية، بينما كانت تندلع خلفه ثورات كثيرة، ولم يظهر يوليوس أي أبداع كرجل تكتيكي وتنظيمي، فأهمل قوات الفرسان، وقاتل في جميع حروبه ضد مختلف أعدائه بالفرق المشكلة على ثلاثة خطوط وهو التشكيل التقليدي المحض ولكنه بالرغم من ذلك كان أعظم قادة الرومان في قيادة المشاة علاوة على قيامه بتطوير الفرق المشاة بعض الشيء.

وكان نهجه في السياسة كنهجه في القتال، فعندما وصل إلى قمة السياسة كانت قراراته وأعماله سريعة، وكان جريئاً لأبعد الحدود ومندفعاً بل ومتهوراً، وعلى العموم ساعدته خفة الحركة والمبادأة في جميع حروبه.

وكانت شخصية يوليوس مميزة ومن أكبر عوامل نجاحه، فمجرد أن يشعر جنوده بوجوده بينهم كان هذا يعطيهم التأكيد والثقة في النصر. وكانت بشاشته وذكاؤه من العوامل التي أدت إلى إخلاص رجاله له حتى النساء لم تستطع مقاومته. وكان في نفس الوقت سياسي ماهر وله شعبية وموهبة خطابية فذة. وكان السبب الرئيسي في أن الشعب الإيطالي تبعه في الحرب الأهلية هي شعبيته وحبه لعامة الشعب. وكان يعتمد دائماً على القوة والبطش ومثال لذلك ما قام به من بشاعة وقتل وانتقام وبالرغم من ذلك فعنده انتصر في الحرب الأهلية كان متسامحاً ومتساهلاً مع أعدائه، ولذلك أصبح من المشكوك فيه أن يكون مختل العقل.

وبعد موته... تصارع مختلف السياسيين طمعاً في إمبراطوريته، إلى أن تمكن أخيراً ابن أخيه أوكتافيان من هزيمة أنطونيو وكليوباترا في موقعة أكتيوم البحرية عام ٣١ ق.م، وبذلك أصبح أول أباطرة روما.

لقد أردت أن أقدم لك - أيها القارئ العزيز - هذه التحفة التاريخية الرائعة لما فيها من أحداث شيقة ورائعة استحوذت تماما على تفكيري وعقلي، ونالت إعجابي وتقديري.





DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الرابع عشر

فوشيه السفاح

الرجل العجيب الذي أغرق فرنسا في الدماء...

ومن أروع القصص التي قرأتها أيضاً جوزيف فوشيه وهو شخصية جبارة من شخصيات التاريخ. ولكنه كان يؤثر العمل في الخفاء على العمل جهاراً. ولهذا، فإن لمعان هذه الشخصية في التاريخ لا يتناسب مع الأعمال المدهشة التي قام بها. ويروي ستيفان زفاريج سيرة هذا الرجل العجيب الذي شارك في حكم فرنسا فترة من الوقت.

ونحن إذا تصفحنا المذكرات التي تركها نابليون وروبسبيير وتاليران وغيرهم من رجال الثورة الفرنسية، والكتب التي وضعها المؤرخون الفرنسيون من ذلك الوقت إلى يومنا هذا، لما وجدنا واحداً منها يخلو من نقد جارح موجه إلى « جوزيف فوشيه » أو من كلمة لاذعة يصف بها كاتبها ذلك الرجل الغامض. فقد قيل أنه ولد خائناً، وأنه دساس نمام، وأنه كثير التلون كاذبًا منافقًا مخادعًا، وأن نفسه الخسيسة جعلته يرتكب جميع ما يتصوره عقل إنسان من الأعمال الدنيئة. نعم، قيل فيه كل هذا، ولا يتحدث عنه المؤرخون إلا بلهجة التهكم والازدراء، ويضعونه في مرتبة ثانوية بالنسبة إلى أبطال التاريخ الذين ملؤوا الدنيا قعقعة وضجيجاً. ومن وقت إلى آخر، يتناول القصاصون ومؤلفو المسرحيات شخصية جوزيف فوشيه، فيظهرونها في أقاصيصهم أو في مسرحياتهم في مظهر يدعو إلى السخرية أو الاشمئزاز. وصفوة القول، إن جوزيف فوشيه كان بلا شك أكره شخصية بين الشخصيات التي امتازت خلال الثورة الفرنسية الكبرى، وقد ظلت شخصيته مكروهة على كر الأيام، ولا تزال مكروهة حتى أيامنا هذه.

والكاتب الفرنسي الوحيد الذي وصف فوشيه بأنه عبقري - ممتاز، هو بلزاك، الذي قال عنه أنه « الوزير النادر » بين وزراء نابليون. كما قال عنه أيضاً في إحدى رواياته : إن نفوذه وسلطانه على الناس كانا في وقت من الأوقات يفوقان سلطان نابليون ونفوذه.

لقد عرف فوشيه كيف يعمل وراء الستار، وكان شأنه في الثورة الفرنسية وفي عهد الإمبراطورية شأن الآلات الصغيرة التي تتكون منها الساعة، ولكنها لا تظهر للعين، بل أن الذي يظهر هو عقرب الساعة الذي تحركه تلك الآلات الخفية.. ولم يكن فوشيه يتردد أمام أية وسيلة ما دامت توصله إلى أهدافه. فالغاية عنده تبرر الوسيلة، بكل ما في هذا التعبير من احتمالات. وقد انتقل من حزب إلى حزب، ومن هيئة إلى هيئة، ومن عهد إلى عهد، فخدم الجميع، واستغل الجميع، بغير أن يؤاخذه ضميره، وبغير أن يشعر بخجل أو بتردد لحظة واحدة قبل التحول من موقف إلى موقف. وقد وصل إلى أهدافه جميعها، وصم أذنيه عن كل ما سمعه ورآه من خصومه، الذين كانوا يأخذون عليه ذلك التقلب المعيب.

لاشك في أن جوزيف فوشيه لم يكن يتسم بخلق نبيل. بل أنه كان عديم الخلق، لا فرق عنده بين الخير والشر، والصدق والكذب، في سبيل الوصول إلى ما وضعه نصب عينيه. ولكنه كان يكره الظهور ويتحاشاه. وكانت لذاته الوحيدة في الحياة أن يتحكم في مصائر الناس ومقدرات الشعوب، من وراء الستار، وبغير أن يراه أو يشعر به أحد. وقد مرت على فوشيه أيام كانت فيها إرادته فوق إرادة الإمبراطور نابليون، لأنه كان يسير سياسة فرنسا حسب هواه، ويخضع نابليون لإرادته.

الصعود « ١٧٥٩ - ١٧٩٣ »

ولد جوزيف فوشيه في ٣١ مايو ١٧٥٩ بمدينة نانت. وكان أفراد أسرته من رجال البحر والتجارة. ولكن صحة جوزيف ومؤهلاته وميوله أبعدته عن الطريق التي سلكها أقاربه فآثر الرهبنة ودخل الدير، حيث عهد إليه بأعمال تتفق مع حالته الصحية. ولكن الشاب، الذي كانت المطامع تختمر في صدره، لم يرسم كاهنا لأنه قرر ألا يكون وفياً لأحد في حياته، حتى ولا لله عز وجل ! ولو أصبح كاهناً لربط نفسه بالفضيلة برباط وثيق، وهذا ما كان يريد أن يتجنبه.

قضى فوشيه عشرة أعوام في الدير، فكانت له بمثابة مدرسة تعلم فيها كيف يسكت، كيف يتحكم في إرادته، وكيف يراقب الناس ويسبر غور نفوسهم، وكيف يضبط أعصابه فلا يدع أسارير وجهه تنم عن الشعور والعواطف التي تختلج في صدره. ومما يجمل ذكره هنا أن بعض زعماء الثورة الفرنسية الكبرى خرجوا من صفوف الكهنة والرهبان، وكان ألمعهم تاليران وسييس، وفوشيه.

وفي أثناء إقامة فوشيه في الدير، عرف مكسيمليان روبسبير، وكان محامياً صغيراً، وأوشك أن يتزوج أخته. وروبسبيير هو ذلك الذي أصبح فيما بعد صاحب أرفع منصب في فترة من فترات الثورة.

وعندما بدأت فرنسا تضطرب، وأنشئت فيها الأندية السياسية للمطالبة بالإصلاح، وصحا الوعي القومي الشعبي من سباته، نزع فوشيه عنه نهائياً ثوب الرهبنة، وقرر أن يخوض معمعة التحرير. وما مرت أسابيع حتى كان الراهب القديم رئيساً لأحد الأندية في مدينة نانت، وهو « نادي أصدقاء الدستور ».

وأدرك أن المال لابد منه لكل من أراد أن يصل إلى النجاح والتوفيق في ميدان السياسة، فتزوج ابنه تاجر معروف، ليس فيها شيء من الجمال، ولكن عندها من المال ما يكفي. وفي عام ١٧٩٢، رشح نفسه للانتخابات النيابية، وفاز بالمقعد الذي يرجوه، بعد أن قطع لناخبيه العهود والوعود، وإن كان في قراره نفسه، يعتزم ألا ينفذ منها إلا ما يريد تنفيذه.

وكان حينذاك في الثانية والثلاثين من العمر. وكان عدد أعضاء الجمعية التأسيسية ٧٥٠ عضواً، وهو واحد منهم.

جلس فوشيه بينهم، وجعل يفكر في الحزب الذي سينتمي إليه.. ولم يطل تفكيره طويلاً، فهو دائماً مع القوي، دائماً مع الحزب القابض على زمام الأمور، مع الحزب الذي يجمع حوله أغلبية المجلس. وهو دائماً صديق الرجل الذي يخضع له الحزب، ومن ثم يخضع له المجلس وتخضع له البلاد ! وهذا سر قوته. فقد عرف هذا الرجل طوال حياته كيف يختار الوقت المناسب للانتقال من حزب إلى حزب، وكان دائماً يساعد غيره على ارتقاء أعلى المناصب، ويبقى هو وراء الستار، على شرط أن يظل قابضاً

في الخفاء على مقدرات ذلك العظيم الذي يكون قد رفعه إلى المجد ! فله السلطة الفعلية، ولغيره المظاهر !

وجاء يوم ١٦ من يناير عام ١٧٩٣، وهو اليوم الذي حدد لاتخاذ قرار فيما يتعلق بالملك لويس السادس عشر، الذي كان زعماء الثورة قد جردوه من الملك وسجنوه. وكان على كل عضو في المجلس أن يعلن رأيه جهازاً، وبكلمة « لا » أو « نعم » رداً على السؤال الآتي : « هل الملك يستحق الإعدام أم لا ؟ »

وكان رأي فوشيه في بادئ الأمر أن يعفو المجلس عن الملك، وأن الحكم بالإعدام على صاحب التاج عمل يتسم بالفظاعة والوحشية. ووضع فوشيه مشروعاً لخطاب عزم على إلقائه في المجلس مؤيداً فكرة العفو عن الملك. ولكن هذا الرجل المنقلب النفعي، المساير لكل أغلبية، أدرك في الليلة التي سبقت ذلك اليوم التاريخي أن هذه الأغلبية تميل إلى إعدام الملك، فقرر أن يغير رأيه وينضم إلى صوت الأغلبية. وهكذا وقف فوشيه، عندما جاء دوره للاقتراع، وقال بصوت خافت : «الموت !» وأصبح واحداً من قتلة الملك لويس السادس عشر !

ومنذ ذلك اليوم، راح الرجل يدافع عن مبادئ الثورة، ويدعو إلى القتل والنهب، وثارت ثائرته على كل ما يتصل من قريب أو من بعيد بالأسرة المالكة، وبطائفة الأشراف والنبلاء، ورجال العهد البائد، وامتدت ثورته إلى كل ما يتصل أيضاً بالكنيسة والدين، فعهد إليه المجلس بإقرار النظام في الأقاليم، فانطلق يقتل ويحرق ويدمر، ويروي نقمته من الأغنياء ورجال الدين. وبعد تلك الأعمال العنيفة الدموية التي قام بها فوشيه في الأقاليم، أعلن زملاؤه في المجلس أنه خير من طبق مبادئ الثورة، وأنه أشد المتطرفين تطرفاً !..

الحديد والنار في ليون « ١٧٩٣ »

تعد المذبحة التي وقعت في مدينة ليون، والتي دبرها وأدار دفتها جوزيف فوشيه، من أشد صفحات الثورة الفرنسية وحشية. وليون هي المدينة الثانية في فرنسا، وفيها مركز التجارة والسياسة والصناعة في الجزء الجنوبي. وفي عام ١٧٩٢ كان عدد العمال في هذه المدينة عظيماً، وجميعهم أعداء للملكيين وللرأسماليين. وكان يتزعم العمال وأعضاء

الأندية الثورية في ليون رجل يدعى « شاليه » وهو كاهن قديم اعتنق المبادئ الجديدة وراج يدعو الناس إلى اعتناقها بقوة وإيمان. ولم تكن مدينة ليون قد خضعت بعد لنفوذ الهيئات الثورية، فأراد القابضون على الحالة فيها أن يلقوا على الشعب درساً، فقبضوا على شاليه عند قيام أول مظاهرة ثورية، وحكموا عليها بالإعدام، ونفذوا فيه الحكم بصورة بشعة مثيرة. وكان هذا العمل إيذاناً بانفجار مرجل الثورة في المدينة. وقررت الهيئات الباريسية أن ترد على ذلك الحادث بضربة قاضية، وهي تدمير المدينة العاصية، ومحوها من الوجود، وإقامة نصب تذكاري على أنقاضها تحفر عليه هذه الكلمات : «لقد حاربت مدينة ليون مبادئ الحرية، فهدمت مدينة ليون ! » .

ووقع الاختيار على رجل يدعى « كوتون » لتنفيذ هذا القرار. ولكنه لم يقم بمهمته على النحو المنشود، فأعيد إلى باريس، وأرسل المجلس مكانه رجلين من أبعد زعماء الثورة تطرفاً، هما كولو ديربوا وجوزيف فوشيه : الأول ممثل قديم، والثاني راهب قديم !

لم يكن أحد منهما يحب القتل وإراقة الدماء. ولكن الظروف جعلت منهما قاتلين وشاربي دماء ! وهذا ينطبق على معظم رجال الثورة الفرنسية، التي ذهب ضحيتها عشرات الألوف من الناس. فإن الذين أداروا دفتها لم يكونوا راغبين في سفك الدم، ولكن تطور الحوادث والظروف جعلتهم جميعاً يقتلون ويأمرون بسفك الدم !

وصل كولو ديربوا ورفيقه فوشيه إلى ليون، وباشرا في الحال تنفيذ المهمة التي أوفدا للقيام بها. وكان أول ما صنعاه تجريد الكنائس من محتوياتها، وحرقها، وتنظيم حفلة في أكبر ميادين المدينة لتمجيد ذكرى شاليه « شهيد الحرية » وبدا بعد ذلك إعدام السكان بالجملة. وليس في صفحات الثورة الفرنسية ما هو أشد فظاعة من تلك الصفحة التي خطها فوشيه ورفيقه في ليون، فقد أعدم من سكانها ألف وستمائة شخص في أسبوع واحد. وبلغ عدد الذين قتلوا بالرصاص أو على المقصلة أكثر من ألفين. وهدمت مئات المنازل على رؤوس أصحابها، وأضرمت النار في مئات أخرى، ولو كانت المدينة قد سقطت في يد جيش مهاجم من الأعداء، لما فعل في السكان ما فعله فوشيه وديربوا.. ! ومنذ ذلك الوقت عرف فوشيه بين زملائه باسم « سفاح ليون » ولكنه حاول فيما بعد التخلص من هذه التسمية، عندما اضطرته الظروف إلى الظهور في غير مظهر الثائر

المنتقم للشعب من ظالميه. بل حدث عندما أصبح فوشيه وزيراً في عهد الإمبراطورية والملكية، أن راح الرجل يجمع الكتب والمذكرات التي تصف حوادث ليون، ويحرقها ظناً منه أن ذلك قد يمحو ذكريات وحشيته من الأذهان.

الصراع ضد روبسبيير « ١٧٩٤ »

كانت الأعمال التي اقترفها فوشيه في ليون فظيعة إلى حد أن المجلس نفسه، بباريس، ضج من هول الأخبار التي نقلت إليه، فأرسل من يدعو كولو ديربوا أولاً، ثم فوشيه بعده، ليقدما له حساباً عن الوسائل والأساليب التي اتبعاها في تنفيذ أوامر المجلس، وذلك للشكايات العديدة التي تقدم بها فريق من الخصوم السياسيين.

وكان روبسبيير يسيطر على المجلس سيطرة تامة. وروبسبيير هو الطاغية الذي يطبق مبادئ الثورة تطبيقاً صارماً، والذي لا يحيد عن طريق النزاهة والصدق قيد أنملة. وهو الذي ساق إلى المقصلة جميع الذين خالفوه في الرأي من خطباء الثورة وكتابها وشعرائها ومفكريها، لأنه رأى فيهم جنوحاً عن السبيل القويمة. وهو الذي يحمل موجدة على فوشيه ويضمر له الشر. فكيف السبيل إلى التخلص من نقمته !

فعل فوشيه ما لم يكن في استطاعة أحد من جميع أولئك الزعماء والقادة أن يفعله. وفوشيه كما قلنا لا يتردد أمام قول أو عمل من شأنه أن ينقذه من ورطته حتى لو كان فيه إذلاله. وهذا ما حدث في هذه المرة. فقد ذهب فوشيه إلى روبسبيير في بيته، وطلب منه الصفح عما اقترفه من فظائع سودت وجه الثورة وأساءت إليها. ولم يكن أحد حاضراً عندما استقبل روبسبيير ذلك الزائر الخبيث الماكر. ولكن الذي يعرفه الناس، هو أن فوشيه لم يخرج من بيت الطاغية مرتاحاً، وأن روبسبيير قد أنبه على سلوكه، وهدده بأن حياته في خطر. ولم يكن روبسبيير ليمزح في تهديده، فهو الرجل الذي يناصر الفضيلة، ولا يدع إلى ضميره سبيلاً للرشوة، ولا يغفر للرجل الذي يخالفه في الرأي ويخرج عن جادة الصواب.

إذن، فالحرب قد أعلنت بين روبسبيير وفوشيه. فمن يكون المنتصر ؟ الرجل الصريح أم الرجل الخبيث ؟ الصادق أم الكاذب ؟

كان الصراع بين الرجلين عنيفاً. وهو مرحلة من أروع مراحل الثورة الفرنسية

الكبرى. وعندما تحدى أحدهما الآخر، لم يكن منهما يقدر مزايا خصمه ومواهبه التقدير الكافي. ولهذا، كان الصراع رهيباً.

جعل روبسبيير يحارب خصمه جهاراً. وراح فوشيه يحارب خصمه في الخفاء. الأول يخطب، والثاني يُحيك الدسائس. وفجأة، أعلن في باريس أن جوزيف فوشيه قد فاز في انتخاب الرياسة لنادي اليعقوبيين، وهو أقوى الأندية الثورية وأوسعها سلطة ونفوذاً. وأصبح في استطاعة الرجل أن يهدد روبسبيير في كيانه.

صعق روبسبيير عندما بلغه هذا الخبر. وأدرك إلى أي مدى يفوقه ذلك الخصم في العمل وراء الستار. فإن نادي اليعقوبيين كان يمثل المبادئ الثورية الخالصة، وكان كل واحد من أنصار هذه المبادئ يسعى للحصول على عضوية النادي، فضلاً عن رياسته، وإذا طرد أحد الأعضاء من النادي، فإن هذا معناه أنه غير وفي لمبادئ الثورة، وأهل للموت !

إذن، فلابد لروبسبيير من طرد فوشيه، آجلاً أو عاجلاً، من رئاسة النادي، ثم من عضويته. ولكن الطاغية كان يشعر بأن المهمة صعبة، وبأن القضاء على فوشيه، الذي يأبى مواجهة خصمه في وضح النهار، ليس أمراً يسيراً. ولكن الرجل الذي كان يأمل أن يظل صاحب الكلمة الوحيدة النافذة في فرنسا، أقسم أن يقضي على ذلك الخصم أو أن يقضي على نفسه !

وفي إحدى جلسات الجمعية ألقى روبسبيير خطاباً شديد اللهجة، يعد من أبدع الخطب التي ألقاها ذلك الرجل الذي كان سيد المنابر في عصره، وحمل فيها على فوشيه حملة شعواء، فاتهمه بأنه أساء إلى الثورة وإلى الجمهورية، وأن سلوكه في ليون وغيرها من المدن، في أكثر من مناسبة، كان بمثابة معول زعزع أركان النظام الجديد. وخرج فوشيه من تلك الجلسة مطأطئ الرأس، وهو يشعر بأن شبح الموت يتابعه. وعلم بعد ذلك أن روبسبيير قد اتفق مع ثلاثة من أنصاره على أن يطلب هؤلاء من المجلس إصدار حكمه بإعدام فوشيه.

وشاءت الأقدار أن تصاب ابنة فوشيه الوحيدة، في ذلك الظرف الرهيب، بمرض لا يرحم. وكان فوشيه زوجاً صالحاً وأباً رحيماً، ولم ينبض قلب هذا الرجل بعاطفة

المحبة إلا تجاه زوجه وابنته.

ماتت الابنة في الوقت الذي كان فيه فوشيه مضطراً إلى الاستعداد لمواجهة الحكم بإعدامه، ولكن موت ابنته جعله يستخف بموته هو. وبعد الانتهاء من دفن المسكينة، عول فوشيه على أن يضرب ضربة اليأس، وقال في نفسه: «غداً سيقضي على واحد منا!».

وهذا ما حدث.. فقد استغل فوشيه في تلك الأيام جميع مواهبه، وأطلق العنان لمكره وخداعه، وتمكن من جلب بعض الناقمين إلى صفه، فتآمر معهم على قلب روبسبيير من منصبه الرفيع، بحجة أنه يسعى إلى إقامة ديكتاتورية تحل محل الجمهورية وتخلف الملكية البائدة. وكان في مقدمة المتآمرين تاليان وباراس. ونجحت المؤامرة، وبدل أن يصدر الحكم بإعدام فوشيه ورفاقه، قامت حركة شعبية خارج المجلس، اشترك فيها الجيش، وأدت إلى إسقاط روبسبيير وسوقه إلى المقصلة حيث أعدم أمام الجماهير الصاخبة، التي تصفق دائماً للقوي المنتصر، وتصفر له إذا ما ضعف وانهزم!

ولكن أصدقاء الزعيم الراحل جمعوا فيما بعد جموعهم، وراحوا يطلبون الثأر لروبسبيير، فخاف فوشيه، وأدرك بثاقب نظره أن فرنسا مقبلة على انقلابات واسعة، وأن خير ما يصنعه في تلك الحقبة من الثورة، أن يتجنب الظهور وأن يمتنع عن كل نشاط. فاختفى عن الأنظار، ومضت ثلاثة أعوام لم يسمع فيها أحد في فرنسا باسم جوزيف فوشيه!

الوزير! «١٧٩٩ - ١٨٠٢»

إن الرجل الذي يمتاز عن سواه بالفكر الراجح، يحتاج، من وقت إلى آخر، إلى عزلة يخلو فيها إلى نفسه، ويرسم خطة العمل للمستقبل. وهذا ما صنعه فوشيه بعد فوزه على روبسبيير.

غير أن العزلة التي لجأ إليها فوشيه لم يكن فيها ما يرضى نفسه التواقة إلى السلطة، وتلك العزلة هي الفاقة والفقر، فقد قضي فوشيه ثلاثة أعوام بعيداً عن الناس، لأنه كان يخشى الناس، ولم تكن حالته المادية تمكنه من الإنفاق على نفسه وعلى زوجه والطفلين اللذين أنجبهما بعد وفاة ابنته الأولى. فقد أقام في حجرة حقيرة، فوق سطح منزل في حي من أحياء باريس القديمة، ولم يكن يعرف في يومه من أين يجيء بثمن القوت لغده. فقد

أضاع هذا الرجل كل شيء.. خرج من ندوة النواب فانقطع عنه راتبها، وحدثت ثورة في جزيرة سان دومنجو فقد فيها الثروة الصغيرة التي ورثها عن أسرته وأما المال الذي أخذه من زوجه، فقد أنفقه للوصول إلى المناصب التي شغلها من قبل. لقد غدا جوزيف فوشيه معدماً لا يملك شيئاً. وابتعد عنه أصدقاؤه لأنهم لم يعودوا في حاجة إليه، بل أصبح هو في حاجة إليهم. وعلى هذه الحال، رآه أحد رفاقه السابقين. باراس الذي تآمر معه على قتل روبسبيير.

وكان باراس يتقدم في مدارج السياسة ويعمل لارتقاء أعلى المناصب. ولم يكن ذلك الرجل يجهل المزايا الكامنة في شخص فوشيه، فأراد أن يستخدمه لأغراضه، واتخذ منه جاسوساً ينقل إليه الأخبار ويسقط أنباء خصومه. وعندما أصبح باراس رئيس مجلس «الديركتوار» كان فوشيه قد جمع مبلغاً من المال كافياً للعودة إلى الحياة العامة، وكان خصومه القدماء قد اختفوا من الميدان.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة، مرحلة السعي للحصول على الثروة، أيا كانت الطريق والأساليب المؤدية إليها. ولم يكن باراس من الأشخاص الذين يدعون لضمائرهم سلطة على أعمالهم، فهو أيضاً يحب المال ويريد الوصول إلى الثروة. فاتفقت أغراض الرجلين، باراس وفوشيه، وما مضت أعوام قلال حتى كان فوشيه قد شارك طائفة من التجار والسماسرة والعملاء الذي يتاجرون بالأسلحة ويوردون المؤن للجيوش المحاربة، ووضع باراس نفوذه في خدمتهم، وخرج الاثنان من هذه الصفقات بمبالغ هائلة من المال، وأصبح فوشيه غنياً بعد أن كان فقيراً !

وفي سنة ١٧٩٨، عينه باراس ممثلاً لفرنسا في هولندا، تم استدعاؤه ليشغل منصب وزير البوليس في وزارة الجمهورية بباريس !

فوشيه وزير !... إن هذا النبأ جعل العاصمة الفرنسية ترتعد خوفاً من فوشيه، الرجل الذي أغرق ليون بالدم، وأحرق الكنائس، ودمر البيوت ! ولكنهم دهشوا عندما رأوه، بعد أن أصبح وزيراً، يسلك مسلكاً كله اتزان وتعقل. وكان أول عمل أقدم عليه، إغلاق نادي اليعقوبيين الذي كان رئيسه في وقت من الأوقات !

وبعد ثلاثة أشهر قضاها في وزارة البوليس، أصبح فوشيه الرقيب الوحيد على أعمال

الوزراء والموظفين، حتى قال عنه الوزير تاليران فيما بعد : « أن هذا الرجل يتدخل فيما يعنيه، ثم فيما لا يعنيه ».

وإلى فوشيه يعود الفضل في إنشاء أول وزارة للبوليس في العالم، نهجت الوزارات الأخرى على نهجها في مختلف البلدان. ومعظم الأنظمة واللوائح التي ما تزال إلى أيامنا هذه نافذة في دوائر البوليس وإدارات الأمن العام ووزارات الدعاية والبوليس، يرجع الفضل في وضعها إلى جوزيف فوشيه. فقد ابتكر هذا الرجل، في وزارته، نظاماً للإدارة وجلب الأخبار والمعلومات وحفظها والعودة إليها، يعد فريداً في نوعه. ولكنه وضعه بحيث إذا انقطع الخيط، أو إذا اختفت اليد التي تحركه - أي يد فوشيه - فإن النظام كله ينهار !

إن جوزيف فوشيه في استطاعته أن يقدم للحكومة أو لرئيسها أي نوع من أنواع المعلومات المرغوب فيها، ولكنه لا يفعل.. لأنه أنشأ ذلك النظام لخدمة نفسه، وأغراضه، لا لخدمة باراس، أو الديركتوار، أو نابليون فيما بعد. فهو لا يخرج من أدراج مكاتبه غير الورقة أو الوثيقة التي يريد إخراجها. أما الباقي، فإنه يحتفظ به لنفسه، فقد يحتاج إليه !

إن بقاء فوشيه بضعة أشهر في وزارة البوليس جعله أوسع الناس اطلاعاً على الحالة في البلاد، ودقائقها، وعلى أخبار الناس الخاصة والعامة. ورجل هذا شأنه، ينظر إليه الغير بخوف ووجل، ويخطبون وده. وهذا ما حدث.. فإن فوشيه، الذي كان الناس يتحاشونه عندما كان فقيراً، أصبح الآن موضع العناية والاحترام والخوف، بعد أن خرج من بؤرة الفقر إلى ذروة السلطة والجاه والثروة !

وعندما كان الجنرال بونابرت في مصر، كان فوشيه مطلعاً بوساطة جواسيسه على أعمال القائد الطموح وأفكاره. وكان يعلم أنه عازم على العودة إلى فرنسا، ولكنه كتم الخبر عن أعضاء الديركتوار وزملائه الوزراء، لأنه تنبأ بأن بونابرت هو رجل المستقبل وسيد فرنسا في الغد. ولما وصل بونابرت فجأة إلى ساحل فرنسا عائداً من مصر، لم يسرع فوشيه إلى القبض عليه، كما كان يريد زملاؤه، بل مهد له سبيل الوصول إلى العاصمة، كما مهد له فيما بعد سبيل ارتقاء مدارج السلطة، فبقي وزيراً بجانبه !

تآمر نابليون مع فريق من قواد الجيش لقلب الحكومة وإعلان نظام جديد واختيار ثلاثة « قناصل » يحكمون البلاد كما كان القناصل الرومانيون يحكمون روما قديماً.

واشترك فوشيه في المؤامرة ضد الحكومة التي كان ما يزال عضواً فيها، لأنه أدرك أن المؤامرة سيكتب لها النجاح. وهو بفطرته لا يرتبط بعهد أو وعد، إلا إذا كان ذلك في صالحه.

وكانت الضحية الأولى، عند نجاح مؤامرة بونابرت، صديق فوشيه وولي نعمته من قبل.. باراس ! فإن وزير البوليس لم يتردد لحظة واحدة في خيانة صديقه، كما أن بونابرت نفسه كان مديناً لباراس بجانب من نجاحه وفوزه، عندما كان فقيراً معدماً كفوشيه شريكه في المؤامرة.

وقد قال باراس، أمام خيانة الصديقين له : « إنني أجد عزاء كبيراً في بقاء فوشيه بجانب بونابرت. فسوف يجيء يوم يثأر لي أحدهما من الآخر. لأن فوشيه سيخون بونابرت كما خانني ! » وقد تحققت هذه النبوءة.

ربط فوشيه نفسه إذن إلى عجلة نابليون، الذي بدأ نجمه في الصعود، فظل وزيراً في عهد « القنصل الأول » بونابرت واحتفظ بوزارته في عهد الإمبراطور نابليون الأول !

وزير الإمبراطور « ١٨٠٤ - ١٨١١ »

لم يكن في وسع فوشيه أن يظل بعيداً عن المشاحنات التي قامت في وقت من الأوقات بين بونابرت وزوجه الأول جوزفين، وبينه وبين إخوته أو بين لفيف من رفاقه القدماء. وأدرك نابليون، في عهد «القنصلية » أن سلطة فوشيه تتسع وتمتد إلى مختلف النواحي، فأراد أن يبعده مدة من الزمن عن الوزارة.. فبعد أن عينه عضواً في مجلس الشيوخ، طلب إليه أن يعتزل منصبه كوزير ويأخذ نصيبه من الراحة !

وابتعد فوشيه وهو يعلم أنه سيعود قريباً إلى منصبه. ولكنه في هذه المرة لم يسكن في حجرة حقيرة مجردة من الأثاث، بل ابتاع داراً جميلة فاخرة الرياش، أقام فيها، وأحاط نفسه بجميع أسباب الراحة والترف، ثم انصرف بكليته إلى البحث عن صفقات مالية وتجارية بغية مضاعفة ثروته. وكانت كل وسيلة، وكل طريق، يعد في نظرة مشروعاً، إذا كان يؤدي إلى كسب المال.

جمع الرجل ثروة طائلة تعد بالملايين. ولكنه لم ينزلق إلى ما ينزلق إليها عادة الأغنياء المترفون.. فظل لا يدخن، ولا يشرب الخمر، ولا يجلس إلى مناضد الميسر، ولا يعمد

إلى السهر واللهو والغناء والرقص..

وبالرغم من اعتزال فوشيه منصب الوزارة، فإنه لم يخلد إلى الهدوء ولم يضع حداً لنشاطه. بل واصل العمل في السر والخفاء، في انتظار اليوم الذي يعود فيه إلى الحياة العامة. وجاء ذلك اليوم لأن فوشيه نفسه أراده أن يجيء، وهو الذي اختاره. فإنه لم يضيع الوقت سدى وهو في عزلته، بل حاك خيوط مؤامرة جديدة. مع فريق من أعضاء مجلس الشيوخ، لا لقلب الحكم، بل لتعديل نظامه بحيث يصبح نابليون بونابرت « قنصلاً مدى الحياة » أو بعبارة أخرى، أشبه بملك يجلس على العرش بغير أن يحمل اللقب. وكان هذا في عرف فوشيه توطئة لإعادة الملكية لحساب نابليون، لأنه كان يشعر ويعلم أنه سيكون هو صاحب السلطة النافذة... وراء الستار !

ونجحت المساعي التي بذلها فوشيه لهذا الغرض، وانتخب نابليون قنصلاً مدى الحياة، ودفنت الجمهورية بيد الرجل الذي كان من قبل أشد أنصارها تحمساً، والذي اقترع لإعدام الملك لويس السادس عشر، وأغرق مدن فرنسا في دماء الملكيين !

وأعاده نابليون إلى منصبه كوزير للبوليس ! وتتابعت مراحل المؤامرة، فانتخب نابليون إمبراطورًا، وظل فوشيه بجانبه وزيرًا للبوليس.

وبقى الرجلان مرتبطين ارتباطاً وثيقاً، مدة عشرة أعوام، الإمبراطور يحتل المكان الأعلى والمنصب الأسمى، ويظهر أمام العالم في ذلك المظهر الرائع الذي دونه التاريخ، وفوشيه لا يظهر أبداً، ولا يخرج من عزلته وراء الستار، ولكنه يدير سياسة فرنسا على هواه، وينفذ إرادته باعتبار أنها إرادة الإمبراطور.

قلنا: أنهما ظلا مرتبطين بروابط وثيقة، لأن مصير أحدهما كان معلقاً بمصير الآخر. ولكن نابليون كان يكره فوشيه. وفوشيه كان يكره نابليون. وكان كل من الرجلين يشعر بأنه في حاجة إلى الآخر.. نابليون لاتقاء شر أعدائه وخصومه، ومعرفة ما يدور في الخفاء، وفوشيه للبقاء في منصبه، ومواصلة دسائسه، وزيادة ثروته، والتلذذ بتنفيذ إرادته الخفية والتحكم في الناس بغير أن يراه أحد !

وكثيراً ما كان نابليون يغضب ويوجه إلى فوشيه عبارات قاسية جارحة. ولكن فوشيه كان يتقبل كل ذلك بهدوء. وكان يعطي الإمبراطور، من معلوماته، بقدر ما يريد أن يعطيه

فقط، لا بقدر ما يريد الإمبراطور أن يأخذ. وامتدت عيون جواسيسه إلى الأسرة المالكة، فكان يطلع يوماً فيوماً على كل ما يحدث في القصر وفي بيت كل من أقارب الإمبراطور. فهذا الرجل الغامض، المتكتم، كان يشعر بلذة حقيقية في الاطلاع على أسرار الناس والاحتفاظ بها في قراره نفسه. بل إن تلك كانت لذته الوحيدة في الحياة. وهو من هذا القبيل نموذج فريد بين الناس !

رفع نابليون نفسه إلى العرش بفضل الانتصارات التي أحرزها في ميادين الحرب. فكان لابد له من مواصلة الحرب لإحراز انتصارات أخرى، تضاف إلى انتصاراته السابقة، وتدعم مركزه. هذا ما كان يعتقده ذلك القائد العظيم. ولكن الشعب الفرنسي كان يتوق إلى السلم والراحة والتمتع بنعيم الحياة. وهذا أيضاً ما كان يراه بعض أعوان نابليون من الوزراء وحتى من القواد. وهذا التفاوت في الرأي جعل الأعداء يتقاربون ويتفاهمون. فإن تاليران، الوزير الداهية، كان يرى هذا الرأي أيضاً، كما يراه فوشيه من ناحيته، فلا غرابة أذن في أن يتفاهم هذان الرجلان بعد أن كانا على خلاف دائم في الرأي. فإن تاليران وفوشيه هما أبعد الوزراء نظراً وإدراكاً، وأوفرهم ذكاء. ووجوه الشبه كثيرة بينهما وعلى الخصوص من حيث التجرد من الضمير والخلق الكريم ! فكانت الغاية في نظر الرجلين تبرر الواسطة ! هذان هما الرجلان اللذان رأيا أن استمرار نابليون في حروبه سيجر على فرنسا الوبال.

وتواطأ الوزيران لوضع حد لهذه الحال، وعلم نابليون بما حدث، وكان في إسبانيا، فعاد إلى باريس مسرعاً، خوفاً من قيام مؤامرة ضده، يديرها الرجلان الخطران. وكانت النتيجة عجيبة.. فقد أخرج تاليران من الوزارة، ولكن فوشيه بقي فيها، وذلك بفضل ما أبداه أمام الإمبراطور من رياء ونفاق.

وفي عام ١٨٠٩، أنعم نابليون على فوشيه بلقب « دوق أوترانت» وجعل شارة الدوقية أسطوانة من الذهب التفت عليها حية ! فما أقرب هذه الشارة من أخلاق فوشيه : الذهب، والحية !

الصراع بين فوشيه والإمبراطور « ١٨١٠ »

عندما يتولى عظيم من العظماء العباقرة أمر دولة من الدول، لا يبقى للأشخاص

الذين يحيطون به غير الاختيار بين حالتين : فإما أن يخنقوا في نفوسهم كل رغبة في مزاحمته فيصبحوا له عبيداً، وأما أن يزاحموه فيصبحوا خصومه. وهذا الذي حدث في عهد نابليون، حدث مثله من قبل ومن بعد. وفوشيه أحد الذين أرادوا أن يوسعوا سلطتهم يوماً بعد يوم، فلا يستغرب إذن أن يصبح هذا الرجل في النهاية خصماً لنابليون.

كانت سلطة فوشيه واسعة إلى حد لا يتصوره العقل. فالوظيفة التي كان هذا الرجل يشغلها، جعلته في وقت من الأوقات يتحكم بمصائر الأفراد في داخل فرنسا، وبمقدرات الشعوب في خارجها. وكأننا به وقد أراد أن يثبت للملأ أن في استطاعة رجل غير نابليون أن يحكم العالم في الوقت الذي يحكمه فيه نابليون أيضاً !..

وكثيراً ما دبر فوشيه عملاً سياسياً في الخفاء بغير أن يطلع نابليون عليه، حتى إذا ما تم ذلك العمل ونجح فوشيه في تبريره، وجد نابليون نفسه أمام الأمر الواقع واضطر إلى القبول. ونسوق هنا مثلاً واحداً : فقد دار في خلد فوشيه ذات يوم أن يمهد السبيل لعقد صلح دائم بين فرنسا وإنجلترا، عدوتها اللدودة في ذلك الوقت. فدخل مع الحكومة البريطانية في محادثات طويلة دقيقة، بوساطة أشخاص غير فرنسيين، وبغير علم الإمبراطور، وقد خيل للحكومة البريطانية أنها تفاوض نابليون، بينما لم تكن تفاوض غير فوشيه. وكان الغرض الذي يهدف إليه فوشيه هو الوصول إلى اتفاق مع إنجلترا، يعلنه فيما بعد، ويحمل الإمبراطور على قبوله، فيعلم الفرنسيون أن فوشيه قد أتاهم بالسلم الذي ينشدونه. ولكن الحيلة لم تسفر عن نتيجة يرضى بها فوشيه، بل أسفرت عن نتيجة عكسية. فقد علم نابليون بما حدث، فغضب غضباً شديداً، وطرد فوشيه من منصبه، وأحل محله سافاري، دوق روفيجو، في وزارة البوليس.

طرد الإمبراطور فوشيه من الوزارة، ولكنه تدارك الأمر ولم يرغب في أن يتحول الوزير الخطير إلى عدو. فظل يلاطفه ويقربه إليه. ولم يقس عليه، خوفاً من أن يكشف الرجل القناع عن وجهه، ويفشي بالأسرار الكثيرة التي يعرفها.

ومما صنعه فوشيه، في ذلك الظرف الدقيق من حياته، أنه أخفى طائفة من الملفات والوثائق التي كانت في وزارة البوليس، وبعثر بعضها، ولم يترك لخلفه المسكين وسيلة واحدة من وسائل النجاح في مهمته. فقد وجد الرجل نفسه في وزارة لا يفهم من أعمالها

شيئاً، أضف إلى ذلك أنه وجد مصالحها خالية من أوراقها، مضطربة النظام، لأن فوشيه، قبل رحيله عنها، قطع ذلك الخيط الذي كان بيده، والذي كان يتصل بجميع تلك المصالح ويحرك القائمين عليها. إن وزارة البوليس الفرنسية لم يكن في استطاعة أحد أن يديرها غير فوشيه، لأن فوشيه أنشأها لنفسه لا لفرنسا ولا لغيره من الوزراء !

وترك فوشيه خلفه حائراً، وذهب إلى قصره، للإقامة فيه بضعة أيام، قبل سفره إلى روما لاستلام المنصب الذي عينه في الإمبراطور : منصب سفير فرنسا في مدينة البابوات !

ولكن سافاري رفع الأمر إلى نابليون، وشكا إليه خلو الوزارة من أوراقها وملفاتها ووثائقها، فأرسل الإمبراطور أمراً إلى فوشيه بأن يسلم إلى الوزير الجديد كل محتويات الوزارة كما كانت في عهده.

دخلت المسألة في دور جدي، وبدأ الصراع بين فوشيه والإمبراطور، فقد عزم الرجل على المقاومة إلى النهاية، مهما تكن العواقب في هذه المرة. ورد على دعوة الإمبراطور بأنه لا يحتفظ بشيء من محتويات وزارته السابقة، وأن الأوراق التي سحبت منها هي أوراق يعدها فوشيه « خاصة به » وقد أحرقها لأنها تتعلق بلفيف من إخوة الإمبراطور وأقاربه، ولا يليق أن تقع في يد أحد بعد أن ترك هو الوزارة !

ولكن الإمبراطور لم يقتنع بهذا الرد. وكرر أمره إلى فوشيه بوجوب تسليم وزارته كاملة. وهدده بالاقتصاص منه، وأرسل مدير البوليس لختم داره وإدراجه بالشمع الأحمر. وشعر فوشيه للمرة الأولى في حياته بأنه لن يقوى على الخروج ظافراً من هذه الورطة التي أرادها لنفسه والتي جاءت نتيجة لتحديه الإمبراطور القوي العنيد.

شعر فوشيه بأنه هالك لا محالة، فقرر أن يهرب من فرنسا، وهرب منها فعلاً، فذهب إلى إيطاليا، وانهارت أعصابه دفعة واحدة، فأصبح كالفأر المطارد، الهارب أمام سرب من القطط.

وقد أنقذته زوجه من هذا المأزق الحرج، لأنها أعادت الأوراق المسروقة إلى الإمبراطور، على شرط أن يعفو عن زوجها، ففعل نابليون ما طلبته منه الزوجة. أما الأوراق، فقد أعدمت في عهد نابليون الأول أو في عهد نابليون الثاني، مع جميع الوثائق والوسائل التي لم تكن لتتفق مع التاريخ الرسمي للإمبراطورية الفرنسية !

وأما فوشيه، فقد تلقى أمراً من الإمبراطور بالعودة إلى فرنسا، وتركت له الحرية التامة بأن يقيم حيث يريد، فأقام في قصره في مدينة أيكس. وبعد أن استرجع نابليون منه تلك الوثائق التي كان معظمها متعلقة بإخوته وأقاربه، عاد إلى معاملته بالحسنى خوفاً من مؤامرته وإفشاء أسراره التي كان فوشيه يعرف الكثير منها !

الاستراحة « ١٨١٠ - ١٨١٥ »

اعتزل فوشيه الحياة العامة ثلاث مرات : الأولى بعد عهد روبسبيير، والثانية عندما هرب إلى إيطاليا في عهد نابليون، والثالثة بعد عودته منها عندما أقام في قصره بمدينة أيكس.

إنه في الثانية والخمسين من العمر، ويملك ثروة طائلة تقدر بالملايين، وأملاكاً شاسعة، وقصوراً وعمارات، ويحمل لقب دوق دوترانت، والناس جميعاً يخشونه وإن كانوا لا يحبونه.

وانصرف الرجال إلى العناية بأملاكه، ولكنه ظل على اتصال بالأوساط السياسية والدوائر الحكومية بوساطة جواسيسه العديدين... فإن رجلاً كفوشيه لا يمكنه أن يركن إلى الهدوء التام والراحة الكاملة. وظن أن نابليون سيدعوه مرة أخرى لتولي منصبه في باريس. غير أن الإمبراطور لم يفعل لأنه لم يكن في حاجة إليه. فهو في أوج سلطانه ومجده، وأوربا بأسرها خاضعة له.

ومرت الأيام وفوشيه في عزلته، إلى أن أصيب الإمبراطور بسلسلة من الهزائم بعد غزو روسيا، فعاد من موسكو على رأس جيش ممزق، وجعل يجمع شمل رجاله استعداداً للصمود أمام الغزو الأجنبي، وراح يفكر في كل كبيرة وصغيرة، وفي تأمين الحالة في باريس بحيث لا يغتنم الفرصة أحد من الناقمين عليه ويقدم على التآمر لإسقاطه أو لإحداث ثورة.

وفكر في فوشيه !

ألا يجمل به أن يبعد هذا الرجل عن باريس في تلك الظروف ؟ إنه يعرف أن فوشيه حقود لا ينسى الإساءة. فخير لنابليون أن يكون هذا الرجل بالقرب منه، خارج فرنسا،

من أن يكون بعيداً عنه في باريس، وهو بعيد عن باريس !

لم تكن هناك وظيفة خالية، فابتكر نابليون لفوشيه وظيفة يشغلها، وعينه حاكماً لدولة بروسيا، قبل الإقدام على غزو هذه الدولة !

وقبل أن يذهب فوشيه إلى مدينة دريد، توطئة لاستلام منصبه، أصيب الجنرال جونو، حاكم أيليريا بإيطاليا، بالجنون، فعدل نابليون عن رأيه الأول، وأرسل فوشيه إلى أيليريا، خلفاً لجونو المجنون.

غير أن فوشيه لم يمكث طويلاً في تلك الولاية، فإن الهزائم توالت على نابليون، وكانت أيليريا إحدى الممتلكات الفرنسية التي دخلها الأعداء، فرحل عنها فوشيه، ولكنه حمل معه الكنوز والتحف والأوراق، ولم يترك شيئاً من ذلك نهباً للغير !

وعندما وصل إلى حدود فرنسا، عائداً من إيطاليا، علم بما حل بنابليون، وأن جيوش الحلفاء تتقدم نحو فرنسا، وأن عرش الإمبراطور مهدد بالانهيار.

وفي مدينة ليون - التي أحرقها إبان الثورة - علم بأن باريس سقطت، وأن نابليون هرب، وأن لويس الثامن عشر عاد إلى عاصمة ملكه، وأن تاليران، زميله وصنوه في الخيانة سبقه إلى الانضمام إلى الهيئة الحاكمة الجديدة !

حاول أن يفعل مثله ففشل. وقبع في داره ينتظر الحوادث. وكان لويس الثامن عشر يرتكب الخطأ بعد الخطأ، وأدرك فوشيه أن انقلاباً آخر سيتبع هذا الانقلاب الهزيل...

ولم ينتظر طويلاً...

ففي يوم ٥ من مارس عام ١٨١٥، علم الناس بأن نابليون عاد من جزيرة ألبا، ونزل على الشاطئ وزحف على باريس...

وفكر الملك في وسائل الحماية، ورأى أن يستغل مواهب الأشخاص الذين حوله، فدعا فوشيه وعينه وزيراً في حكومته.

فوشيه، الجمهوري السابق، الثائر، أحد الذين حكموا على الملك لويس السادس عشر بالإعدام، يختاره لويس الثامن عشر، أخو الملك الشهيد، وزيراً في حكومته ! إن

سخرية القدر لا تعرف حدوداً !...

لكن فوشيه ليس بالرجل الذي تخدعه المظاهر، فإن قبول منصب الوزارة، من ملك لا يقوى على الاحتفاظ بعرشه، عمل يعد في نظر ذلك الثعلب عملاً جنونياً خالياً من الحكمة.

رفض فوشيه المنصب.. فأصدر الملك أمره إلى مدير البوليس بالقبض على الرجل الذي لم يصدع لإرادته ويقبل الوزارة. ولكن فوشيه تمكن من الإفلات من يد البوليس، وهرب من منزله قبل القبض عليه !

الصراع الأخير : « ١٨١٥ »

في ١٩ من مارس عام ١٨١٥، عاد الإمبراطور إلى باريس. وفر منها لويس الثامن عشر. ودخل نابليون قصر تويلري حيث كان أنصاره ينتظرونه للترحيب به. فألقى نظره حواليه، ولكنه لم يجد بينهم النخبة الممتازة من أولئك الرجال الذين عاونوه في إخضاع أوربا وبسط سلطانه عليها. فالذين ظلوا على ولائهم له ليسوا كبار القواد ولا كبار الساسة.

كانت خيبة أمل لنابليون. ولكنه ابتسم عندما وقع نظره على فوشيه.. إن هذا الرجل هو الوحيد الذي يمكن الانتقام به في هذه الظروف، وإن لم يكن أهلاً للمحبة والثقة.

وقرر نابليون أن يعيد فوشيه - للمرة الثالثة - إلى وزارة البوليس. فقبلها فوشيه ولكن بدون حماسة لأنه كان ينتظر ويأمل أكثر من هذا، فإن جميع الذين كان نابليون يعتمد عليهم في الشدائد قد انفرطوا من حوله، فانضم فريق منهم إلى خصومه، وبقي الفريق الآخر بعيداً عن العاصمة، يرقب تطور الحوادث. والوحيد الذي جاء إلى الإمبراطور ووضع نفسه تحت تصرفه هو فوشيه.

لكن نابليون يخشاه ولا يحبه. وهو يستخدمه لأنه يشعر بحاجته إليه. وفوشيه من ناحيته لا يحب نابليون، ولكنه يخدمه لأن في خدمة الإمبراطور تحقيقاً لأغراضه هو وإشباعاً لميله إلى السلطة.

غير أن الظروف تبدلت. فنابليون لم يعد ذلك الرجل القابض على مصير العالم،

وفوشيه لم يعد ذلك الرجل الذي يرضى بوزارة البوليس !

وفي هذه المرة، لم يكن في حاجة إلى نابليون إلا لكي يستند عليه لاجتياز المرحلة الأخيرة من مراحل حياته العملية، التي كان يحلم بها، وهي أن يفرض على أوربا نظاماً جديداً يكون هو واضعه ومنفذه. أو بعبارة أخرى، أن فوشيه أدرك أن نابليون قد انتهى، وأن بقاءه في فرنسا لن يطول، وأنه هو الرجل الوحيد، في حاشية الإمبراطور، الذي يمكنه أن يدير دفة الحكم على هواه، ويفاوض خصوم الإمبراطور سراً، سواء في فرنسا أم في خارجها، ويعقد معهم الاتفاق المنشود لتقرير المستقبل.

وهذا ما صنعه، وهذا ما أدركه خصوم نابليون أيضاً، ففي الداخل وفي الخارج، جعل أولئك الخصوم يفاوضون فوشيه ولا يحسبون حساباً لسيده الإمبراطور.

دامت تلك المرحلة الأخيرة من مراحل العهد الإمبراطوري مائة يوم، كان فوشيه في خلالها دائم النشاط. ووضع الرجل خطة العمل وراح ينفذها بدقة. وكانت هذه الخطة ترمي إلى أحد هدفين : إما إبقاء النظام الإمبراطوري في فرنسا إذا انتصر نابليون في المعارك الأخيرة، وإما إعادة الملكية إليها في حالة انهزام الإمبراطور في تلك المعارك.

ولم يكن ضمير فوشيه ليؤنبه على استعداد لخيانة هذا أو ذاك من الطامعين في الحكم. فهو مع الإمبراطور إذا انتصر، وهو مع الملك إذا انهزم الإمبراطور.

وانهزم الإمبراطور فعلاً في معركة واترلو. وقال فوشيه فيما بعد : « يدعون أنني خنت نابليون. كلا.. فأنا لم أخن نابليون، وإنما الذي خانه انهزامه في واترلو !. ».

وفي تلك الحقبة القصيرة من تاريخ فرنسا، لعب الداهية فوشيه لعبة تعد من أبرع المناورات السياسية التي قام بها رجل على الإطلاق. فقد استطاع بدهائه ومكره، أن يحمل نواب الأمة على انتخابه رئيساً لمجلس النواب، وأصبح سيد فرنسا الأوحد، ولم يعد نابليون بالنسبة إليه صاحب سلطة حقيقية.

وسقط نابليون واضطر مرة ثانية إلى الهرب ثم سلم نفسه للإنجليز.. وبقي فوشيه في منصبه.

وحاول أنصار الإمبراطور المناداة بابنه دوق ريشتاد - النسر الصغير - إمبراطور

مكانه، فجاراهم فوشيه ثم خذلهم لما تبين له أن بقاء أسرة بونابرت على العرش أمر مستحيل.

وانضم الرجل مرة أخرى إلى الملكيين، وعندما دخل لويس الثامن عشر إلى باريس، للمرة الثانية، تسلم سلطته من فوشيه، قاتل أخيه !. لقد انتهت «الأيام المائة» وعاد الملك ثانية، وانقلب فوشيه ملكياً مع الملكيين !

السقوط والنهاية « ١٨١٥ - ١٨٢٠ »

أراد فوشيه أن يتزوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى. وفي عام ١٨١٥، شهدت باريس حفلة عجيبة.. حفلة زواج فوشيه بفتاة من أسرة كريمة. فأمام الهيكل، في الكنيسة، وقف ذلك الرجل الذي هدم الكنائس وأحرقها، وقتل الرهبان والكهنة، وشرد النبلاء، والأشراف، وحطم الصلبان وألغى مراسم الدين.. وقف فوشيه ليتلقى البركة من يد الكاهن، بمناسبة زواجه، وكان بين الشهود الذين وقعوا وثيقة الزواج، الملك لويس الثامن عشر، شقيق لويس السادس عشر، الذي أعدمه فوشيه !

لكن حاشية الملك الجديد تضمر له الشر، ولن يهدأ له بال قبل أن يقضى على ذلك الرجل المتقلب، الذي خدع الجميع وتحكم في الجميع. وهذا ما حدث.. فقد تآمر عليه الأشراف والنبلاء، وكان من بينهم الرجل الوحيد الذي كان فوشيه يخشاه ، تاليران ، الذي انضم مثله إلى الملك لويس الثامن عشر وأصبح وزيره النافذ الكلمة.

في هذه المرة، لم يستطع فوشيه التغلب على الصعاب التي قامت في طريقه، فاضطر إلى الانسحاب. وبعد أن طاف أنحاء أوربا، ذهب إلى ميناء تريستا، بإذن من الوزير النمساوي مترنيخ، وقرر الإقامة في تلك المدينة، والتمتع بالثروة الكبيرة التي جمعها، وكان ذلك في سنة ١٨١٩.

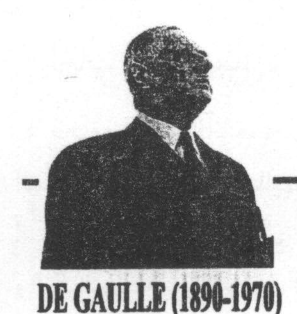
وفي ٢٦ ديسمبر عام ١٨٢٠، مات فوشيه في تريستا، ودفن فيها، منسياً، مهملاً.

لم يكترث أحد في فرنسا بموت ذلك الرجل الذي ارتعد العظماء أمامه مدة ٢٥ سنة. ولكن، في عام ١٨٢٤، عادت المخاوف تختلج في النفوس.. فقد أعلن أحد أصحاب المكاتب بمدينة براج أنه حصل على «مذكرات» فوشيه وعزم على إذاعتها.

مذكرات فوشيه ! إنها مليئة بالأسرار، فإن الرجل كان يعرف كل شيء، ويعرف على الخصوص أشياء يجهلها الناس كلهم ! غير أن المذكرات التي نشرت في براج لم تكن من الخطر بمكان. فإن فوشيه آثر الصمت بعد موته، كما لزم الصمت في حياته. وحمل هذا الرجل العجيب معه إلى القبر تلك الأسرار الهائلة التي كان يعرفها. لقد دفنها في صدره، ودفن هو معها في القبر.

تصور هذه القصة حقبة من الزمن في تاريخ فرنسا الزاخر بالمؤامرات الدنيئة والأعمال الدامية الرهيبة ، قصدت أن أقدمها هنا ضمن صفحات هذه المذكرات ، كي تعرف أيها القارئ العزيز .. كيف كان العالم يسير ؟... وكيف كانت فرنسا تعيش ؟... فرنسا التي أنجبتني وأخرجتني من بطنها ، كما أنجبت نابليون وفوشيه وتاليران وغيرهم من العظماء والسفهاء .





الفصل الخامس عشر

لقاء ديجول والملك فيصل بن عبد العزيز

روى الدكتور معروف الدواليبي يرحمه الله هذا اللقاء الهام بين الجنرال شارل ديجول والملك فيصل بن عبد العزيز يرحمه الله قبيل حرب حزيران حيث جلسا مع رئيس وزرائه السيد جورج بومبيدو وبدأ الاجتماع بين الرجلين فيصل وديجول ومترجم :

قال ديجول : يتحدث الناس أنكم يا جلالة الملك تريدون أن تقذفوا بإسرائيل إلى البحر وإسرائيل هذه أصبحت أمراً واقعاً ولا يقبل أحد في العالم رفع هذا الأمر الواقع ..

أجاب الملك فيصل :

يا فخامة الرئيس أنا أستغرب كلامك هذا حيث إن هتلر احتل باريس وأصبح احتلاله أمراً واقعاً وكل فرنسا استسلمت إلا (أنت) انسحبت مع الجيش الإنجليزي وبقيت تعمل لمقاومة الأمر الواقع حتى تغلبت عليه فلا أنت رضخت للأمر الواقع ، ولا شعبك رضخ ..... فأنا أستغرب منك الآن أن تطلب مني أن أرضى بالأمر الواقع !!!

والويل يا فخامة الرئيس للضعيف إذا احتله القوي ..... وراح يطالب بالقاعدة الذهبية للجنرال ديجول أن الاحتلال إذا أصبح واقعاً فقد أصبح مشروعاً ....

دهش ديجول من سرعة البديهة والخلاصة المركزة بهذا الشكل

فغير لهجته وقال :

يا جلالة الملك يقول اليهود: إن فلسطين وطنهم الأصلي.

وجدهم الأعلى إسرائيل ولد هناك ...

أجاب الملك فيصل :

فخامة الرئيس أنا معجب بك لأنك متدين مؤمن بدينك وأنت بلا شك تقرأ الكتاب المقدس. أما قرأت أن اليهود جاؤوا من مصر. غزاة فاتحين. حرقوا المدن وقتلوا الرجال والنساء والأطفال. فكيف تقول أن فلسطين بلدهم ، وهي للكنعانيين العرب ، واليهود مستعمرون وأنت تريد أن تعيد الاستعمار الذي حققته إسرائيل منذ أربعة آلاف سنة ؟.

فلماذا لا تعيد استعمار روما لفرنسا الذي كان قبل ثلاثة آلاف سنة فقط !!؟

أنصلح خريطة العالم لمصلحة اليهود ، ولا نصلحها لمصلحة روما !!؟

ونحن العرب أمضينا مائتي سنة في جنوب فرنسا في حين لم يمكث اليهود في فلسطين سوى سبعين سنة ثم نفوا بعدها .....

قال ديجول : ولكنهم يقولون أن أباهم ولد فيها !!!...

أجاب الفيصل :

غريب !. عندك الآن مئة وخمسون سفارة في باريس وأكثر السفراء يلد لهم أطفال في باريس .... فلو صار هؤلاء الأطفال رؤساء دول وجاءوا يطالبونك بحق الولادة في باريس !!

فمسكينة باريس !! لا أدري لمن ستكون !!

سكت ديجول ، وضرب الجرس مستدعياً (بومبيدو) وكان جالساً مع الأمير سلطان ورشاد فرعون في الخارج.

وقال ديجول : الآن فهمت القضية الفلسطينية

أوقفوا السلاح المصدر لإسرائيل ... وكانت إسرائيل يومها تحارب بأسلحة فرنسية وليست أمريكية ..

يقول الدواليبي :

واستقبلنا الملك فيصل في الظهران عند رجوعه من هذه المقابلة

وفي صباح اليوم التالي ونحن في الظهران استدعى الملك فيصل رئيس شركة التابلاين الأمريكية وكنت حاضراً (الكلام للدواليبي) .

وقال له : إن أي نقطة بترول تذهب إلى إسرائيل ستجعلني أقطع البترول عنكم .

ولما علم الملك رحمه الله بعد ذلك أن أمريكا أرسلت مساعدة لإسرائيل قطع عنها البترول .

وقامت المظاهرات في أمريكا ووقف الناس مصطفين أمام محطات الوقود وهتف المتظاهرون : نريد البترول ولا نريد إسرائيل .

وهكذا استطاع هذا الرجل (الملك فيصل يرحمه الله) بنتيجة حديثه مع ديجول وبموقفه البطولي في قطع النفط أن يقلب الموازين كلها .





الفصل السادس عشر

ديجول والحرب

يُعد شارل ديجول، واحداً من أبرز أبطال الحرب العالمية الثانية، شأنه في ذلك شأن ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا، وفرانكلين روزفلت، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وجوزيف ستالين، رئيس الاتحاد السوفيتي، وهم الأبطال الذين أحرزوا الانتصار للحلفاء (بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية)، على دول المحور (ألمانيا، وإيطاليا، واليابان) في الحرب العالمية الثانية.

وقد ضرب شارل ديجول المثل في التحدي وإرادة الصمود، رغم كل ما حاق ببلاده، فرنسا، على أيدي الألمان، واستسلام الحكومة الفرنسية الكامل؛ فقد فرّ ديجول إلى لندن، وهناك أقام حكومة في المنفى، وواصل الكفاح والمقاومة بمساعدة الحلفاء، إلى أن تمكن من تحرير فرنسا، والفرح بثمار النصر. وقد تميز ديجول، منذ البداية، بالعناد والإصرار على الصمود، تجلى ذلك منذ لحظة دخول الألمان فرنسا. ففي مارس ١٩٣٩، أرسل هتلر إلى بولندا، يطالب بضم أجزاء من أراضيها إلى ألمانيا، واتبع ذلك بإنذارات إلى الحكومة البولندية، ثم لم يترك لها فرصة الرد، بل أسرع بقيادة الجيوش الألمانية لغزوها، في أول سبتمبر ١٩٣٩. ولما كانت كل من بريطانيا وفرنسا قد سبق أن تعهدتا بالدفاع عن بولندا؛ فقد أعلنتا الحرب على ألمانيا، في ٣ من سبتمبر ١٩٣٩، ولكن دون تحرك جدي؛ فقد كانتا تأملان أن يتمكن الاتحاد السوفيتي من مساعدة بولندا، ولكن خاب أملهما؛ إذ وقَّعت ألمانيا والاتحاد السوفيتي معاهدة عدم اعتداء، واتفقتا سراً على تقسيم بولندا فيما بينهما. واقتصر التحرك الفرنسي على إرسال قوات إلى خط ماجينو،

(وهو حزام من الصلب والقلاع الحصينة شيدته فرنسا، بعد الحرب العالمية الأولى، على طول حدودها مع ألمانيا)، وقابلها هتلر بحشد قوات ألمانية على خط سيجفريد، (وهو الخط الذي كان هتلر قد بناه مقابل خط ماجينو)، ولم يحدث اشتباك بين قوات الطرفين، إلى ١١ من مايو ١٩٤٠، حين انطلقت عشر فرق ألمانية مدرعة، وست فرق آليات في اتجاه الغرب، وراحت تزحف بسرعة، عبر الأراضي البلجيكية، والتفت حول خط ماجينو، وفوقها مظلة من الطائرات الألمانية تحميها، وتسبقها، وتمهد لها السبيل، بإلقاء قنابلها على مواقع الخطوط الخلفية الفرنسية، وتقصف كذلك خطوط السكك الحديدية، والطرق البرية الرئيسية، لتمنع وصول الإمدادات والمؤن إلى القوات الفرنسية، وعبرت سبع فرق ألمانية نهر الأردين، وتمكنت من الوصول إلى نهر «الموز»، خلال ثلاثة أيام. ثم في اليوم التالي ١٤ من مايو ١٩٤٠، واصلت زحفها، فعبرت النهر من جهات ونيانت، وجيفيت، ومونترمي، وسيدان، وحين حاولت الفرقة المدرعة الفرنسية الأولى التصدي للهجوم، في يوم ١٦ من مايو ١٩٤٠، في غربي منطقة تامور، حاصرتها المدرعات الألمانية، وسحقتها تماماً. وسارعت القيادة الفرنسية إلى نقل الفرقة الثانية المدرعة بالقطار إلى هرسون، ولدى وصولها، دمرها الألمان عن آخرها. وحدث الشيء نفسه مع الفرقة الثالثة المدرعة.

في ١٨ مايو ١٩٤٠، وصلت الفرق الألمانية السبع إلى منطقة «سان/ كانتان»، وهناك تصدت لها الفرقة الرابعة المدرعة، وهي الفرقة التي تولى شارل ديجول قيادتها، اعتباراً من ١١ من مايو ١٩٤٠، وصمدت تلك الفرقة أمام الهجوم الألماني، بل كبدت الألمان خسائر كبيرة، وتمكنت من التقدم نحو عشرين ميلاً، ولكنها اضطرت إلى التراجع؛ بسبب القصف المركز، من طائرات الـ «ستوكا» الألمانية.

وفي اليوم التالي ١٩ من مايو ١٩٤٠، تقدمت قوات ديجول مسافة ميل، في هجوم مضاد، ولكنها اضطرت إلى التراجع مرة أخرى. وظلت هذه القوات صامدة أمام القوات الألمانية تسعة أيام أخرى، أي إلى يوم ٢٨ من مايو ١٩٤٠، بل حاولت في ذلك اليوم تدمير رأس الجسر، الذي أقامته القوات الألمانية عبر نهر السوم، عند أبفيل، ولكنها فشلت. وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار باستسلام الجيش البلجيكي، بجميع أسلحته إلى الألمان، وانسحاب الجيش البريطاني من دنكرك، ورغبة قيادة الجيش الفرنسي في

الاستسلام، وكل هذا، إضافة إلى الخسائر الفادحة في الأرواح والعتاد، وعدم وصول إمدادات، فتّ في عضد ديجول وقواته، وجعل اليأس يدب إلى قلوبهم، وكان لابد من الانسحاب.

وبدأ الهجوم الألماني العنيف في ٥ من يونيه ١٩٤٠، وتمكنت القوات الألمانية من عبور نهر السين، من الشمال والجنوب، ومن ثم تمكنت من دخول باريس ، خاصة أن ذلك تواكب مع إعلان إيطاليا الحرب على فرنسا.

أراد بول رينو، رئيس وزراء فرنسا، مواصلة المقاومة والاستمرار في الحرب، لكن كثيراً من كبار رجال القيادة العسكرية أبدوا يأسهم، وأعلنوا ألاّ فائدة من ذلك، فاستقال بول رينو، وتشكلت حكومة فرنسية جديدة، قبلت الاستسلام، وإبرام الهدنة مع ألمانيا في ٢٢ من يونيه ١٩٤٠. وبموجب تلك الهدنة، احتلت ألمانيا ثلثي شمال فرنسا، والشريط الغربي منها، على طول المحيط الأطلسي، ولم يتبق لفرنسا إلا الجنوب، وأصبحت فيشي هي عاصمة هذا الجنوب، وتولى المارشال هنري بيتان، وهو أحد أبطال الحرب العالمية الأولى، رئاسة حكومة فيشي، فأعلن تعاونه الكامل مع الألمان، الذين بادروا في نوفمبر عام ١٩٤٢، إلى احتلال بقية فرنسا كلها.

لم يقبل اللواء شارل ديجول، الذي عُيِّن وكيلاً لوزارة الدفاع، اعتباراً من ٥ من يونيه ١٩٤٠، هذا الوضع، وأبت وطنيته وحبه لفرنسا أن يرضى بالاستسلام للألمان، بعد تلك الهزيمة الساحقة، التي سقط فيها نحو ٩٠ ألف جندي فرنسي قتلى، وسقط نحو ٢٠٠ ألف آخرين جرحى، وبلغ عدد الأسرى والمفقودين نحو مليوني شخص، وسقطت باريس، وسُرِّح الجيش الفرنسي، ولم يبق منه إلا مائة ألف فرد فقط، لا يُسمح لهم باستخدام أي مركبات سوى الخيول والدراجات. ومن ثم، عزم شارل ديجول على تولي إدارة المعركة، من مسرح آخر، فلاذ بالفرار، في إحدى طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني إلى لندن، ومن هناك أدى دوره البارز في الحرب العالمية الثانية، وفي تحرير فرنسا، ليتبوأ منزلة الزعيم الفرنسي الأول في القرن العشرين.

كان شارل ديجول، عسكرياً من الطراز الأول، وكان وطنياً محباً لبلده فرنسا. ولد في ٢٢ من نوفمبر ١٨٩٠، في قرية كولومبي القريبة من مدينة ليل Lille، بفرنسا. نشأ نشأة متدينة؛

فقد كان أبوه ـ أستاذ الفلسفة والأدب في معهد الجزويت - يصحبه دائماً إلى الكاتدرائية القديمة، المبنى الرئيسي في مدينة ليل. بعد أن أتم ديجول تعليمه الجامعي في كلية سان سير Saint-Cyr العسكرية، التحق بالجيش في عام ١٩٠٩، ضمن فوج المشاة الثالث والثلاثين، في أرّاس، تحت إمرة العقيد هنري بيتان، وشارك في الحرب العالمية الأولى، ضابطاً في سلاح المشاة، وأبلى بلاءً حسناً، وجُرح ثلاث مرات، وأُسر في مارس ١٩١٦.

لدى عودته إلى فرنسا في ١١ نوفمبر ١٩١٨، في عمليات تبادل الأسرى، عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩٢١، عمل في هيئة أركان حرب الجنرال فيجان، في بولندا، ثم عاد إلى فرنسا، ليتولى تدريس التاريخ العسكري، في كلية سان سير، حتى اختير لحضور فرقة دراسية في كلية أركان الحرب، ثم صار عضواً في الأمانة العامة للدفاع الوطني، وهي الهيئة الدائمة، التي يعتمدها رئيس الوزراء؛ لوضع الخطط والدراسات الحربية. ثم أُرسل إلى الشرق في جولة؛ لدراسة الأحوال هناك، ثم عاد إلى فرنسا عام ١٩٣٢، ليتولى لأربع سنوات، منصباً رئيسياً في وزارة الدفاع. وطول تلك الفترة،عكف شارل ديجول على متابعة التطورات السياسية والعسكرية في أوربا، وأخذ يدون أفكاره وآراءه في مجموعة من المؤلفات، نشرها خلال الفترة ١٩٢٤ ـ ١٩٤٠، ضمَّنها تحليلات إستراتيجية وعسكرية قيمة متميزة، ومن هذه المؤلفات:

١ . كتابه «الخلاف في صفوف العدو»، نشره عام ١٩٢٤، واستعرض فيه طبيعة العلاقات بين القوى العسكرية والمدنية في ألمانيا.

٢ . وكتابه «حد السيف»، نشره عام ١٩٣٢، وهو عبارة عن مجموعة محاضرات، كان قد ألقاها في جامعة السربون، تبين مفاهيمه وأفكاره،حول موضوع القيادة والتنظيم، وبيَّن أنه ليس من المحتم دائماً على القائد، تنفيذ أوامر القيادة العليا حرفياً، بل عليه في المعركة، أن يتصرف على حسب ظروف المعركة، لتحقيق النصر، بحيث يجعل رجاله، على اختلاف مشاربهم وأفكارهم، يعملون معه كفريق واحد. ثم لا بد أن يتميز بالقدرة على السيطرة على الأحداث والتأثير فيها، وأن يتحمل مسؤولية ما يترتب على أعماله، وألاّ يظهر انفعالاته. ثم انتقل إلى الكلام عن تاريخ فرنسا العسكري، وأسهب في تحليل أهم المعارك، التي خاضتها القوات الفرنسية في مختلف العصور. ودرس أسباب

الهزيمة، وما كان ينبغي فعله لتحويل الهزيمة إلى نصر.

٣. وكتابه «نحو الجيش المحترف»، نشره عام ١٩٣٤، ونادى فيه بوجوب الإسراع في إعداد جيش فرنسي محترف، جاهز للتصدي للمخاطر المستقبلية، يتميز بالحركة السريعة، والقدرة الفائقة على المناورة بالأسلحة الحديثة الفاعلة، خاصة الآليات والمدرعات، على أن يكون هذا الجيش في ظل زعيم محنك، وقائد قوي، ومعه نخبة مختارة من القادة الأكفاء. وتحدث عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة، وهي الطبيعة التي تجعل من السهل غزو فرنسا من الشمال الشرقي، وطبيعة الأرض الألمانية، التي تسهل توجه الأطماع الألمانية إلى الاندفاع جهة الغرب، والوصول إلى باريس عبر بلجيكا، (وهو ما تحقق بالفعل بعد ذلك)، وضرورة أن تكون فرنسا في حالة استعداد دائم، وتأهب مستمر، مع إعداد مقاومة شعبية جاهزة ومدربة.

٤. وكتابه « فرنسا وجيشها »، نشره عام ١٩٣٨. انتقد فيه الجهاز العسكري الإداري بشدة وركز فيه، كما في سائر كتبه، على فكرة واحدة، وهي عظمة فرنسا، وبيَّن أن مصير فرنسا معلق بجيشها، وهو يعاني حالياً من تقصير وإهمال شديدين. كما بيَّن أن فرنسا لا يمكنها أن تصبح دولة عظمى، إلاّ بالقضاء على آفة تعدد الأحزاب، وأن عليها دوراً قيادياً في قارة أوروبا، بسبب وضعها التاريخي. وقد أثار الكتاب موجة عارمة من السخط، وتسبب في أزمة بين ديجول ورؤسائه العسكريين، وأُوقف نشر الكتاب حتى عام ١٩٤٥، حين أُعيد نشره مرة أخرى.

ولقد عبَّر شارل ديجول، في مؤلفاته تلك، عن اعتراضه على أسلوب القيادة الميدانية الثابتة، وطريقة إدارة الحرب، وهاجم فكرة فرنسا في إقامة خط ماجينو، قائلاً:

« إن أي أمة بمقدورها أن تبني خطاً دفاعياً حصيناً تتحطم عليه هجمات أعدائها، ولكنها لا تستطيع أن تجبر عدوها على شن هجومه، عبر هذا الخط؛ فالعدو ليس بالغفلة التي تجعله يفعل هذا. ومن ثم، فإن اعتماد فرنسا على هذا الأسلوب، يعرض سلامتها للخطر، ويحد من فاعلية جيشها ».

وأوضح شارل ديجول أن خط ماجينو محدود العمق، وعيبه الأساسي أنه يترك شمال شرقي فرنسا كله مكشوفاً أمام الأعداء، بما يمكنهم من الالتفاف حوله، (وكان

هذا ما حدث بالفعل في الحرب العالمية الثانية)، فضلاً عن أن هذا الخط تطبيق نموذجي لفكرة الحرب الثابتة، وهي فكرة خاطئة لا تناسب مقتضيات الحرب الحديثة، التي تتسع ميادينها في البر والبحر والجو، والتي تتطلب إستراتيجية جديدة، تعتمد على تنوع مسارح القتال وميادينه، وسرعة الحركة، بما يواكب الاختراعات في أسلحة التدمير الحديثة، من ناحية القوة والمدى، والمفاجأة، والهجوم الخاطف، المعتمد على قوة مدرعات كافية، تضم أفراداً محترفين كاملي التدريب. وأوضح أنه، ما دامت فرنسا لن تستطيع، بحال من الأحوال، أن تساوي الألمان في القوة العددية، فلابد أن يتم تعويض ذلك من ناحية الكيف والنوع. ومن ثم، فإن فرنسا تحتاج، تحديداً، إلى ست فرق ثقيلة، وفرقة واحدة خفيفة، تتشكل جميعها، بحيث تشتمل كل فرقة على لواء مدرع من فوجين، أولهما: دبابات ثقيلة، وثانيهما: مدرعات متوسطة، إضافة إلى كتيبة مدرعات خفيفة، ولواء مشاة من فوجين، وكتيبة قناصة، ولواء مدفعية مزود بقطع، تستطيع التحرك في جميع الارتفاعات، ومؤلف من فوجين يستخدمان، بالتوالي، مدافع طويلة وقصيرة المدى، ومدافع مضادة للطائرات. على أن تضم الفرقة كذلك، فوج استكشاف، وكتيبة هندسية، وكتيبة استخبارات، وكتيبة تمويه، وكلها مزودة بمعدات حديثة سريعة.

يضاف إلى ذلك وجود احتياطي عام من الدبابات والمدافع الثقيلة، والمهندسين، ووسائل النقل والتمويه. ويحمي كل ذلك سلاح طيران قوي، قادر على الرصد والمطاردة والانقضاض. ولابد أن يكون مجموع أفراد الجيش مائة ألف فرد عامل، فضلاً عن أفراد الاحتياط.

ووصف أسلوب خوض المعركة بقوله: يتم حشد الجيش في ليلة واحدة، ليتحرك بسرعة من نقطة ما، في هجوم تبدأ به ثلاثة آلاف دبابة، بطول جبهة تبلغ خمسين كيلومتراً، تساندها المدفعية، وخلفها المشاة بأسلحتهم الآلية، وفوقهم الطائرات تتقدمهم وتحميهم. حتى إذا اخترق العدو خط ماجينو، يجد جيشنا يحيط به. ثم أوضح أهمية تأمين وسائل الاتصال اللاسلكية، باعتبارها وسيلة الربط الأساسية، بين عناصر الجيش. وختم كتابه بأن هذه التطورات المقترحة لابد لها من قائد كفء، مشهود له بالجرأة والموهبة والقدرة على التجديد.

وفي عام ١٩٣٧، تولى قيادة «آلاي» الدبابات الرقم (٥٠٧) في مدينة متز، وهو برتبة عقيد. ثم في عام ١٩٣٩، تولى قيادة لواء الدبابات الملحق بالجيش الفرنسي في اللورين. وفي مايو عام ١٩٤٠، رقي إلى رتبة العميد، وتولى قيادة الفرقة الرابعة المدرعة، قبيل الهجوم الألماني على فرنسا بأيام. ثم اختير وكيلاً لوزارة الحربية الفرنسية، فحضر المؤتمرين، اللذين عقدا في لندن للتشاور بين حكومات الحلفاء، وهناك التقى ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا، وتوطدت الصداقة بينهما.

وبوجه عام، كان ديجول عسكرياً من الطراز الأول، وخبيراً إستراتيجياً، وصاحب نظريات، نالت إعجاب الجميع، حتى أعدائه، ونال شهرة ذائعة لبلائه المتميز في الحرب العالمية الأولى، وفي حربه ضد الروس في بولندا.

وكان ديجول يشعر بالمرارة والألم، وهو يرى القيادات، في بلاده، لا تأبه بأفكاره ومقترحاته؛ فقد كان يظن أن الجميع لابد أن يسارعوا إلى تنفيذ ما يقوله ويقترحه، خاصة حين أرسل فرانسوا بونسيه، سفير فرنسا في ألمانيا، ومعه الملحق العسكري الفرنسي، تقارير العرض العسكري الألماني الضخم في شوارع برلين، في مايو ١٩٣٧، وحملت هذه التقارير الانطباع بأن القوات الألمانية لا يمكن أن يقف في طريقها شيء، إلاّ قوات مماثلة لها. وكذلك، حين جاءت الأخبار، في ١١ من مارس ١٩٣٨، أن القيادة الألمانية أرسلت إلى فيينا فرقة آلية، أثارت الرعب عند النمساويين، لدى رؤيتهم إياها، ودخلت تلك الفرقة، وعلى رأسها هتلر نفسه، دخول الظافرين.

وتوالت التقارير، بعد ذلك، تبين أن الدبابات الإيطالية، والطائرات الهجومية الألمانية، تحقق النصر في كل أرض تدخلها، وأن القوات الألمانية قد اجتاحت تشيكوسلوفاكيا، في سبتمبر ١٩٣٨، وخطب هتلر في برلين قائلاً:

«الآن أستطيع أن أعلنها صريحة، وأنتم جميعاً تعلمون ذلك، لقد حققنا درجة من التسلح، لم يسبق للعالم أجمع أن شهد مثلها قط».

وجاءت الأخبار باجتياح الألمان بولندا كذلك، في سبتمبر عام ١٩٣٨، وفرنسا لا تحرك ساكناً، ولا تفعل شيئاً. ويقول شارل ديجول: «كانت فرنسا خلال هذه المآسي المتتالية مثل الضحية، التي تنتظر دورها في الذبح». بل وسارع بول رينو إلى إعلان أن

هذا الجمود والانتظار له فوائده الجمة، بقوله: «إننا لنحتفظ، عن طريقه، بوحدة أراضينا، دون خسائر».

في ٢٦ من يناير ١٩٤٠، حاول شارل ديجول حث الحكومة الفرنسية على التحرك؛ فوجَّه إلى ثمانين شخصية بارزة في الحكومة والقيادات العسكرية مذكرة يتكهن فيها بأن الألمان سيبادرون بالهجوم بقوات آلية هائلة براً وجواً، وأن بإمكانهم أن يخترقوا الجبهة الفرنسية في أي لحظة، ومن ثم لابد من حشد الوحدات الاحتياطية الممكنة، وتوحيدها معاً تحت قيادة واحدة. ولابد ألاّ يظل الشعب الفرنسي فريسة للوهم السائد بأن الجمود العسكري الراهن ينسجم مع طبيعة الحرب الجارية، وعلى العموم، مازال أمام فرنسا وقت لتتخذ الاستعداد اللازم.

ولكن هذه المذكرة لم تؤثر في شيء، ويبدو أن المسؤولين الفرنسيين لم يهتموا بها اهتماماً كافياً.

دور ديجول في الحرب من داخل فرنسا عام ١٩٤٠

في ١٥ من أبريل ١٩٤٠، طلب بول رينو، رئيس الوزراء، من شارل ديجول مقابلة الجنرال دومينك، رئيس الأركان، الذي أوضح له عزم القيادة العسكرية على إنشاء جبهة دفاعية على الأيسن والإيليت؛ لتقطع على العدو طريقه إلى باريس. وأن على ديجول التمركز مع فرقته المدرعة الرابعة، أمام منطقة لاون، ويتلقى التعليمات من قائده المباشر، اللواء جورج، ولدى مقابلة اللواء جورج قال له:

«هيا يا ديجول، لقد واتتك فرصة العمل، التي انتظرتها طويلاً، لتنفيذ أفكارك التي يستفيد منها العدو ويطبقها».

تمركز شارل ديجول في بروييـر، جنوب شرق مدينة لاون، وجاءته أنباء سحق الألمان للفرق الثلاث المدرعة الفرنسية بكاملها، ورأى مواكب اللاجئين القادمين من الشمال يُرثى لها، ومعها مجموعات من الجنود العزل، الذين قبضت عليهم القوات الألمانية أثناء فرارهم، وأمرتهم بإلقاء أسلحتهم والسير نحو الجنوب، قائلة لهم: «ليس لدينا الوقت لنأخذكم أسرى»!. ولم يزد شارل ديجول، إزاء هذا، إلاّ إصراراً على القتال والمقاومة. ووضع خطته للتقدم نحو الشمال الشرقي عشرين كيلومتراً، إلى أن يبلغ نهر

السير مونوكورنيه ، ملتقى الطرق المفضية إلى سان ـ كنتان، ولاون، ورنس، بحيث يقطع على الألمان طريق الزحف جهة الغرب.

وفي صباح يوم ١٧ مايو ١٩٤٠، وصلته ثلاثة أفواج من الدبابات، فتقدم بقواته كلها إلى مونوكورنيه، وحدثت المواجهة مع الألمان، وصمد صموداً شديداً. ثم وصل إليه، خلال النهار، الفوج الرابع قناصة، فبادر إلى استخدامه في القضاء على مجموعة من طلائع العدو على مقربة من شيفر، ولكن المدفعية الألمانية صبت نيران مدافعها من شمال السير، تساندها طائرات الستوكا، وقصفت الدبابات والشاحنات. وظلت قوات شارل ديجول صامدة، بل تمكنت من أسر ١٣٠ فرداً من الألمان. واستغل شارل ديجول الليل في إعادة انتشار قواته، وتركيزها في منافذ لاون الشمالية، كما وصلته إمدادات من الدبابات، ومعها فوج المدفعية ٣٢٣ المزود بمدافع عيار ٧٥مم، كما تم التنسيق مع اللواء «بيتييه»، قائد الفرقة الثالثة مدرعات خفيفة؛ لتقديم المساندة المدفعية.

في صباح يوم ١٩ مايو ١٩٤٠، تحرك شارل ديجول بقواته للزحف على كل من كريسي، ومورتيه، وبوبي، بهدف قطع طريق لافير أمام العدو. وبعد عدة مناوشات، اضطر إلى التراجع، أمام قصف المدافع الألمانية، وأخذت القوات الألمانية تعبر نهر السير في مونوكورنيه، وتقصف قوات ديجول، وتحاول استدراجها إلى الاشتباك. وأرسل اللواء جورج يأمر ديجول بالانسحاب، إذا نزل الجيش السادس الألماني. وفي اليوم التالي، ٢٠ مايو، اتجهت قوات ديجول نحو «فيسم» و«براين»، بينما هاجمت القوات الألمانية حرس المؤخرة مع فوج الدبابات على هضبة كراون، وأحرقت كثيراً من شاحناتها. وفي الوقت نفسه،كانت القوات الألمانية في الشمال تدفع بمدرعاتها نحو دنكرك، وأعلن ملك بلجيكا الاستسلام، وانسحب الأسطول الإنجليزي، وأعلن الجنرال «فيجان» الهدنة مع الألمان. ومع ذلك زحف ديجول مع الفرقة الرابعة إلى الغرب، بهدف الوصول إلى نهر «السوم». وانضمت إليه قوات فرنسية أخرى، بهدف وقف تقدم الألمان، الذين تمكنوا من عبور السوم، ثم صدرت الأوامر في ٢٦ مايو ١٩٤٠، بالتحرك في اتجاه أبفيل، ومهاجمة العدو، الذي أقام رأس جسر في جنوبها. وقرر شارل ديجول شن الهجوم على القوات الألمانية في المساء، التي انتشرت في هوبي في

الغرب، وبراي، وماروي، وفيلله، وهوشنفيل في الشرق، وتمركزت، كذلك، على جبل كوبير على ضفة السوم، وهو الجبل الذي يشرف على أبفيل وجسورها، ونجح في الهجوم على هوبي وغابات ليمو وبايول وبراي، وسقطت هوبي، واستسلم كل من بقي حياً من الألمان، كما استولى الفرنسيون على عدة بطاريات مضادة للدبابات. وأخذت الدبابات الفرنسية تدك مؤخرة الخطوط الألمانية، ولكن مدفعية الألمان المتمركزة في جبل كوبير، أخذت تقصفها بضراوة. وظلت المعركة حامية حتى جزء متأخر من الليل، وسقط الكثير من الجانبين قتلى، ودُمرت جميع دبابات ديجول، ولم يبق منها سوى مائة، تستطيع أن تتابع السير. وأخذت القوات الفرنسية تتراجع، والقتلى يتساقطون، وازداد عنف الهجوم الألماني في ٢٨، ٢٩، و٣٠ مايو ١٩٤٠، وانسحب شارل ديجول وقواته.

في الأول من يونيه ١٩٤٠، أرسل الجنرال فيجان، القائد الأعلى للقوات المسلحة الفرنسية، إلى شارل ديجول يستدعيه، إلى قصر مونتري، وشكره على صموده الرائع، ثم سأله رأيه في كيفية التصرف في ١٢٠٠ دبابة حديثة، لا زالت موجودة لدى القوات الفرنسية، فأشار ديجول أن تُقسم هذه الدبابات في فئتين: كبرى وصغرى، تتمركز الكبرى شمال باريس، والصغرى جنوب رانس، يدعمهما ما تبقى من الفرق المدرعة، وفرقتان أو ثلاث من المشاة والمدفعية، وذلك كله لعرقلة تقدم الألمان.

ولكن الجنرال فيجان أوضح أن مقاومة هجوم الألمان غير ممكنة؛ لعدم وجود ما يكفي من الأسلحة، ولأن الجيش البريطاني لم يعد يشارك في القتال إلى جوار الفرنسيين، ولا أمل كذلك في مشاركة طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني.

استأنف الألمان الهجوم في ٥ يونيه ١٩٤٠، وذهب شارل ديجول إلى الجنرال «فرير»، قائد الجيش السابع، يضع نفسه تحت أمره، ولكن فرير قال له: لقد جاءت الأنباء أنك ستصبح وزيراً، وهذا دواء وصل متأخراً.

وفي يوم ٦ يونيه ١٩٤٠، عبرت القوات الألمانية نهر السوم، وظلت تواصل زحفها، وفي يوم ٩ يونيه، بلغت نهر السين، وأخذت تخطط لهجوم المدرعات الألمانية في شمبانيا، وأصبحت باريس مهددة من الغرب والشرق والشمال. وحاول ديجول إقناع حكومته بعدم الاستسلام، ونقل ميدان الحرب إلى شمال أفريقيا، ولكن لم توافق

الحكومة، التي كان عليها أن تغادر باريس يوم ١٠ يونيه ١٩٤٠، خاصة بعد إعلان إيطاليا الحرب على فرنسا، وحاول شارل ديجول، مرة أخرى، إقناع حكومته بتنفيذ خطة دفاع عن باريس، يتولى تنفيذها الجنرال دي لاتر. ولكن القائد الأعلى أسرع بإعلان باريس مدينة مفتوحة، ووافقه الوزراء في ذلك.

دور ديجول في الحرب من خارج فرنسا عام ١٩٤٠

بتكليف من بول رينو، سافر ديجول في ٩ يونيه ١٩٤٠، إلى لندن لمقابلة ونستون تشرشل، لإخطاره بالتطورات، التي حدثت في فرنسا، وإقناعه بإشراك السلاح الجوي الملكي البريطاني في المعارك الفرنسية مع العدو. تركت هذه المقابلة انطباعاً في نفس ديجول بأن بريطانيا، وعلى رأسها ونستون تشرشل، لن تتراجع عن القتال ضد دول المحور، على الرغم من رفض تشرشل إشراك الطيران البريطاني في القتال إلى جانب فرنسا.

في اليوم التالي ١٠ يونيه ١٩٤٠، وصل تشرشل فجأة إلى فرنسا، وقابل القيادات الفرنسية، ولم يسفر ذلك عن شيء يذكر. ثم سافر ديجول، في ١٦ يونيه ١٩٤٠، إلى لندن للتباحث مرة أخرى مع تشرشل، واتفق معه على الصمود والمقاومة، ثم ذهب إلى بوردو، وهناك علم باستقالة بول رينو وحكومته، وتشكيل حكومة جديدة برئاسة هنري بيتان، سارعت إلى إعلان وقف الحرب، وطلب الهدنة من الألمان.

وباستقالة حكومة رينو، لم يعد ديجول في الحكومة، ولم تكن لديه أي رغبة للاشتراك في الحكومة الجديدة، ومن ثم قابل سفير إنجلترا، السير رونالد كامبل، وأخبره بنيته السفر إلى لندن، وحوَّل إليه بول رينو مبلغ مائة ألف فرنك، من الاعتمادات السرية. وفي صباح ١٧ يونيه ١٩٤٠، استقل طائرة بريطانية إلى لندن.

في لندن، قرر ديجول رفع راية المقاومة، واستخدام الإذاعة في ذلك، وعرض فكرته على تشرشل يوم ١٧ يونيه ١٩٤٠، فوافق على الفور، ووضع إذاعة البي. بي. سي. في لندن تحت تصرفه.

في الساعة السادسة من مساء اليوم التالي، ١٨ يونيه ١٩٤٠، وجه ديجول نداءه، عبر إذاعة الـ BBC في لندن، إلى الشعب الفرنسي، بضرورة مواصلة القتال ضد الألمان

الغزاة، وأنّ شرف فرنسا أسمى من كل اعتبار. وكان أهم ما فيه قوله: « إن كل العوامل، التي تسببت في هزيمتنا سوف تأتينا بيوم النصر... لا يجوز مهما حدث أن تنطفئ شعلة المقاومة الفرنسية.

وأرسل ديجول برقية إلى الجنرال نوغيس، القائد الأعلى للعمليات الحربية في شمال أفريقيا، في مقره بالمغرب، يعرب فيها عن وضع نفسه رهن أوامره، إذا رفض الهدنة. أما الحكومة الفرنسية فكان جوابها على ديجول، أن وصلته برقية من الجنرال بيتان، وزير الدفاع الفرنسي الجديد، تأمره بالعودة دون إبطاء، فرد ديجول في ٢٠ يونيه ١٩٤٠، ببرقية، يبدي استعداده للعودة فوراً، إذا رفض بيتان الاستسلام. وأعلن المقاومة ومواصلة الحرب.

وفي ٢٤ يونيه ١٩٤٠، أرسل ديجول ببرقيات إلى كل من الجنرال نوغيس، والجنرال ميتلهاوزر، القائد الأعلى للعمليات في شرقي المتوسط، والسيد بيو، مفوض فرنسا السامي في سوريا ولبنان، والجنرال كاترو، حاكم الهند الصينية العام، يخبرهم بعزمه تشكيل منظمة وطنية للدفاع عن الإمبراطورية، ويطلب مشاركتهم وتعاونهم.

وقد أرسل إليه الجنرال كاترو بموافقته وتعاطفه معه، أما الجنرال نوجيس فقد أرسل إلى الجنرال فيجان يطلب منه إعادة النظر في مسألة الهدنة، ثم بعد ذلك أيده في قبولها. أما كاترو، والجنرال لوجنتيوم، قائد قوات الساحل الصومالي، فقد أصرا على رفض الهدنة، فصدر القرار بعزلهما.

لم تكن استجابة الفرنسيين لنداءات ديجول مشجعة في أول الأمر؛ فبعد ثمانية أيام من ندائه إلى الفرنسيين، لم يرتفع عدد المتطوعين، الذين تمركزوا في قاعة أولمبيا، التي وضعها الإنجليز تحت إمرته، إلاّ إلى بضع مئات. ولم تبخل إنجلترا بدعمها المباشر لحركة ديجول، وتحملت جميع نفقات القوات الفرنسية في حركة ديجول، بهدف أن يتمكن ديجول من اجتذاب عدد كبير من المتطوعين الفرنسيين، لمواصلة الحرب، التي أعلنها تشرشل بكل رباطة جأش، عكس كل التوقعات بأن بريطانيا سوف تواصل الحرب ضد النازية، ولو منفردة. كذلك أعلنت بريطانيا في ٢٨ يونيه ١٩٤٠، اعترافها بحركة التحرير الفرنسية، بزعامة الجنرال ديجول، وكان نص البيان كالتالي:

«تعترف حكومة صاحب الجلالة بالجنرال ديجول قائداً لجميع الفرنسيين الأحرار، حيثما وجدوا، وحيث يلتفون حوله، تأييداً لقضية الحلفاء».

واختار ديجول، رمزاً لمنظمته، صليب اللورين المزدوج، وشعار عام ١٨٧١ وهو «المجيد دائماً وإلى الأبد». وقد أصدرت السلطات البريطانية منشوراً، إلى العسكريين الفرنسيين في إنجلترا جميعاً، أنهم مخيرون بين العودة إلى فرنسا، أو الالتحاق بالجنرال ديجول، أو الخدمة في بلاط صاحب الجلالة في إنجلترا.

في يوم ٢٩ يونيه ١٩٤٠، تمكن ديجول من مقابلة قائد فرقة فرنسية خفيفة، في ترانتهام بارك، وتمكن من إقناعه بضمها إلى قواته. وهكذا أُتيح له أن يلحق بقواته قسماً كبيراً من فوجين تابعين للواء الثالث عشر، ومائتين من القناصة، وثلثي سرية دبابات، وبعض عناصر المدفعية وسلاح المهندسين والنقل، وعدة ضباط أركان حرب. وفي اليوم التالي ٣٠ يونيه ١٩٤٠، انضم إليه نفر كبير من البحارة، منهم ضباط وبحارة الغواصة «روبي»، التي كانت قابعة عند سواحل النرويج، والغواصة «نارفال»، التي غادرت تونس لحظة سماعها نداء ديجول، والزورق الحربي بريزيدان ـ هوندوس. كما تجمع بضع عشرات من الطيارين في سانت ـ أثام، بعد أن هربوا بطائراتهم من شمال أفريقيا، وبدأ المتطوعون الفرنسيون، من أماكن شتى من العالم، يصلون فرادى إلى إنجلترا.

تمكن ديجول كذلك من جمع ألفين من جرحى الحرب، من دنكرك، وأُتيحت لهم فرص استكمال علاجهم في مستشفيات إنجلترا. وأعلن ديجول إنشاء منظمة فرنسية وطنية، وأرسل بذلك مذكرة في ٢٦ يونيه ١٩٤٠، إلى السيدين تشرشل واللورد هاليفاكس. ثم أرسل، في اليوم التالي ٢٧ يونيه ١٩٤٠، برقية إلى كل من القائد الأعلى الفرنسي لميدان العمليات في شرق المتوسط، ومفوض فرنسا السامي في سوريا ولبنان، والقائم بالأعمال في تونس، يدعوهم إلى المشاركة في المنظمة.

إلى نهاية شهر يوليه عام ١٩٤٠، لم يكن قد انضم إلى المنظمة أي زعيم سياسي مرموق، ولا انضمت إليها قيادة عسكرية بارزة، اللهم إلا فليكس إيبوبه، حاكم تشاد، كما ظلت إمبراطورية فرنسا موالية لحكومة المارشال بيتان، التي أصبحت تسمى

حكومة فيشي، نسبة إلى المدينة، التي انتقلت إليها الحكومة الفرنسية، بعد احتلال الألمان لباريس العاصمة. وفي الأول من يوليه ١٩٤٠، أرسلت حكومة فيشي إلى ديجول، مذكرة عن طريق القائم بالأعمال في لندن، تأمره بأن عليه أن يعتبر نفسه مقبوضاً عليه، وأن يسلم نفسه في تولوز. وأرسل القائد بالأعمال المذكرة إلى ديجول، فرد عليها بالرفض.

وفي اليوم الثاني من أغسطس ١٩٤٠، أصدرت محكمة عسكرية، في فيشي، حكماً بإعدام ديجول، بتهمة التمرد والعصيان. ولم يأبه ديجول بذلك، بل أرسل بتعليماته إلى مندوبيه في المستعمرات الفرنسية بأفريقيا، في ٥ أغسطس ١٩٤٠، يبين لهم مهامهم الأساسية، وسبل الاتصالات معه.

وفي يوم ٧ أغسطس ١٩٤٠، وقع ديجول مع تشرشل وثيقة اتفاق، بعد مباحثات بين الطرفين، تتعهد فيها بريطانيا بتأكيد عزمها على تأمين إعادة كيان فرنسا واستقلالها.

بانتهاء النصف الأول من أغسطس ١٩٤٠، كان جيش منظمة فرنسا الحرة، بقيادة ديجول، يتكون من ١٤٠ ضابطاً، و٢١٠٠ جندي فقط، ولكن حدث تحول مهم، قرب نهاية أغسطس ١٩٤٠، حيث حقق ديجول تقدماً ملحوظاً، وحصل على الولاء من المستعمرات الفرنسية، في أفريقيا الاستوائية، بفضل مجهودات بعض القادة العسكريين الفرنسيين، وعلى رأسهم الحاكم العام لمستعمرات تشاد الفرنسية، فليكس إيبويه. وتحدث ديجول في إذاعة لندن ينوه بذلك، وبدأ كثير من مناطق أفريقيا الاستوائية تعلن ولاءها لمنظمة فرنسا الحرة، ومنها تشاد، والكاميرون، وساحل العاج الأعلى، وجزر هيريد الجديدة، والكونغو، ونيجيريا، وبرازفيل، وسان ـ مار. وأرسل ديجول في ٢٩ أغسطس ١٩٤٠، إلى الجنرال كاترو، حاكم الهند الصينية، يبشره بهذه النتائج الطيبة.

معركة دكار

اتفق ديجول مع تشرشل على ضرورة خوض معركة بهدف ضمّ دكار إلى منظمة فرنسا الحرة، وهكذا تحركت القوات الفرنسية في حملة، قوامها ٢٧٠٠ فرد من أفراد منظمة فرنسا الحرة، و٤٢٠٠ فرد من القوات الفرنسية، يرافقها ديجول نفسه، ويتولى الجنرال البريطاني إيروين قيادة القوات البرية، ونائب الأدميرال جون كاننجهام للقوات البحرية.

وغادرت سفن النقل الإنجليزية والمدرعات، ومعها حاملة الطائرات أراك رويال، وناقلة بترول ميناء ليفربول، في ٣١ أغسطس ١٩٤٠، وبدأت العمليات العسكرية يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠، بإنزال جوي وبحري، ومفاوضات مع حكومة دكار للتسليم دون قتال، ولكن حكومة دكار رفضت ذلك، وأصرت على المقاومة، وأُصيبت السفن البريطانية إصابات خطرة من جراء قذائف غواصات دكار، وأُسقطت أربع طائرات إنجليزية، وغرقت مدمرة وغواصتان أخريان. وقرر الأميرال جون كننجهام وقف القتال والرحيل، ووافقه ديجول. وهكذا فشلت الحملة، بل كادت أن تحدث أثراً سلبياً يهدد مستقبل ديجول وحركته، لولا وقوف تشرشل ودعمه الكامل لديجول. وهكذا خابت آمال ديجول، وأبحر بعدها إلى دوالا في الكاميرون، وزار عدة مواقع في أفريقيا الاستوائية.

وكاد اليأس يتسلل إليه، وقوبل بعاصفة من الغضب والاستياء في لندن، وراحت وسائل الإعلام الأمريكية تسخر منه، وتتهكم عليه. وأخذت حكومة فيشي تشيد بانتصارها في دكار، وتنشر صحفها أعداداً لا تُحصى من برقيات التهنئة إلى حكومة دكار.

قام ديجول بعد ذلك بجولة في أفريقيا، في أواخر شهر أكتوبر ١٩٤٠، واستقبله كثير من القادة العسكريين وأفراد الجالية الفرنسية هناك. ثم في ٢٧ أكتوبر ١٩٤٠، أصدر من برازافيل الأمر الرقم (١)، بإنشاء مجلس دفاع الإمبراطورية الفرنسية. تمكنت القوات الموالية لديجول من السيطرة على ميترنيك، وبعد أن ألقى جيشها السلاح نهائياً في ٥ نوفمبر ١٩٤٠. وانطلقت السفن الفرنسية والإنجليزية من دوالا؛ لاحتلال ليبرفيل بقيادة ليكليرك، بينما اتجهت القوات البرية الإنجليزية والفرنسية، بقيادة كوينج، إلى أراضي ليبرفيل، ودار قتال عنيف، في ليلة ٨ نوفمبر ١٩٤٠، وتمكن الأسطول البريطاني من إغراق الغواصة «بونسليه» التابعة لحكومة فيشي، عند ميناء «جانتيل». وهكذا سقط ميناء جانتيل يوم ١٢ نوفمبر ١٩٤٠، ودخل ديجول في ١٥ نوفمبر ١٩٤٠، ليبرفيل ثم جانتيل. وتم اختيار فليكس إيبويه حاكم تشاد قائداً عاماً للمنطقة الفرنسية في أرض أفريقيا الاستوائية، مع تعيين عدد من كبار الضباط، لتولى السلطة في بعض البلدان، تحت شعار اللورين.

ثم وضع ديجول خطة لشن حملة عسكرية على منطقتي مرزوق والكفرة في ليبيا، براً وجواً، وحملة أخرى على إريتريا، قوامها لواء تسانده القاذفات الجوية، وكانت الغاية من هذه الحملات دعم الوجود القوي للقوات الموالية لديجول في منطقة الشرق الأوسط.

دور ديجول في الحرب عام ١٩٤١

في ١٥ يناير ١٩٤١، اتفق ديجول وأنطوني إيدن، وزير خارجية بريطانيا، على تنظيم العلاقات بين الفرنسيين الأحرار، والهيئات البريطانية الرسمية، ويقضي الاتفاق بخضوع الفرنسيين التابعين لتنظيم فرنسا الحرة للنظم والتشريعات الفرنسية، وليس للتشريعات البريطانية ومحاكمها. وأثمرت المباحثات عن معادلة الجنيه الإسترليني بمائة وستة وسبعين فرنكاً فرنسياً. وتمكن ديجول من إنشاء مصرف خاص بفرنسا الحرة، تحت اسم «البنك المركزي لفرنسا الحرة»، مهمته تنظيم المرتبات والمصروفات، وجمع الأموال الواردة من الهيئات والحكومات والتبرعات وعائدات المستعمرات، إضافة إلى المبالغ المقدمة من الحكومة البريطانية.

كذلك أسس ديجول المكتب المركزي للعمليات، ومهمته جمع المعلومات، وتنظيم العمل السري لتجنيد المتطوعين، وسمحت الحكومة البريطانية لرجال ديجول بالبث، عبر إذاعة لندن مدة خمس دقائق، مرتين يومياً، في برنامج إذاعي أُطلق عليه اسم «الفرنسيون يتحدثون إلى الفرنسيين». كذلك تمكن ديجول من إنشاء مجلة، باسم «فرنسا الحرة»، وجريدة تحت اسم «فرنسا»، ووكالة أنباء، تحت اسم «وكالة فرنسا الحرة للأنباء».

في ١٥ يناير ١٩٤١، أصدر ديجول أمره إلى كل من الجنرال كاترو ولارمينا، بالبدء في تنفيذ خطة تجميع قوات، قوامها فرقة من السنغاليين، وكتيبة من رجال البحرية، ومجموعة دبابات وبطاريات مدفعية، وغير ذلك. وانضم إلى هذه القوات بعض الطيارين الفرنسيين جاؤوا من تونس ولبنان. كذلك، قرر ديجول إرسال عدد من الطائرات القاذفة، وكذلك المدمرتين «سافورنيان دي برارزا»، و«القومندان دوبوك»، إلى الخرطوم.

في فبراير ١٩٤١، وصلت أنباء ذهاب بعثة ألمانية إلى سوريا، والتحركات اليابانية

دعماً لدول المحور، مما يهدد مناطق الهند الصينية للخطر، فعكف ديجول على وضع خطة للدفاع عن الهند الصينية تشترك فيها كل من بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، وهولندا، وأستراليا، ونيوزلندا.

في ٢٤ فبراير ١٩٤١، أرسل ديجول إلى الجنرال فيجان، يسأله العون، ويطالبه بتجميع القوى الفرنسية كلها في جبهة واحدة، وكذلك أرسل كاترو بعدة رسائل إلى قادة فرنسيين آخرين تابعين لحكومة فيشي، ولكن كل هذه الرسائل قوبلت بالرفض، بل إن الجنرال فيجان أضاف، إلى الرفض، طلبه تنفيذ حكم الإعدام بقوله: «يجب إعدام ديجول».

وفي ٩ مارس ١٩٤١، استدعى تشرشل ديجول، وأخبره أن الولايات المتحدة الأمريكية وافقت على مشروع الإعارة والتأجير، ومن ثم يمكن الحصول على الأسلحة والمعدات اللازمة. وكان لهذا الخبر أبلغ الأثر في نفوس ديجول ورفاقه؛ لأنه كان يعني تحولاً في سير الحرب، بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت لا تزال تقف موقف المتفرج من الصراع.

اتجهت أنظار ديجول، بعد ذلك، إلى ضرورة السيطرة الفرنسية على سوريا ولبنان، وباقي بلدان الشرق الأوسط، وبدأ جولة تفقدية دقيقة هناك، وكانت الخرطوم أول محطة ينزل فيها؛ فقد كانت منطلقاً للقوات الفرنسية بقيادة الجنرال بلاتّ، الذي تمكن من انتزاع خط الدفاع الأساسي في إريتريا من أيدي الإيطاليين.

وفي يومي ٢٩ و ٣٠ مارس ١٩٤١، ذهب إلى إريتريا، ليشرف على القوات الفرنسية المقاتلة هناك ضد الإيطاليين، في أعالي كيرين، وهناك قابل المقدم جينان، الذي جاء من الجزائر؛ لينضم إلى قوات ديجول. ثم اتجه الجنرال بلاتّ، في ٣١ مارس ١٩٤١، برجاله إلى مصوع، عاصمة إريتريا، وتمكن من دخولها في ٧ أبريل ١٩٤١، بعد فرار الإيطاليين، وكانت حصيلة المعركة أربعة آلاف أسير، واستسلام عشرة آلاف جندي.

في الأول من أبريل ١٩٤١، هبط ديجول بطائرته في القاهرة، وهناك جاءته الأخبار أن الوضع في سوريا ولبنان لا يسمح بتحقيق سيطرة قواته عليها؛ وذلك لخضوعها لحكومة فيشي. ومن ثم أرسل ديجول إلى حكومة فيشي يكرر طلبه دمج القوات الفرنسية كلها

معاً؛ لمواجهة العدو المشترك. ولم يرد عليه الجنرال فيجان، فيئس ديجول من البحث في موضوع سورية ولبنان، وبدأ في تجميع القوات لمساعدة القائد البريطاني ويفل، في تقدمه في ليبيا.

وفي مصر، وطد ديجول علاقات طيبة مع الأمير محمد علي، وسري باشا رئيس الوزراء آنذاك. وبعد أسبوعين في السودان ومصر وفلسطين، اتخذ ديجول طريقه إلى برافيل، ثم دوالا وياوندي وماروه وليبرفيل وغيرها من المناطق، لتفقد الأوضاع.

في ٨ يونيه ١٩٤١، أصدر ديجول أمره، للقوات الفرنسية الحرة، بمرافقة القوات البريطانية في تحركها إلى سورية ولبنان؛ لمواجهة قوات دول المحور هناك. وحدثت عدة صدامات في أيام ٩، ١٠، ١٢، ١٥، ١٦ يونيه ١٩٤١، مع الجنود الفرنسيين التابعين لحكومة فيشي، ووقعت خسائر كبيرة في الطرفين. وتمكنت قوات ديجول، ومعها القوات البريطانية، من دخول دمشق في ٢٢ يونيه ١٩٤١. وهناك عقد ديجول عدة اجتماعات مع كبار السوريين، الذين بادروا على الفور بالاعتراف بفرنسا الحرة، بزعامة ديجول. وعمل ديجول على تأليف حكومة فرنسية جديدة هناك، والتأكد من سلامة الأوضاع. وفي الوقت نفسه، عُقدت المفاوضات في عكا بين الحكومة البريطانية، بصفتها صاحبة القيادة العسكرية، وحكومة فيشي، ونصت الاتفاقية التي توصل إليها الجانبان، على وضع سورية ولبنان تحت السيطرة البريطانية، دون أي ذكر لاسم فرنسا الحرة فيها، كما نصت كذلك على أن تُوضع المؤن الحربية الموجودة في حوزة قوات فيشي، تحت تصرف القوات البريطانية، ومن ثم لا تستفيد منها قوات فرنسا الحرة شيئاً.

رفض ديجول هذه الاتفاقية، وأرسل احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية، التي بادرت إلى الاعتراف بحق فرنسا الحرة في الانتداب على سورية ولبنان، في ٢٥ يوليه ١٩٤١.

في جولته يومي ٢٤ و ٢٥ يوليه ١٩٤١، في دمشق وبيروت، لقي ديجول ترحيباً كبيراً، كما اجتمع إلى السيد ألفريد نقاش، رئيس الحكومة اللبنانية، والتقى عدداً كبيراً من الفرنسيين، ممن كانوا قد أعلنوا ولاءهم الكامل لحكومة فيشي، وعقب اللقاء، أعلنوا تأييدهم المطلق لتنظيم فرنسا الحرة.

عقب ذلك، عقد ديجول عزمه على ضرورة ظهور منظمته على المسرح السياسي، وجعلها دولة ذات سيادة، ومن ثم اتجه إلى إجراء المباحثات مع واشنطن وموسكو ولندن، خاصة واشنطن، التي كانت لا تزال تتعامل مع حكومة فيشي.

وهكذا أرسل ديجول، في أغسطس عام ١٩٤١، يطلب من الولايات المتحدة الأمريكية أن تقيم قواعد جوية لها في المناطق التابعة لفرنسا الحرة، في الكاميرون وتشاد والكونغو، وهي المناطق التي تعد خط الدفاع الأمامي مع الألمان.

كما عرض ديجول ـ عقب قراره في ٢٤ سبتمبر ١٩٤١، بإنشاء لجنة وطنية فرنسية، تعد بمثابة جهاز رئاسي للدولة المنتظرة، وضع الجزر التابعة لفرنسا الحرة في المحيط الهادي، تحت تصرف الأمريكيين لمواجهة الخطر الياباني.

وقد أثمرت هذه النشاطات اهتماماً من الولايات المتحدة الأمريكية بمنظمة ديجول، وأعلن مسئول أمريكي كبير، في سبتمبر عام ١٩٤١، أن هناك مصالح مشتركة بين أمريكا وفرنسا الحرة، وأضاف: «إن علاقاتنا مع هذه المجموعة جيدة جداً، على جميع المستويات». وبدأت تحدث تحولات واضحة من جانب الإدارة الأمريكية، لصالح فرنسا الحرة، وشملت تلك التحولات وسائل الإعلام الأمريكية، وكانت قبل ذلك تهاجم تنظيم فرنسا الحرة.

وفي ١١ نوفمبر ١٩٤١، أعلن الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت، في بيان رسمي، قبول فرنسا الحرة في قائمة الدول المستفيدة من قانون الإعارة والتأجير.

ومع ذلك حدثت بعض السلبيات من الجانب الأمريكي:

١. فقد احتجزت السلطات الأمريكية، في ١٣ ديسمبر ١٩٤١، الباخرة نورماندي، مع ثلاث عشرة سفينة فرنسية أخرى، ولم تقبل التفاوض بشأنها مع حكومة ديجول.

٢. في شهر ديسمبر ١٩٤١، كذلك، جرت مباحثات ميثاق عصبة الأمم المتحدة، ووقعت ٢٧ حكومة، ليس من بينها حكومة ديجول.

٣. تحركت قوات ديجول في ١٢ ديسمبر ١٩٤١، بقيادة الأميرال موزيليه، لضم جزيرتي سان بيير وميكيلون، وانتزاعهما من حكومة فيشي، دون الحصول على موافقة الولايات

المتحدة الأمريكية، التي كانت قد دخلت الحرب رسمياً يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١.

وقد دخل الأميرال موزيليه الجزيرتين، دون إطلاق رصاصة واحدة، واستقبله الأهالي هناك بحفاوة وحماسة شديدتين. وعلى الفور احتجت الحكومة الأمريكية احتجاجاً شديداً لحدوث ذلك، دون موافقتها. وعالج ديجول الأمر بأن أمر بإجراء استفتاء عام في الجزيرتين، كانت نتيجته موافقة الأغلبية الكاسحة على الانضمام إلى فرنسا الحرة. وفي الوقت نفسه أبرق ديجول إلى تشرشل، وكان في محادثات مع روزفلت، يطلب منه إقناع روزفلت بالتخلي عن موقفه هذا، وانتهت العاصفة؛ نتيجة لوجود رأي عام أمريكي مؤيد لديجول؛ ولموافقة بريطانيا وكندا على تصرف قوات ديجول، وقبلت الولايات المتحدة الأمريكية بالأمر الواقع.

دور ديجول في الحرب عام ١٩٤٢

كان اليابانيون قد أنزلوا قواتهم في منطقة الملايو الإنجليزية، وتابعوا الزحف نحو جزر الهند وإندونيسيا والفلبين وهونج كونج.

ومع مطلع يناير ١٩٤٢، تمكنت القوات اليابانية من فرض الحصار على عدد هائل من الجنود البريطانيين، في سنغافورة، وأجبرتهم على الاستسلام، واستمر الزحف الياباني، نحو جميع الجزر التابعة لحكومة ديجول، وأرسل ديجول الإمدادات إلى نائبه هناك، ومع هذه الإمدادات الغواصة «سيركوف»، وهي أكبر غواصة في العالم آنذاك، ولكنها غرقت عقب اصطدامها بسفينة شحن ضخمة، في ليلة ١٩ فبراير ١٩٤٢، ومات قائدها وبحارتها المائة والثلاثون عند مدخل قناة بنما.

عقب ذلك، أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تدعم علاقتها بحكومة ديجول، وتعاملها باحترام شديد، واعترفت الولايات المتحدة الأمريكية، في أول مارس ١٩٤٢، في بيان رسمي، بأن: «جزر الباسيفيك الفرنسية تقع تحت الإشراف الفعلي المباشر للجنة الوطنية الفرنسية، وإن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تتعامل معها، وستواصل التعامل معها، على هذا الأساس»، وأتبعت ذلك في ٤ أبريل ١٩٤٢، ببيان رسمي مماثل في شأن أفريقيا الاستوائية، وعينت قنصلاً عاماً للولايات المتحدة الأمريكية، في برازفيل وسائر المناطق التابعة لحكومة ديجول.

وفي ٧ مارس ١٩٤٢، طلبت الحكومة الأمريكية، من ديجول، إذناً بالسماح لها بإنشاء قواعد لها في بعض جزر الباسيفيك الفرنسية، ووصلت القوات الأمريكية إليها بالفعل في ٩ مارس ١٩٤٢، بقيادة الجنرال باتشي، قائد القوات البرية الأمريكية في الباسيفيك، وذلك أثناء اشتعال المعارك بين القوات الأمريكية والقوات اليابانية. وحين طلبت الحكومة الأمريكية، من حكومة ديجول، السماح لطائراتها القاذفة بالنزول في ميناء «بون نوار»، طلبت حكومة ديجول، مقابل ذلك، تزويدها بثماني طائرات من نوع لوكهيد، استخدمتها في إنشاء جسر جوي بين دمشق وبرازفيل.

التعاون مع الاتحاد السوفيتي

انتهز ديجول فرصة الهجوم، الذي شنه هتلر على روسيا، والتحول الهائل من جانب الحكومة الروسية إلى ضرورة التعاون مع الحلفاء، وبعد أن كانت إذاعة موسكو تهاجم «الإمبرياليين الإنجليز» و«المرتزقة الديجوليين»، راحت تكيل المديح والثناء لتشرشل وديجول، وسارع ديجول إلى الحوار مع الروس، فأرسل وفداً فرنسياً، في ٢٤ يونيه ١٩٤٢، إلى مايسكي، سفير روسيا في لندن، يبلغه باسم ديجول: «أن الشعب الفرنسي مع الروس ضد ألمانيا، ومن ثم فإننا نتمنى تقوية العلاقات العسكرية مع موسكو».

ونتج، عن ذلك، مبادرة روسية إلى قطع علاقاتها مع حكومة فيشي، وأصدر مايسكي في ٢٦ سبتمبر ١٩٤٢ بياناً باسم حكومته: «إن روسيا تعترف بالجنرال ديجول رئيساً لجميع الفرنسيين الأحرار، وإنها على استعداد للاتصال بمجلس الدفاع عن الإمبراطورية الفرنسية؛ للتفاهم في جميع المسائل المتعلقة بالتعاون. وإنها مستعدة لتقديم المساعدة الكاملة للفرنسيين الأحرار؛ لإعادة استقلال فرنسا وعظمتها بشكل كامل ومطلق».

وسارع ديجول إلى إرسال الجنرال بيتي إلى موسكو بصفته ضابط اتصال مع القيادة العسكرية الروسية، ورحب به المسؤولون الروس ترحيباً كبيراً، وعقدوا معه اجتماعات مكثفة، وزار مواقع القتال، كما قابل جوزيف ستالين نفسه.

وفي هذه الأثناء كانت القوات الألمانية قد توغلت، خلال أربعة أشهر، في الأراضي الروسية، وأصبحت على مشارف موسكو، ووقع مئات الآلاف من الروس أسرى،

ولكن الجيش الروسي صمد صموداً شديداً، وجعل الألمان يتراجعون، وساعده في ذلك جليد الشتاء القارس. ورأى ديجول أنه لابد من مشاركة الروس في القتال، فأمر كاترو بإرسال إحدى الفرقتين الخفيفتين إلى إيران والقوقاز، وجميع الطائرات الفرنسية من فوج نورماندي، وأبلت هذه القوات بلاءً حسناً إلى جوار الروس.

في الأول من أبريل ١٩٤٢، أذاع ديجول بياناً، يعلن فيه إطلاق اسم فرنسا المحاربة على حركة فرنسا الحرة، ويخبر الحلفاء بذلك.

كانت المعلومات الكاملة عن جميع التطورات داخل فرنسا تصل إلى ديجول، أولاً بأول، بكل دقة، اعتباراً من صيف عام ١٩٤١، وكانت شعبية ديجول تتزايد داخل فرنسا، وتشتعل حركة المقاومة والهجمات على الجنود الألمان، الذين أخذوا ينتقمون بكل وحشية وعنف، ويقتلون الأسرى بالمئات، ومع ذلك ازدادت المقاومة، وكان رجال ديجول يمدونهم بالسلاح سراً.

وفي الخامس والعشرين من أكتوبر ١٩٤١، أقدم الألمان على ذبح خمسين أسيراً فرنسياً في بوردو، وخمسين آخرين في نانت، وأذاع ديجول بياناً، عبر الإذاعة البريطانية، قال فيه:

«يتصور العدو أن قتل مواطنينا سبيل إلى إرهاب الشعب الفرنسي كله، ولكنه واهم، ولينتظر، ولسوف يرى أن الشعب الفرنسي قادر على توجيه الضربة القاضية».

ثم طلب ديجول من جميع الفرنسيين، في كل مكان، الوقوف لمدة خمس دقائق، في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٣١ أكتوبر ١٩٤١، حداداً على الشهداء، وإظهاراً لروح التربص للانتقام من العدو في كل مكان.

وطلب ديجول من الفرنسيين الانضمام إلى منظمات المقاومة، التي شكلها خارج فرنسا، وهي:

١. منظمة الكفاح «كومبا فرنسي» برئاسة النقيب فرناي.

٢. منظمة التحرير «ليبراسيون» برئاسة عمانوئيل داستيه.

٣. منظمة الإرهاب الفرنسي بقيادة جان بيير ليفي.

٤ . الاتحاد العام للعمال.

٥ . الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين.

٦ . فئات الحزب الاشتراكي.

٧ . فئات الحزب الديمقراطي الشعبي.

٨ . فئات الحزب الجمهوري.

وكلها كانت تعمل على بث روح النضال؛ للقضاء على حكومة فيشي.

أما داخل فرنسا، فقد تأسست منظمات سرية تابعة لديجول هي:

١ . المنظمة العسكرية والمدنية بقيادة العقيد توني.

٢ . منظمة رجال الحرية برئاسة ريبوش.

٣ . منظمة رجال المقاومة بقيادة ليكونت بونيه.

٤ . منظمة تحرير الشمال بإشراف كافييس.

٥ . صوت الشمال برئاسة هوكي.

هذا إلى جانب المنظمات الشيوعية، التي بدأت تحركها الفعلي، وحملت السلاح عقب غزو هتلر لروسيا، وألفت فيما بينها مجموعة تسمى الجبهة الوطنية، وهيئة أخرى تسمى هيئة المناضلين الفرنسيين. وقد طلبت هاتان المجموعتان المساعدة من ديجول، رغم معارضتهما له ومهاجمتهما إياه. وصار الهتاف الدائم المتعارف عليه بين كل أتباع ديجول: «تحيا فرنسا».

ولم يأت شهر مارس ١٩٤٢، إلاّ وكانت جميع هذه المنظمات قد اتحدت فيما بينها.

وفي ٢٣ يونيه ١٩٤٢، أذاع ديجول بياناً قال فيه: «إن الحرية والكرامة، والحياة الآمنة، التي عزمنا على توفيرها لفرنسا، عن طريق سحق العدو، إنما تعني أن نعمل على نحو، يستطيع معه كل رجل وكل امرأة في ديارنا أن يحققا تلك الأهداف، بتغيير النظام السيئ المرفوض، وإدانة ذلك العهد الأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي،

الذي تهاوى في قاع الهزيمة بعد الاستسلام الآثم». وأُذيع البيان من راديو لندن، وبيروت، وبرازفيل.

وأعقب ديجول ذلك بزيارة للأسطول الفرنسي، الذي صار يشكل قوة هائلة، يعتمد عليها البريطانيون في الحرب، ويقدمون شكرهم لقائد فرنسا الحرة، ديجول، ويزودون هذا الأسطول باستمرار بالجديد من السفن الحربية الإنجليزية، والغواصات، والمدمرات، وزوارق الطوربيد، مما جعله أسطولاً ضخماً، انتشرت قطعه في جرنيوك، وداتموث، وكاوز، وبورتسموث، ووصل عدد بحارتها إلى ٣٦٠٠ فرد. كذلك راح ديجول يتفقد أسراب الطائرات الفرنسية، التي تشكلت في أواخر عام ١٩٤١.

في ٤ فبراير ١٩٤٢، أصدر ديجول أمره إلى ليكليرك، ببدء التحرك من تشاد، وشنّ غارات سريعة خاطفة تهاجم وتنسحب. وبالفعل تمكن ليكليرك في مارس عام ١٩٤٢، من دخول مدينة فزان الليبية، بعدة دوريات معززة بالطائرات المقاتلة، وحطم عدداً كبيراً من مواقع الألمان، وأوقع عدداً كبيراً منهم أسرى، وعاد إلى تشاد بكميات ضخمة من الغنائم.

بعد أن انتهى ديجول من الإشراف على التجهيز النهائي للفرقتين الفرنسيتين الخفيفتين، كتب إلى تشرشل في ٧ أكتوبر ١٩٤٢، برغبته في الاشتراك مع قوات الحلفاء في معارك ليبيا. وكتب كذلك إلى الجنرال أوكنيلك، وأظهر كل استعداد لوضع جميع القوات الفرنسية العاملة بقيادة لارمينا، تحت إمرة القيادة البريطانية، كما قابل المستر مارجيسون وزير الحربية البريطاني. وظل وقتاً طويلاً دون أن يتلقى جواباً من أي منهما.

وفي ٢٧ نوفمبر ١٩٤٢، تلقى خطاباً من رئيس الأركان البريطاني، يبلغه باعتذار بريطانيا عن رفضها اشتراك القوات الفرنسية الحرة في معركة ليبيا. ولم ييأس ديجول، بل قابل المندوب السوفيتي، وطلب منه إبلاغ حكومته برغبته في إشراك قوات فرنسا الحرة في معارك الجبهة الشرقية. ولدى علم تشرشل بذلك، سارع بإرسال رسالة إلى ديجول، في ٧ ديسمبر ١٩٤٢، يخبره بموافقة إنجلترا (على اشتراك الفرقة الأولى في القتال)، وأرسل ديجول إلى الجنرال كاترو في القاهرة، لإعداد الترتيبات اللازمة لنقل الفرقة الخفيفة الأولى إلى ليبيا.

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩٤٢، كتب ديجول إلى كاترو يأمره بتجهيز الفرقة الثانية، وإرسالها في ١٥ مارس ١٩٤٣، إلى القوقاز لمساعدة الروس في حربهم.

دور ديجول في الحرب عام ١٩٤٣

لدى علم القيادة البريطانية بذلك، حاولت وضع العراقيل، بل وأقنعت ديجول في آخر فبراير ١٩٤٣، بعودة الفرقة الثانية، وكانت قد وصلت إلى سورية، فغيرت وجهتها ووصلت إلى ليبيا في أواخر مارس ١٩٤٣. ومن ثم تمركزت الفرقة الأولى في منطقة بئر حكيم، وظلت الثانية تنتظر إشارة التحرك. إضافة إلى أفراد المظلات الفرنسيين، الذين أتموا تدريباتهم في الإسماعيلية، والكتيبة المدرعة بقيادة ريمي، ليصل عدد المقاتلين الفرنسيين إلى اثني عشر ألف مقاتل.

معركة بئر حكيم

في يوم ٢٧ أبريل ١٩٤٣، بدأت القوات الألمانية والإيطالية، بقيادة رومل، هجومها الضخم على منطقة بئر حكيم، فتصدت لها القوات الفرنسية وهزمتها، ودمرت أربعين دبابة إيطالية. ثم في يومي ٢٨ و٢٩ أبريل ١٩٤٣، تمكنت القوات الفرنسية من تدمير خمس عشرة دبابة، واستولت على مائتين أخريين.

وفي ٣٠ أبريل ١٩٤٣، اضطر رومل إلى الانسحاب. وفي ٢ يونيه ١٩٤٣، اندفعت الفرقة الفرنسية، بقيادة بروش، إلى مركز روتوندا سينيالي، على بعد خمسين ميلاً غربي بئر حكيم، واستولت عليه. ونقلت إذاعات العالم أنباء الانتصار الفرنسي. وفي يوم ٣ يونيه عاود رومل هجومه، وسحق لواءً بريطانياً، وعبر حقل الألغام من غزالة إلى بئر حكيم، واحتدم القتال مع الفرنسيين، وشدد رومل الخناق عليهم، وراحت بطاريات مدافعه الثقيلة تصب قذائفها على القوات الفرنسية، بينما أخذت الطائرات الألمانية الستوكا واليونكرز في أسراب، كل سرب منها مائة طائرة، تقصف مواقع الفرنسيين خمس مرات كل يوم.

وساء موقف الفرنسيين في بئر حكيم، وتأخر وصول الإمدادات إليهم، ووجه إليهم رومل في ٣ يونيه ١٩٤٣، إنذاراً بخط يده، يحثهم على الاستسلام وإلقاء السلاح، ولكن الفرنسيين رفضوا. وفي ٧ يونيه ١٩٤٣، اشتد حصار الألمان والإيطاليين لبئر حكيم،

وشددوا وطأة هجومهم في يومي ٨ و ٩ يونيه ١٩٤٣، والفرنسيون يقاومون ببسالة، وإذاعات العالم تشيد بذلك، وخرجت عناوين الصحف العالمية، في ١٠ يونيه ١٩٤٣ كالتالي: «دفاع الفرنسيين البطولي»، «هزيمة الألمان في بئر حكيم».

وأرسل ديجول إلى قائد القوات الفرنسية في بئر حكيم، الجنرال كونيج، قائلاً: «أيها الجنرال كونيج، اعلم، وقل لرجالك إن عيون فرنسا كلها معلقة بكم، وإنها تعتبركم فخرها وأملها الوحيد».

وفي صباح ١١ يونيه ١٩٤٣، تمكن كونيج، مع فريق كبير من رجاله، (أربعة آلاف فرد)، من الإفلات من الحصار، والوصول إلى منطقة الجوبي، بعيداً عن متناول العدو، بعد أن ترك في الميدان نحو ١٢٠٠ فرد، من الضباط والجنود بين قتيل وجريح وأسير، ومن بين القتلى ثلاثة من كبار الضباط، منهم العقيد بروش.

وفي ١٢ يونيه ١٩٤٣، أعلنت القيادة الألمانية أن قواتها تمكنت من اقتحام بئر حكيم، وأذاع راديو برلين البيان التالي:

«بما أن الأسرى الفرنسيين ليسوا من جيش نظامي، فإن حكم الإعدام سيطبق عليهم».

وبعد ساعة واحدة أعلن ديجول عبر إذاعة لندن، وبلغات دولية مختلفة، الإنذار التالي:

« إذا كانت القيادة الألمانية قد تنكرت لمبادئ الشرف، وتريد أن تنفذ حكم الإعدام في الأسرى الفرنسيين، الذين يدافعون عن وطنهم، فإن الجنرال ديجول يعلن آسفاً أنه سيرد بالمثل، وينفذ حكم الإعدام في الأسرى الألمان ».

وتراجعت القيادة الألمانية، وأعلنت في مساء اليوم أنها ستعامل الجنود الديجوليين معاملة أسرى الحرب كغيرهم.

وفي ذلك اليوم ١٢ يونيه ١٩٤٣، كان سرب طائرات الألزاس الفرنسي يشارك مقاتلات الحلفاء في هجومها من «سيدي براني»، وسرب اللورين يشارك المقاتلات البريطانية في الهجوم على طرق مواصلات الألمان. وتمكن رجال المظلات الفرنسيون،

في ليلة ١٢ يونيه ١٩٤٣، من تدمير اثنتي عشرة طائرة من طائرات الألمان والإيطاليين، في المطارات الليبية، وإحراق إحدى وعشرين قاذفة ألمانية، وتحطيم خمس عشرة شاحنة في جزيرة كريت، وحرق مستودع وقود في مطار كنديا.

وفي اليوم نفسه ١٢ يونيه ١٩٤٣، أرسل الجنرال أوكنلك بياناً رسمياً يقول فيه:

«على عصبة الأمم أن تبدي تقديرها وإعجابها، وتقر بفضل القوات الفرنسية وقائدها العظيم».

ثم في ١٨ يونيه ١٩٤٣، احتشد عشرات الألوف من الفرنسيين، مدنيين وعسكريين، في قاعة ألبرت بلندن وخارجها؛ للاحتفال بالذكرى الثانية لميلاد فرنسا الحرة، ودخل ديجول القاعة،وتصدر أعضاء اللجنة الوطنية وخلفهم لافتة كبيرة مثلثة، تمثل علم فرنسا، يتوسطها صليب اللورين، وعُزفت موسيقى المرسيلياز الشهيرة. ووقف ديجول يخطب في الحاضرين، ويعلن شكره وتقديره، وتقدير فرنسا، للجنود الأبطال والشهداء الأحرار، وقال: «إن بئر حكيم التي شهدت الدماء تسيل من جباه جنودنا، وأرسلت شعاع الأمل في استعادة مجد سليب، جعلت العالم يقف اليوم مقراً بمجد فرنسا.

مع بداية عام ١٩٤٣، برز على المسرح الدولي، سياسياً وعسكرياً، عدد من المتغيرات كان لها أثرها على مسار الأحداث في العالم؛ فقد بدأ ميزان القوى يميل إلى صالح الولايات المتحدة الأمريكية، بصورة أكبر من ذي قبل؛ وذلك بسبب الثروات الهائلة والطاقة الإنتاجية العملاقة، عسكرياً واقتصادياً، وأصبح واضحاً أن قيادة الحلفاء ستكون في يد الولايات المتحدة الأمريكية. والأمر الآخر هو بروز الاتحاد السوفيتي بقيادة جوزيف ستالين، بعد معركة ستالنجراد الشهيرة، قوة عسكرية عالمية لا يُستهان بها. والأمر الثالث، انتهاء سلطة حكومة فيشي الفرنسية على مستعمراتها، خاصة في شمال أفريقيا؛ عقب إعلان هتلر احتلال فرنسا كلها في ١١ نوفمبر ١٩٤٢، بعد نزول القوات الأمريكية والبريطانية في المغرب العربي.

وكانت توجد في شمال أفريقيا قوات فرنسية هائلة مزودة بأسلحة حديثة، وتضم قيادات عسكرية لها خبرتها الطويلة. وكانت المشكلة من يقود هذه القوات من الفرنسيين، التي يصل عدد أفرادها إلى نحو ٢٣٠ ألف جندي، وأخذ ديجول يخطط

لضم هذه القوات إلى قواته، واستمالة الجنرال جيرو، القائد البارز لهذه القوات، والذي حظي بدعم أمريكي وبريطاني كبير، بل تعهد له الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت بمساعدته في تجهيز جيشه، بحيث يكون تحت تصرفه، خلال ستة أشهر، اثنتا عشرة فرقة، في شمال أفريقيا، تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بالمؤن والأسلحة المطلوبة. وكان ديجول قد أرسل برقية إلى جيرو في الجزائر، يقترح عليه عقد لقاء بينهما في الجزائر، أو تشاد بهدف توحيد الجهود، وظل يتابع مراسلته، وفي النهاية، نجح الرئيس الأمريكي في تدبير لقاء يجمع بين ديجول وجيرو، في يناير ١٩٤٣، في حضور الرئيس الأمريكي، ورئيس الوزراء البريطاني. والتقط المصورون الصور التذكارية، وديجول يصافح جيرو. وأخذت الصحف الأمريكية والإنجليزية، في الأسابيع التالية، تمتدح جيرو، وتنادي بأن تكون الوحدة الفرنسية تحت قيادته، ، وتغمز ديجول، بل تصرح بأقوال منها: إنه «طموح فاشل»، و«ديكتاتور المستقبل»، و«بطانته ثلة من الفاشلين والإرهابيين»، وفي الوقت نفسه تصف جيرو بأنه ليس له مطمع سياسي، بل هو ديمقراطي معتدل، يجب على الشعب الفرنسي الثقة به.

اعتمد ديجول أسلوب المناورة ليحتوي هذه المتغيرات، وليتمكن من ترويض جيرو، وسحب البساط من تحت قدميه، وتفويت الفرصة على الأمريكيين والإنجليز في إحلال جيرو محل ديجول في قيادة القوات الفرنسية. وبدأ ديجول فنقل مركز قيادته إلى الجزائر، في يونيه ١٩٤٣، واتفق مع الجنرال جيرو على إنشاء اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، من سبعة أعضاء، تحت رئاسة كل من ديجول وجيرو، ثم تمكن ديجول من ضم سبعة آخرين إلى أعضاء هذه اللجنة، ومعظمهم من مؤيديه.

ووقع خلاف كبير حول أسلوب العمل العسكري، وانتهى بالاتفاق، بتوصية من تشرشل وروزفلت، في يوليه ١٩٤٣، على أن يكون ديجول هو الرئيس الوحيد،وأن يكون جيرو هو القائد العام للقوات العسكرية. وأخيراً استتب الأمر لديجول في نوفمبر ١٩٤٣، حين تمكن من التخلص من جيرو، وأبعده من اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، وخلت قائمة أعضاء اللجنة من اسمه، على الرغم من دعم الرئيس الأمريكي فرانلكين روزفلت له، وميل القيادات الأمريكية والإنجليزية إليه، ورغبتهم في إقصاء ديجول، وتولي جيرو القيادة الفرنسية.

في ١٤ نوفمبر ١٩٤٣، أصدر ديجول أمره إلى الجنرال لوكلير أن يستعد لتحريك القوات الفرنسية إلى فزّان في ليبيا، ويحتلها، ثم ينسق مع قوات الحلفاء، إمّا أن يتحرك إلى طرابلس الغرب، أو إلى موقع آخر، وذلك حين تصل قوات الحلفاء إلى خليج سرت.

وفي ٢٨ نوفمبر ١٩٤٣، أصدر ديجول أمره إلى لوكلير: «تستطيع أن تتحرك، بدءاً من ٢ ديسمبر ١٩٤٣، وفق ما تراه، مع التنسيق مع الجنرال ألكسندر، قائد القوات البريطانية في الشرق، بحيث تتلقى دعماً جوياً فاعلاً».

دور ديجول في الحرب عام ١٩٤٤

بدأ هجوم قوات لوكلير تساندها القوات البريطانية، ودارت المعارك الحامية على مدى أسبوعين، واستولت على مواقع الألمان والإيطاليين في «صبحة»، في ١٢ يناير ١٩٤٤، ثم في «مرزوق»، في ١٣ يناير ١٩٤٤، وأسرت نحو ألف فرد، بينهم أربعون ضابطاً، واستولت على عشرين مدفعاً ألمانياً ثقيلاً، وعدد من المصفحات ومدافع الهاون، والمدافع الرشاشة، والبنادق الآلية، وأصبح الطريق إلى طرابلس الغرب مفتوحاً. وأذاع ديجول أخبار هذا الانتصار، في ١٣ يناير ١٩٤٤، وقال فيه: إن فرنسا قد ثأرت لكبريائها الجريح.

في أواخر يناير ١٩٤٤، وافق ديجول على اقتراح رينيه بليفن، المفوض الوطني للمستعمرات الفرنسية في أفريقيا، بعقد المؤتمر الأفريقي في برازافيل، وحضر المؤتمر جميع حكام المستعمرات؛ بهدف إقامة مجمع فرنسي مشترك. وقوبل ديجول في برازافيل بحماسة وهتاف كبيرين، وافتتح المؤتمر في ٣٠ يناير ١٩٤٤.

قبل ذلك، وفي غضون يناير، اجتمع ديجول وتشرشل، وطلب ديجول زيادة المعدات العسكرية للقوات الفرنسية، وفرْض سيطرته على أي أراضٍ فرنسية تحررها قوات الحلفاء.

وجهت لجنة التحرير مذكرة، في سبتمبر ١٩٤٣، إلى واشنطن ولندن، توضح فيها مقترحاتها أثناء المعركة المقبلة لتحرير فرنسا، وصور التعاون بين الإدارة الفرنسية والقوات الحليفة، وأن يكون إلى جانب الجنرال أيزنهاور جنرال فرنسي، وأن يذهب أحد أعضاء اللجنة إلى فرنسا، ويكون مفوضاً في اتخاذ الترتيبات اللازمة.

في ٣ يونيه ١٩٤٤، أصدر ديجول أمره بأن تصبح لجنة التحرير الوطني هي الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية في المنفى، وفي ٤ يونيه ١٩٤٤، اجتمع ديجول وتشرشل والجنرال دوايت أيزنهاور، القائد الأعلى لقوات الحلفاء، في بورتسموث، واستعرضوا خطة الحرب، والاستعدادات اللازمة، ثم أخرج أيزنهاور وثيقة، عبارة عن منشور، سوف يذيعه أيزنهاور على شعوب أوربا الغربية، وفيه خطاب إلى الفرنسيين ورد فيه: «أنهم بعد تحرير فرنسا يختارون بأنفسهم ممثليهم وحكومتهم». وحاول ديجول الاعتراض، ولكن دون جدوى. وأُذيع المنشور في صباح يوم ٥ يونيه ١٩٤٤. وفي الساعة السادسة من مساء يوم ٦ يونيه ١٩٤٤، أذاع ديجول بياناً إلى الفرنسيين جاء فيه: «لقد بدأت المعركة الكبرى، إنها طبعاً معركة فرنسا، والواجب المقدس على كل فرنسي أنّى كان، وأياً كان، أن يقاتل العدو بكل وسيلة ممكنة. وعلى جميع الفرنسيين طاعة الأوامر الصادرة عن الحكومة الفرنسية، وممثليها الرسميين».

وفي ذلك اليوم ٦ يونيه ١٩٤٤، بدأ إنزال قوات الحلفاء في نورماندي.

وفي الفترة بين ٨ و٢٠ يونيه ١٩٤٤، توالت اعترافات كثيرة بالحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية من تشيكوسلوفاكيا، وبولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورج، ويوغسلافيا، والنرويج.

في ١٣ يونيه ١٩٤٤، سافر ديجول ليشرف على المعارك قرب الساحل الفرنسي في نورماندي. وفي صباح ١٤ يونيه، رست به البارجة «لا كومباتانت»، بقيادة النقيب باتو، عند الكورسول، بالقرب من بورتسموث، وسط فيلق كندي. ثم ذهب إلى مقر القيادة العامة، وقابل الجنرال مونتجومري، قائد قوات الحلفاء هناك، الذي شرح له خطة هجوم القوات الأمريكية من جهة الغرب لتستولي على شربورج، وهجوم القوات الأمريكية من جهة الشرق، لتستولي على مدينة كان.

أخذ ديجول يتفقد المواقع؛ ليؤكد أن كل نقطة يتم تحريرها لابد أن تصير خاضعة لحكومته. ودخل إلى مدينة نورماندي، واستقبله عمدتها دوديمان، وأعضاء المجلس البلدي، وساروا جميعاً على الأقدام، من شارع إلى شارع، وسط ذهول الأهالي، الذي تحول إلى هتاف وحماسة شديدة، وأحاطت الجماهير به تصافحه وتحييه. ثم دخل إلى

مبنى المحافظة، وألقى خطبة فيهم، وبشرهم بنصر فرنسا القريب.

في يوم ١٥ يونيه ١٩٤٤، عاد إلى بورتسموث، ومُنح صليب الحرب للبارجة «لا كومباتانت»، وهي البارجة التي غرقت، بعد ذلك، في الحرب مع الألمان. ثم وصل إلى الجزائر في ١٧ يونيه ١٩٤٤، وهناك جاءته أخبار انتصارات الحلفاء المتتالية في إيطاليا، ودخولهم العاصمة روما. وسافر ديجول إلى إيطاليا في ٢٧ يونيه ١٩٤٤، وقابل نواب بونومي، رئيس الحكومة الجديد هناك، ثم في ٣٠ يونيه١٩٤٤، ذهب إلى الفاتيكان، والتقى البابا بيوس الثاني عشر، واتفقا على إقامة العلاقات وتوطيدها في المستقبل.

في ٦ يوليه ١٩٤٤، سافر ديجول إلى واشنطن، تلبية لدعوة الرئيس الأمريكي، فرانكلين روزفلت، الذي استقبله في البيت الأبيض، ودارت المباحثات ثلاثة أيام متتالية، أقام ديجول في بلير هاوس، واستقبل، في مقر السفارة الفرنسية، معاوني الرئيس الأمريكي، ومن بينهم وزيرا الحربية والبحرية، كما استقبل في بلير هاوس كثيرا من الشخصيات، على رأسها هنري والاس، نائب الرئيس الأمريكي.

أثناء المباحثات مع الرئيس الأمريكي، عرض الرئيس الأمريكي فكرة إنشاء مجلس دولي من أربع دول هي: الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي، والصين، وبريطانيا، ليتولى تسوية مشاكل العالم، ويتشكل إلى جواره برلمان يضم مندوبين من دول العالم. وطلب منه ديجول أن تكون فرنسا ضمن الدول الكبرى، ووعده روزفلت ببحث الأمر. ثم زار ديجول نيويورك، ثم زار كندا، ونزل ضيفاً على الحاكم العام، الكونت داتلون، وزوجته، الأميرة أليس، عمة الملك جورج السادس. ثم عاد في ١٣ يوليه ١٩٤٤، إلى الجزائر.

كانت القوات الفرنسية التابعة لديجول، والتي شاركت في الحرب عام ١٩٤٤ مع دول الحلفاء كالتالي: جيش ميدان عدته ٢٣٠ ألف فرد، وقوات يبلغ تعدادها ١٥٠ ألف فرد، وأسطول حمولته ٣٢٠ ألف طن، يقوده ٥٠ ألف بحار، ويضاف إليه سفن شحن ونقل، حمولتها مليون ومائتا ألف طن، وسلاح جو مكوّن من ٥٠٠ طائرة يقوم على خدمتها ٣٠ ألف فرد. إضافة إلى أفراد المقاومة داخل فرنسا، والذين تكاثر عددهم، وبدؤوا حرب عصابات ضد الألمان، في كمائن يندفعون منها ويشتبكون مع الألمان، أو

ينزعون قضبان السكك الحديدية، ويستولون على القاطرات، أو يهاجمون دوريات الألمان، أو يشعلون النيران في مستودعات الوقود، ومخازن الذخيرة. ثم تشكل الجيش السري من بداية عام ١٩٤٣ من نحو ٤٠ ألف رجل، ووصل عددهم، بعد عام، إلى ١٠٠ ألف، ثم في أثناء حرب التحرير، إلى ٢٠٠ ألف. وكانوا يتلقون العتاد والمال والدعم من حكومة ديجول. وأخذت طائرات الحلفاء تلقي عليهم بالمظلات البنادق، والرشاشات، والقذائف، والمسدسات، والهاون، وكانت هذه الأسلحة - رغم الاحتياطات الزائدة - يصل نصفها إلى أيدي الألمان. وحرص ديجول على إنشاء «لجنة عمل» تتبعه وتشرف على متابعة أعمال المقاومة، وربط أفرادها بالقيادة الفرنسية، ووضع في كل منطقة إدارية مندوباً عسكرياً، يحافظ على الصلة بالمجموعات المسلحة في منطقته، وربطها بالمركز الرئيسي، عن طريق الوسائل اللاسلكية. وفي مارس ١٩٤٤، أمر ديجول بتنظيم أفراد القوات الفرنسية في الداخل، في وحدات عسكرية، حسب النظم المتبعة في الجيوش.

شارك الفرنسيون إلى جانب باقي قوات الحلفاء في الحروب والمعارك البرية والبحرية والجوية، وأخذ أعداؤهم يتقهقرون أمامهم، وتتحرر فرنسا قطعة قطعة، وتمكن رجال المقاومة في الداخل من تعطيل السكك الحديدية في معظم بقاع فرنسا، مما أدى إلى تعطيل ١٨٠٠ قطار، وأكثر من ستة آلاف عربة، وتخريب جميع خطوط البرق والهاتف، واشتعلت المعارك في أواخر يونيه، وطوال يوليه ١٩٤٤. ودخلت قوات الحلفاء مدينة ليون، خلال ذلك، وزحفت في ١٥ أغسطس ١٩٤٤، إلى ساحل بروفانس، وجرينوبل، وكارنول، ولوك، وموي، ثم في ١٦ أغسطس ١٩٤٤، دخلت رايول وكافالبير وسان تروبيز وسان ماكسيم، وحاصرت طولون في ١٨ أغسطس ١٩٤٤، وزحفت إلى مرسيليا، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا، وكانت التظاهرات مشتعلة فيها، منذ أول يوليه ١٩٤٤، ورفع المتظاهرون في ١٤ يوليه ١٩٤٤ العلم المثلث الألوان، وأنشدوا «المارسيلياز» وهتفوا: «يحيا ديجول». وفي ١٠ أغسطس ١٩٤٤، رفع المسجونون الأعلام في نوافذ السجون، وهاجموا السجانين، وهم ينشدون الأناشيد الوطنية، كما أضرب عمال السكك الحديدية. وفي ١٥ و ١٨ أغسطس ١٩٤٤، أضربت الشرطة وعمال البريد. واستعد ديجول لنقل وحدة عسكرية فرنسية كبيرة إلى

باريس، وأن ينتقل بنفسه إليها.

غادر ديجول الجزائر في ١٨ أغسطس ١٩٤٤، إلى الدار البيضاء في المغرب، ومكث فيها بقية اليوم، ثم غادرها يوم ١٩ أغسطس ١٩٤٤، إلى جبل طارق، ثم على متن طائرة أمريكية وصل إلى موبرتوي في صباح يوم الأحد ٢٠ أغسطس ١٩٤٤، وتحرك إلى كوتانس وأفرانش وفوجير وشربورج ورين، وفي كل منها خرجت الجماهير تحييه، حاملة الأعلام، وتنشد المارسيلياز. ثم في ٢٣ أغسطس ١٩٤٤، سار في الطريق إلى لافرته، ثم برنار، ونوجان، وشارتر، وقوبل بالتظاهرات والهتافات: «عاش ديجول»، وأقام في قصر «رامبويه»، وهناك سمع راديو لندن يذيع في مساء اليوم نفسه، أن قوات المقاومة الفرنسية قد تمكنت من تحرير باريس. وفي اليوم التالي ٢٤ أغسطس١٩٤٤، أرسل الملك جورج السادس برقية إلى ديجول يهنئه فيها.

ديجول يعود إلى باريس

دخل ديجول يوم ٢٥ أغسطس ١٩٤٤، باريس بسيارته، ودخل إلى وزارة الحربية الساعة الخامسة مساء. ومن هناك، تحرك إلى دار المحافظة. ثم سار مشيا على قدميه، وسط زحام الجماهير، التي احتشدت لتحيته، وهي تهتف له، وخطب فيهم يدعو الأمة الفرنسية كلها لأداء واجب القتال، والوحدة الوطنية. وفي اليوم التالي، السبت ٢٦ أغسطس، سار على قدميه في شارع الشانزلزيه، بين مئات الألوف من الفرنسيين، وهم يحيونه بالهتافات، ويرد التحية بيديه، حتى وصل إلى ساحة الكونكورد، وأخذ يتأمل اللوفر، وتمثالي جان دارك وهنري الرابع، وقصر سان لويس، وكنيسة نوتردام الشهيرة.

بدأ ديجول إنشاء حكومة فرنسية جديدة، تتولى مهام الدولة، وتواصل الحرب ضد الألمان، وتحرير بقية الأراضي الفرنسية، لتصبح فرنسا من الدول الأوربية البارزة، بل من الدول العظمى في العالم. وأعلنت الولايات المتحدة الأمريكية في ٢٤ أكتوبر ١٩٤٤ الاعتراف رسميا بحكومة فرنسا المؤقتة، برئاسة شارل ديجول، وتلا ذلك اعتراف بريطانيا وبقية دول العالم. وفي ١٣ نوفمبر ١٩٤٥، انتخب البرلمان الفرنسي شارل ديجول رئيسا للوزراء.

عندما حضر الجنرال شارل ديجول مؤتمر يالطا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية

وانتصار الحلفاء عسكريا، أدرك أن أوروبا قد فقدت دورها العالمي، وان قوتين عظميين قد تشكلتا هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وأنهما سوف تقتسمان النفوذ في العالم. وبحزن عميق لاحظ أن أوروبا كلها - لا ألمانيا وإيطاليا فقط - كانت الخاسر الأكبر في الحرب، وأنه لا بد من تشكيل قوة ثالثة قادرة على أن تقول لا للجبارين الحليفين - اللدودين، القريبين - البعيدين، اللذين قاما على أنقاض الإمبراطوريات الأوروبية التي راحت تغيب عنها الشمس. وهذا ما حاول ديجول تحقيقه حين تحول من الممارسة العسكرية إلى الممارسة السياسية وتوصل إلى أن يصبح رئيس الجمهورية الفرنسية الخامسة.




DE GAULLE (1890-1970)

الفصل السابع عشر

ديجول والاستقرار الدستوري

كانت المسالة الجزائرية في طليعة اهتمامات ديجول. فقام بعدة زيارات إليها بعد توليه رئاسة الحكومة، حيث أدرك أن الحل الوحيد هو منحها الاستقلال. وفي تشرين الأول ١٩٥٨ أطلق نداء لتحقيق «سلام الشجعان»، وبعد توليه رئاسة الجمهورية عرض على الجزائريين منحهم حكما ذاتيا، ولكن الأزمة لم تحل إلا عند التوصل إلى اتفاقات آفيان بين الحكومة الفرنسية و«الجبهة الوطنية لتحرير الجزائر»، والتي وافق عليها الشعبان الفرنسي والجزائري في استفتاء عام، وبنتيجتها حصلت الجزائر على استقلالها التام بعد حل مسالة الجزائر عمل ديجول على تحسين صورة فرنسا لدى العالم وتقوية مركزها الدولي وتمايزها عن سواها من الدول.

كانت الجمهورية الرابعة قد أقرت سياسة إنتاج الأسلحة النووية. وفي شباط ١٩٦٠ فجرت فرنسا قنبلتها النووية الأولى. وراح ديجول يعمل على سحب فرنسا تدريجيا من قوات حلف شمال الأطلسي رافضا الوصاية الأمريكية على السياسة الفرنسية. وقد اكتمل ذلك الانسحاب عام ١٩٦٦، وإن كانت فرنسا قد بقيت عضوا في الحلف. ومن جهة أخرى عمل ديجول على أن تكون أوروبا «أوروبية فعلا»، فقوى علاقاته بألمانيا الغربية، وفي ٢٢ كانون الثاني - يناير ١٩٦٣ صدرت معاهدة الآليزيه التي أنشئت بموجبها السوق الأوروبية المشتركة، وعمل ديجول على إقصاء بريطانيا عنها باعتبارها واقعة تحت الوصاية الأميركية. وجاءت «السياسة الزراعية المشتركة»، بعد عدة أشهر، لتعزز من قوة وتأثير السوق الأوروبية المشتركة ومركزها الدولي.

وتابع ديجول سياسة تحسين العلاقات مع البلدان التي كانت في السابق مستعمرات فرنسية ومع سواها من بلدان العالم الثالث داعيا إلى تطبيق سياسة «رفع أيدي» الدول الكبرى عن الدول الصغرى وعدم التدخل بشؤونها أو ممارسة الضغوط عليها لكي تتخذ مواقف مؤيدة لهذه الدولة الكبرى أو تلك. وقد أدى ذلك إلى قيام علاقات جيدة ومتينة بين فرنسا ومعظم بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية. واعترف بجمهورية الصين الشعبية(١٩٦٤)، وندد بسياسة أميركا وتورطها في فييتنام في خطاب ألقاه أثناء زيارة لكمبوديا (١٩٦٦)، كما ندد بالعدوان الإسرائيلي على البلدان العربية (٥ حزيران ١٩٦٧) داعيا إسرائيل إلى الانسحاب من «الأراضي» التي احتلتها خلال حرب الأيام الستة. وتوج ذلك كله بخطابه الشهير: « عاشت كويبيك حرة» (تموز ١٩٦٧) والذي تضمن نقدا شديدا للإمبريالية الأميركية ودفاعا عن الوجود التاريخي الفرنسي في أمريكا الشمالية، ملمحا إلى الدور الذي لعبته القوات الفرنسية بقيادة لافاييت في تحقيق استقلال الولايات المتحدة نفسها.

ومن جهة أخرى فإن رغبة ديجول في تكوين أوروبا قوية «من الأطلسي إلى الأورال»، جعلته يقترب من الاتحاد السوفيتي رافعا شعار « التفهم والتفاهم والتعاون» مع الدولة الشيوعية. وقد بدأ ذلك بزيارة قام بها إلى موسكو في حزيران ١٩٦٦. وبذلك صارت فرنسا قوة عالمية مرموقة، يحسب لها حساب في السياسة الدولية.

لم يكن بإمكان فرنسا تحقيق ذلك المركز واكتساب القوة لولا الاستقرار الدستوري في الداخل. وهذا ما فعله ديجول فور تسلمه رئاسة الحكومة، وطلبه إقرار دستور جديد؛ وهو الذي عرف باسم دستور الجمهورية الخامسة. وقد تابع ذلك عبر سلسلة إصلاحات دستورية، أهمها التشريع الذي نظم انتخابات رئاسة الجمهورية ونقلها من مجلس النواب إلى الشعب مباشرة. لقد كان ديجول قويا خلال فترة حكمه الأولى، خصوصا أنه جاء إلى الحكم بأكثرية شبه مطلقة وبمناشدة كافة السياسيين له أن يتولى الحكم كمنقذ، ولكنه أراد أن يتمتع مركز رئاسة الجمهورية نفسه بتلك القوة والسلطة والاستقلالية عن مجلس النواب وعن الألاعيب السياسية الداخلية على اختلافها. وقد كان هو نفسه أول رئيس ينتخبه الشعب الفرنسي عام ١٩٦٥، بعد انتهاء ولايته الأولى. وكان منافسه في تلك الانتخابات الرئيس الفرنسي (اللاحق) فرانسوا ميتران.

لقد عاشت فرنسا منذ نهاية الجمهورية الرابعة وطوال الجمهورية الخامسة فترة من الازدهار الاقتصادي الذي لم تشهده من قبل، وكانت البطالة شبه معدومة، والخدمات الاجتماعية على أفضل ما يرام، ومع ذلك فقد نشبت أحداث أيار ١٩٦٨ التي شاركت فيها جماعات من الطلاب والعمال، والتي وصف أحد المعلقين الصحفيين المشاركين بها بأنهم جماعة من « الضجرانين من استقرار الحياة السياسية والاجتماعية» أكثر مما هم جماعة من أصحاب المطالب. ولم يستبعد معلقون آخرون أن تكون للصهيونية العالمية التي ساءها موقف فرنسا من حرب حزيران بعد إحدى عشرة سنة فقط على مشاركتهما معا في العدوان الثلاثي على مصر، وخصوصا أن زعيم الطلاب كان يهوديا اسمه كوهين بانديت، وقد اختفى عن مسرح الأحداث بعد اعتزال ديجول.

على أية حال، حاول ديجول حل الأزمة باقتراح إصلاحات اجتماعية رفضها مجلس النواب. فقام ديجول بحله . وفي نيسان من العام التالي دعا ديجول الشعب الفرنسي إلى استفتاء على مسودة إصلاحات مؤكدا أنه سيستقيل من منصبه إذا لم يوافق الشعب على تلك الإصلاحات. وقد جرى ذلك الاستفتاء في السابع والعشرين من الشهر نفسه، وكانت نتيجته سقوط الاقتراحات بأكثرية ٥٢.٤٪. ووفى ديجول بوعده فاستقال في اليوم التالي.

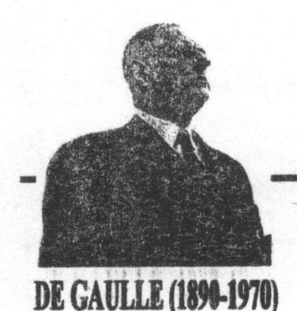
أمضى ديجول فترة تقاعده القصيرة في قرية صغيرة اسمها كولومباي لا دو زيجليز ، ممتنعا عن الإدلاء ببيانات أو تصاريح سياسية، متابعا كتابة مذكراته التي بدأها عام ١٩٥٤ . ولكنه لم يستطع أن ينجز سوى الجزء الأول منها «ذكريات الأمل» قبل أن توافيه المنية في التاسع من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٠ . وقد أقيم قداس رسمي عن راحة نفسه في كنيسة نوتردام دو باريس بحضور الرسميين الفرنسيين ورؤساء دول العالم،فيما كان جثمانه يوارى الثرى في كولومباي بحضور أفراد عائلته ورفاقه في السلاح وأبناء القرية المعدودين، ومن أهم إنجازاته :

- الرئيس «شارل ديجول» حظر بيع السلاح لإسرائيل..
- ووقف إلى جانب الشعب العربي عام ١٩٦٧.

في كل دولة من دول العالم هناك أعلام لا تُنسى لأنها عملت على مصلحة الشعوب

والنهوض بها نحو الأمام، والشعب الفرنسي ينظر إلى الزعيم «شارل ديجول» على أنه الأب الروحي الذي يعود له الفضل الكبير في استقلال «فرنسا» وتخليصها من الجيوش النازية إبان الحرب العالمية الثانية، فهو لم يتوقف عن دعم شعبه، فعندما نُفي إلى «لندن» أطلق الشعارات التي كانت تلهب الفرنسيين وتدفعهم إلى المقاومة.





DE GAULLE (1890-1970)



الفصل الثامن عشر

محاولات اغتيال ديجول

في عام ١٩٦٢ تعرض «ديجول» لمحاولتي اغتيال من منظمة الجيش السري المكونة من أوروبيين وجنرالات فرنسيين، فقد أدهشهم جلاء الفرنسيين عن الجزائر فقاموا بمؤامرات لاغتياله وقد نجا منهما وباءت أعمالهم بالفشل.

كان «ديجول» شخصية مهابة ومتحفظة وصارمة، وقد عمل من أجل أمته وشعبه، وأقام علاقات جيدة مع الدول العربية والبلدان الاشتراكية، واعترف بالصين الشعبية، وفي حرب الـ ٦٧ «نكسة حزيران» حظر «ديجول» بيع السلاح إلى إسرائيل ووقف إلى جانب الشعب الفلسطيني والشعب العربي ككل.

استقال من منصبه عام ١٩٦٩ واعتزل العمل السياسي، وبدأ بتدوين مذكراته ومؤلفاته ومن أهمها: «الخلاف مع العدو» التي كتبها عام ١٩٢٤، و«حدّ السيف» عام ١٩٣٢، وكتابه الثالث «نحو جيش المستقبل» الذي صدر عام ١٩٣٤، وفي عام ١٩٣٨ أصدر كتاب «فرنسا وجيشها»، ثم في تشرين الأول ١٩٤٦ أصدر كتاب «مذكرات حرب» وبيع منه مائة ألف نسخة خلال خمسة أسابيع.

توفي الزعيم «شارل ديجول» في ٩ تشرين الثاني ١٩٧٠ بنوبة قلبية عن عمر ناهز الثمانين عاماً، ودفن في قريته القريبة من مدينة «ليل» الفرنسية، وإلى الآن مازال رمزاً لفرنسا يحتذي به في نظر الشعب الفرنسي.


DE GAULLE (1890-1970)

الفصل التاسع عشر

فرنسا ما بعد شارل ديجول

يذكر المفكر الصربي، المتمرد على طروحات العولمة، دايان ميروفيتش في كتابه القيم (كوسوفو- فلسطين ،نظام الأزمات) بأن فرنسا كانت إحدى الدول التي حاولت انتهاج سياسة مستقلة في الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن مثل هذه السياسة لا يمكن أن تنسب لشخص بشكل دقيق إلا لرئيس فرنسا بعد عام ١٩٤٥ شارل ديجول. ومؤلف الكتاب المذكور عضو برلمان صربيا عن الكتلة الراديكالية المعارضة يطرح سطورا من تاريخ فرنسا لكي يعزر السياسيين الحاليين في بلاده (صربيا) لاندفاعهم ولهثهم في الجري وراء حلف الناتو من دون نتيجة سوى إذلال البلاد وتمزقها وزيادة مستوى الفقر وتفكك منظومة القيم.

يقول ميروفيتش : كان ديجول رائدا للسياسة الفرنسية المستقلة. ففي فترة رئاسته حصلت تطورات كبيرة، سحبت فرنسا أسطولها البحري من حلف الناتو وذلك عام ١٩٦٣ وخرجت رسمياً من هذه المنظمة و قدمت طلبها بأن ينقل مقر الشارة العليا إلى بلد آخر وأن ترحل القواعد العسكرية الأمريكية عن الأراضي الفرنسية.

ظهر ديجول صلباً وحدياً وذا مواقف واضحة، ولو قدر اليوم للسياسيين أذناب أمريكا في بلادنا - صربيا - أن يجدوا من يطرح ما قاله ديجول لنعتوه (بالانعزالية و«عدو التكامل» أو يصفوه بأنه «من أزلام النظام السابق» وغيرها من الاتهامات الرائجة.

لقد أعلن ديجول في إحدى خطبه قائلاً:« نحن وحدنا نقول لا للهيمنة الأمريكية، لم تستطع ألمانيا أن تقول ذلك ولا إيطاليا ولا بلجيكا ولا هولندا، لا يستطيعون نطق كلمة لا. نحن فقط نقولها ومن واجبنا أن نقولها. ونحن نأخذ بنظر الاعتبار التلون والتقلب البريطاني، والتبعية الألمانية والتغييب الإيطالي، أما نحن سنبقى هكذا إلى أن يأتي الآخر إلينا مجبراً لصحبتنا».

ونفهم من هذا كيف تحرك الأمريكيون ضد السياسة الديجولية لأن سياسة ديجول هذه لم تؤد إلى خروج فرنسا من حلف الناتو فقط بل قد تولد نوع من التحريض الذي ينتهي إلى إمكانية خروج بقية الدول نحو الاستقلال.

ويعتقد المحللون السياسيون أن ضمن هذا السياق نفذ الناتو عدوانه ضد يوغسلافيا الاتحادية عام ١٩٩٩ وكأنه يريد أن يعيد وحدة الناتو.

ومع ذلك أن موضوعاً كهذا يجب أن يدعم بالأدلة، فعندما ننظر إلى ما حدث بعد موت ديجول، سنرى أن الرؤساء الفرنسيين اللاحقين أبدوا ميولاً نحو تلطيف العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وقد ذهب جاك شيراك خلال التسعينيات بهذا الاتجاه إلى أبعد حد.

واشتركت فرنسا، في عام١٩٨٢ مع الولايات المتحدة بالتدخل في الشأن اللبناني. واضطرت تلك القوات إلى الرحيل بعد عملية انتحارية في لبنان أدت إلى مقتل عشرات من الجنود الفرنسيين وأكثر من (٢٠٠) جندي أمريكي.

واشتركت فرنسا مع الولايات المتحدة بالعدوان على العراق في عام ١٩٩١. وبعد ذلك في عام ١٩٩٣ اشتركت فرنسا مع الولايات المتحدة في عملية (منع الطيران) في البوسنة باستخدام طائرات (الميراج وطائرات الاستطلاع (C٢٠٠٠) وطائرات الاستطلاع .FICR وE3-.2000C

كانت حاملة الطائرات (كلمنصو) في بحر الأدرياتيك عام ١٩٩٤ فانطلقت منها الطائرات الفرنسية وشاركت في هجوم الناتو على المواقع الصربية في البوسنة. وفي عام ١٩٩٥ قامت فرنسا بعملية مشابهة للعملية السابقة.

سافر وزير الدفاع الفرنسي في ١٩٩٤/٦/٢٩ إلى واشنطن للقاء مع زملائه الأمريكيين للتنسيق بشأن العمليات الحربية التي ستشن على البوسنة والهرسك.

علق الجنرال بيير غالوا، أحد المقربين السابقين للرئيس ديجول وهو أحد واضعي البرنامج النووي الفرنسي، بشكل واضح ومكشوف على سياسة التبعية الفرنسية للولايات المتحدة إذ قال: «ثلاث سنوات بعد التوقيع على معاهدة ماستريخت حصلت هزيمة لسياسة الأمن والدفاع المشترك تلك السياسة الأوروبية التي كانت فخراً وشموخاً وسبباً دافعاً لدى الداعين لفكرة الوحدة الأوروبية. ولكن بنفس الوقت وضعت القوات الجوية والبحرية على السواحل الإيطالية وأصبحت بالحال تحت إمرة الأدميرال (ج بوردا) قائد الأسطول السادس الأمريكي آنذاك إذ أنيط بالناتو واجب المشاركة في العمليات الحربية التي سوف تنفذ ضد يوغسلافيا الاشتراكية بالبوسنة والهرسك.

وبذلك تحولت السياسة الأوروبية من سياسة خارجية أصيلة وأمن مشترك لأوروبا، تحولت إلى سياسة تجديد الوهن والضعف. وبناء على دعوة فرنسا تم إبرام معاهدة المعروفة التي أدت بنا إلى نظام أمني وسياسة خارجية مشبعة بالضعف الأمريكي». هكذا قال غالوا.

إذن قامت فكرة سياسة الدفاع الفرنسية (الأوروبية) المستقلة في تغيير الرأي العام السياسي الفرنسي وهي فكرة مثيرة للضحك لعدم وجود أي شخص يسمح له أن يتنكر لديجول. فإذا حصل ذلك ستكون بمثابة سياسة انتحارية تهد أركان الجمهورية الخامسة.

وتتمثل السياسة الفرنسية الحالية في انصياع القادة السياسيين الفرنسيين وراء الولايات المتحدة الأمريكية فإن الجنرال ويسلي كلارك قد كتب بطريقة غير معهودة قائلاً: «إن دور فرنسا في السنوات الأخيرة داخل الحلف كان دوراً فريداً عكس ما كانت عليه قبل ٣٠ سنة إذ كانت باريس تقف خارج بنية التكامل العسكري للحلف. وكانت فرنسا تنظر إلى الحلف بمنظار أضيق مما تراه بقية الدول الأعضاء. ومنذ منتصف التسعينيات فإن أعضاء الحلف شجعوا فرنسا وحثوها على التكامل العسكري ضمن

البنية العسكرية للحلف. وقد رحب الناتو بحرارة بعودة قائد الدفاع الفرنسي إلى اجتماعات القيادة العامة للدفاع وتمت تسمية ممثل الجيش الفرنسي في القيادة العسكرية للناتو. لقد أصبح لدينا اليوم فريق عمل استثنائي لقيادة العمليات.

إن الفرنسيين يستجيبون لنا دائماً ففي اللحظة التي يدعوهم فيها الحلف نراهم يقفون بصلابة جنباً إلى جنب مع بقية الأعضاء».

يبدو أن فرنسا من قبل قصف جمهورية يوغسلافيا الاتحادية بكثير كانت تتمسك بالموقف الديجولي وهي تواجه التكامل الأمني العسكري للحلف. وكأن عدوان الناتو على جمهورية يوغسلافيا الاتحادية عام ١٩٩٩ ليس له هدف الضبط العسكري والركوع لدول أوروبا الغربية، كما هو الحال لفرنسا التي كانت عام ١٩٩٩ عضواً أكثر من مخلص للناتو.

ومع ذلك لم يقرب عدوان الناتو بين فرنسا والولايات المتحدة، بل على العكس، كان هيجان الطيران الأمريكي وقادته، أثناء العدوان على جمهورية يوغسلافيا الاتحادية عام ١٩٩٩ أثار الغضب وأعطى نتائج سلبية. كالهجوم الجوي على الجسور وعلى محطة راديو وتلفزيون صربيا والأعمال الإجرامية الأخرى ضد المدنيين قد أثارت الاستنكار داخل فرنسا.

وكذلك احتجت الحكومة الفرنسية ضد الخطط الأمريكية التي وضعت لتدمير الجسور في بلغراد. كما رفضت فرنسا وضع جنود في خط مواجهة للقوات الروسية التي دخلت مطار برشتينا.

الدكتور أحمد رضوان شرف الدين في تصريح لـ « الشعب » :

خطاب ديجول حول تقرير مصير هدفه إخراج فرنسا من دوامة الانكسارات

أعطى الأستاذ الجامعي، الدكتور أحمد رضوان شرف الدين، وجهة نظره كمختص في التاريخ حول خطاب الجنرال شارل ديجول بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٥٩، المتعلق بمبدأ تقرير مصير الشعب الجزائري وإنهاء الحرب. بالنسبة له «كان هذا الخطاب يدل على عدة أمور يمكن أن نجملها في كون قيادة الدولة الفرنسية توصلت آنذاك إلى قرار

بضرورة التخلص من العبء الذي أصبحت الجزائر تمثله من كل النواحي : السياسية والعسكرية بطبيعة الحال، لكن أيضا من النواحي المالية والإستراتيجية العامة، الخ».

وأضاف الدكتور شرف الدين: «ينبغي ألا ننسى أن شارل ديجول كان أستاذ مادة الإستراتيجية قبل أن يصبح زعيما سياسيا وقائدا للدولة الفرنسية، بل اختارته الطبقة المسيطرة في فرنسا لهذه المهام لأنه كان يتمتع بتلك الكفاءة. تم ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية ومن جديد في عام ١٩٥٨ عندما تسببت الثورة الجزائرية في تعميق أزمة النظام الفرنسي. ومن هنا جاءت الفكرة الشائعة حول «ديجول منقذ فرنسا» التي روج لها العديد من الكتاب.

وقال أيضا الأستاذ الجامعي أنه «بالنسبة للجنرال الفرنسي كان الوقت قد حان لوضع أسس لعلاقات جديدة بين الجزائر وفرنسا لذاتها ولكن أيضا لتكون الجسر الذي يوصل إلى إقامة علاقات جديدة مع ما كان يسمى «دول العالم الثالث» بصفة عامة. وحسب محدثنا فإن تصريح ديجول الذي أقر فيه بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير يندرج ضمن هذا المسعى المزدوج لإخراج فرنسا من أزمتها: «كانت مواقع الطبقة المسيطرة تتصف بالتدهور المتزايد داخل فرنسا وخارجها. على الصعيد الدولي، كانت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية تسير نحو الاضمحلال وكلما كبرت خسائر فرنسا في هذا المجال وفي غيره، قل وزنها في العلاقات الدولية». وكان ذلك يحدث في وقت كانت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي هما القوتان المهيمنتان على الكوكب وكان العالم الثالث يحاول الإفلات من قبضتهما إلى جانب بعض القوى المتوسطة كفرنسا .

وفي ذات السياق دائما، أوضح الأستاذ شرف الدين أن خطاب ديجول حول تقرير المصير «لم يكن أبدا إعلانا عن التضحية بمصالح فرنسا بالجزائر، كما يقول البعض، وبشكل خاص المستوطنون الذين كانوا يهيمنون على الجزائر. كان هؤلاء يقصدون في الحقيقة التخلي عن مصالحهم هم. وبالفعل كان ديجول من بين الذين قرروا التضحية بهذه المصالح بصورة عامة لأنها أصبحت جزءا من التركة الثقيلة والمكلفة والمعرقلة لنمو الإمبريالية الفرنسية، كما سبقت الإشارة إليه».

وبالمقابل، أكد الدكتور أحمد رضوان شرف الدين أن قيادة جبهة التحرير الوطني كانت تتابع بدقة هذه التطورات الحاصلة في فرنسا وفي العالم، وكانت تعرف أن هذه الأخيرة باتت غير قادرة على الاستمرار في الحرب لمدة طويلة. »من جانبها كانت القيادة الجزائرية آنذاك معنية هي أيضا بـ «تحديد الخسائر البشرية وإراقة الدماء، كما جاء في بيان الفاتح من نوفمبر، نظرا للثمن الباهظ الذي دفعته الجماهير طيلة السنوات الخمس لحرب التحرير ونظرا للصعوبات الكبيرة التي ظهرت منذ عام ١٩٥٨ بصورة خاصة.

وقال أيضا: «إنه من حيث الجوهر، رأت تلك القيادة في إقرار رئيس الدولة الفرنسية بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره خطوة أولى أساسية نحو تحقيق الهدف من الكفاح التحرري، الوارد في برنامج ١٩٥٤ والذي تضمن إلغاء روابط التبعية الاستعمارية القائمة بين الجزائر وفرنسا».

ومع ذلك، أضاف الأستاذ الجامعي المذكور، لم يمنع تلاقي الطرفين عند تلك القناعة من مواصلة الحرب ومن سقوط المزيد من الضحايا، ذلك «لأن كل طرف كان يريد الحصول على أكبر قدر من المكتسبات. فبالنسبة للطبقة المسيطرة في فرنسا كان الهدف يتمثل في السعي للمحافظة على أكبر قدر ممكن من امتيازاتها في الجزائر، امتيازاتها الاقتصادية والثقافية والعسكرية، في حين كان هدف جبهة التحرير يتمثل في الحصول على الاستقلال السياسي. هذه هي بوصلة الطرفين في المفاوضات التي انطلقت فيما بعد وتوصلت إلى اتفاقيات إيفيان كما هو معلوم».




DE GAULLE (1890-1970)

الفصل العشرون

وداعًا ديجول

أربعون سنة كاملة مرت على رحيل الرئيس الفرنسي شارل ديجول جسدا لا روحا، أربعة عقود بالتمام والكمال سرت على مغادرة القائد العسكري شارل ديجول لفرنسا جسما لا فكرا ذلك أن كل ما في فرنسا اليوم من أحزاب سياسية ونقابات عمالية وجمعيات حقوقية ومنظمات إنسانية تتذكره وتقتدي بمقارباته وترى فيه البوصلة الهادية في زمن افتقاد الرؤى والتصورات. كل من في فرنسا اليوم، يدعي أتباعه ويزعم أنه من أنصاره، فالمتظاهرون الرافضون لإصلاحات ساركوزي ينادون باسمه والحكومة ترى أنها تسير على نهجه واليسار يدعو إلى إحيائه وأقصى اليمين يحرض على إعادة قراءة مبادئ المواطنة على الطريقة الديجولية.

هكذا يتحوّل الزعيم إلى أسلوب في الزعامة والقائد إلى نهج في القيادة والرئيس إلى مقاربة في الرئاسة وهكذا أيضا تحول شارل ديجول إلى «سياسة ديجولية».

أواخر القرن التاسع عشر للميلاد.. كان ميلاد شارل ديجول في مدينة «ليل» الساحلية الواقعة أقصى شمال فرنسا في عائلة كاثوليكية مثقفة ربته على المزاوجة بين المحافظة الأخلاقية والثقافة العلمية العالية.

تخرج ديجول من المدرسة العسكرية «سان سير» عام ١٩١٢ برتبة ضابط في شعبة سلاح المشاة وانخرط بسرعة في الجيش الفرنسي وانصهر بسرعة أكبر في حروبه ومعاركه مشاركا في الحرب العالمية الأولى بقوة وبسالة أدتا إلى إصابته بجروح بالغة

وأسره على يد القوات الألمانية وبقائه رهن الاعتقال مدة سنتين ونصف (١٩١٦ - ١٩١٨).

رحلته مع البزة العسكرية تواصلت إلى حد الحرب العالمية الثانية التي كشفت عن بعد سياسي كبير وجانب إستراتيجي عظيم لدى شارل ديجول، ذلك أنه لا زنازير الدبابات النازية ولا جلجلة الرصاصات الألمانية حملته على التخلي عن أرضه وتسليمها للغزاة.

رفض ديجول الهدنة مع الألمان الذين اجتاحوا فرنسا في جوان ١٩٤٠ وغادر فرنسا سرا عندما تولى الماريشال بيتان السلطة متجها نحو بريطانيا حيث قاد مقاومة بلاده في العاصمة البريطانية لندن وترأس حكومة فرنسا حرة.

وكما رفض المساومة على استقلال بلاده، وأعلن الانتفاضة على الألمان، أبى الرضوخ للبريطانيين مطالبا إياهم باعتبار كامل النفقات التي تقترضها حكومة فرنسا الحرة من بريطانيا لدعم المقاومة الفرنسية سلفه، وليست هبة، ترد زمن التحرير.

وكما وفى بعهده للبريطانيين بسداد الدين وفى بعهده للفرنسيين الذين عاهدهم في يوم من أيام الاحتلال الألماني بزوال الغزو الألماني و«محق» أتباعه قائلا لهم: «أيها الفرنسيون لقد خسرنا معركة ولكننا لم نخسر الحرب وسوف نناضل حتى نحرر بلادنا الحبيب من نير الاحتلال الجاثم على صدره».

وما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتّى فتحت أمام ديجول أبواب رئاسة البلاد مرتين الأولى في ١٩٤٥ (عين رئيسا للحكومة الانتقالية وغادرها بسرعة) والثانية في ١٩٥٨ عندما ترأس الجمهورية الفرنسية الخامسة.

لم تختلف سياسته الدبلوماسية عن سياسته العسكرية في شيء، بل كانت امتدادا لها وشكلها الناعم..ذات الوقفة الأبية التي زعزعت أركان «الرايخ النازي» تعددت مثيلاتها وتكاثرت شبيهاتها..

أعادها ديجول عندما قطع علاقات بلاده ب«الأطلسي» في ١٩٦٦ ورفض انضواء فرنسا وأوروبا الغربية تحت أية مظلة سوفياتية كانت أم أمريكية.. وجدها عند تنديده

الصريح بالاحتلال الأمريكي لـ «الفيتنام» وبالسياسة الإمبريالية الأمريكية.. وكررها عند شجبه الواضح لعدوان جوان ١٩٦٧ واعتباره إسرائيل دولة توسعية استعمارية ترفض السلام.. وأعادها عند التوقيع على اتفاقات «آفيان» «الجبهة الوطنية لتحرير الجزائر» والتي أدت في مرحلة لاحقة إلى استقلال الجزائر في ١٩٦٣.

وطالما أن إباء الزعيم السياسي قطعة من إباء الشعب وجزء من كرامته ونتيجة إليه لاكتفائه.. فإن ديجول أبى إلا أن يشعر الفرنسي بعزته في بلاده فأقر دستورا جديدا «دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة» ذا رؤى سياسية وتشريعية متطورة وأدخل إصلاحات اجتماعية واقتصادية مكنت فرنسا من القضاء شبه الكلي على البطالة ومن استرجاع مكانتها التجارية في القارة العجوز.

في ١٩٦٥ حصل ديجول على غالبية أصوات المقترعين في الانتخابات الرئاسية في مواجهة السياسي فرانسوا ميتران وبقيت فرنسا على ذلك النهج الاستقلالي إلى أن اندلعت ثورة العمال والطلبة في ١٩٦٨ على يد الشاب اليهودي (ذي النزعة الصهيونية كوهين بانديت والذي اختفى كليا من المشهد السياسي الفرنسي عقب استقالة ديجول) والتي أدخلت الرئيس ديجول في أزمة مع البرلمان الذي رفض إقرار بعض الإصلاحات التي اقترحها فما كان من ديجول سوى الالتجاء إلى الشعب للاستفتاء بيد أنه رفضها بأغلبية ٥٢ بالمائة من الأصوات.

وبرفض الشعب لمقترحاته اختار ديجول مغادرة «الإليزيه» ومقاطعة السياسة والرجوع إلى قريته الصغيرة، ذلك أنه لا شرعية لبقاء الزعيم صاحب المشروع في منصبه طالما أن جزءا كبيرا من الشعب لا يؤمن بصواب رؤيته وبنجاح أطروحاته.

في ٩ نوفمبر ١٩٧٠ رحل ديجول وترك وراءه تركة سياسية ثقيلة ينوء بحملها جمهرة «الديجوليين الجدد» الذين يرون في مكافحة المهاجرين ومطاردة الغجر وسلب الجنسيات من أصحابها وفاء للعهد الديجولي، بل ويعتبرون أن صم الآذان عن نداءات المتظاهرين وهم بالملايين نسج على منوال الجنرال..

فرنسا اليوم تعيش صراعا بين أدعياء «الديجولية» على «الديجولية».. ما من شيء سوى لأنها لصقت في التاريخ الفرنسي الحديث وصارت جزءا من الهوية السياسية

الفرنسية ولأن المتبارزين اليوم على تركة ديجول أصغر من إكمال ما بدأه الجنرال..

أمجد بن مسعود في الشروق

٢٠١٠/١١/١٣

عصام خليفة يتحدث عن الجنرال شارل ديجول

في الذكرى الأربعين على وفاة الجنرال شارل ديجول، يسلط الدكتور عصام خليفة، أستاذ التاريخ في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية، الضوء على أبرز مراحل حياة الرئيس شارل ديجول. حاورته مارسيل عقل.

مقابلة إعداد مونت كارلو الدولية

سؤال - بعد أربعين عاماً على وفاة الجنرال شارل ديجول، ماذا بقي برأيك من هذا القائد الفرنسي الكبير ؟

هناك جدلية القائد التاريخي والشعب التاريخي. في هذا السياق، أود أن أشير إلى ثلاثة مستويات من بقاء الجنرال ديجول :

على المستوى الفرنسي والأوروبي : على الصعيد الفرنسي كان ديجول ذا رؤية إشرافية. هو الذي كتب عام ١٩٣٢ كتابه عن مكننة الحرب. وكان بعيد النظر وسبق حرب الحركة التي انتصر هتلر من خلالها في الحرب العالمية الثانية.

ثانياً، لم يستسلم ديجول للنازية، وقاد حركة تحرير فرنسا من الاحتلال. انتقل إلى لندن، حيث تولى قيادة حركة التحرير بندائها الشهير من العاصمة البريطانية.

بعد عودته وانتصاره مع الحلفاء في تحرير باريس، قام بإصلاحات كبرى. فهو الذي أنجز الضمان الاجتماعي الفرنسي. كان له رؤية مساواة اجتماعية. صحيح أنه كان مسيحياً مؤمناً، ولكنه كان ذي رؤية ترتكز على العدالة الاجتماعية ومسؤولية الدولة في هذه العدالة.

على الصعيد الاقتصادي قام بإنجاز العملة الفرنسية بإصدار الفرنك الجديد، وأمّم

أكبر أربع بنوك، كما أمّم وسائل الطاقة والنقل الـ SNCF.

على الصعيد الأوروبي آمن ديجول بأهمية الوحدة الأوروبية وعدم تبعية فرنسا وأوروبا لثنائية المحاور، سواء كان ذلك الولايات المتحدة أو روسيا.

كان صاحب رؤية وانفتاح على الصين وعلى العالم الثالث. وكان مع التحرر من عبء الاستعمار. من هنا موقفه من تحرير الجزائر وتقرير مصيرها، وخوض المفاوضات التي أدت إلى استقلال الجزائر وخروج فرنسا من مأزقها في حربها مع الجزائر.

س ـ وماذا عن مواقف شارل ديجول بالنسبة إلى العرب والصراع الإسرائيلي ؟

كان شارل ديجول مؤمناً بعدالة القضية الفلسطينية. حسّن علاقاته مع الرئيس عبد الناصر. ونحن نعرف جيداً أن فرنسا كانت تقف إلى جانب إسرائيل وتمدّها بالسلاح. إنما ديجول هو الذي أعاد التوازن إلى السياسة الفرنسية. كان منفتحاً ومع التفاعل مع العالم العربي.

س ـ عام ١٩٦٧ وبعد أشهر من هزيمة العرب، تلفظ ديجول بعباراتٍ وصف فيها الشعب اليهودي بأنه شعب يثق بنفسه كثيراً...

...ولكنه شعب تجاوز حدوده.

وقف ديجول إلى جانب العرب في حرب ١٩٦٧ . كان يعرف جيداً أن أطماع إسرائيل التوسعية هو أمر مناقض للقانون الدولي ولقرارات الأمم المتحدة. وكان يؤكد دائماً على حق الشعب الفلسطيني في دولته.

س ـ وماذا عن مواقف شارل ديجول بالنسبة إلى لبنان الذي زاره أكثر من مرة؟

عاش ديجول في لبنان سنتين من عام ١٩٢٩ إلى ١٩٣١، وله خطاب شهير في الجامعة اليسوعية، وجّهه إلى الشباب اللبناني، أكد فيه على إصلاح الدولة اللبنانية وأولوية المصلحة العامة. وأكد على دولة القانون والخدمات وعلى دولة الحق أيضاً. وهو أمر نفتقد إليه حتى اليوم. وفي لبنان كتب كتابه الشهير عن مكننة الحرب.

عام ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ عندما كان زعيماً لحركة التحرر الفرنسية، زار لبنان وهو الذي

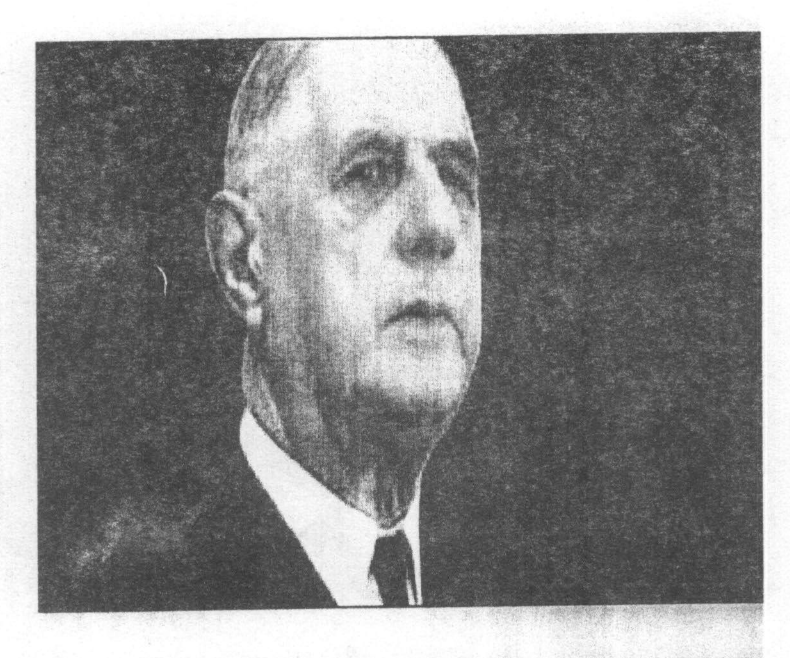
وعد اللبنانيين بالاستقلال مع الجنرال كاترو، لكن في إطار معاهدة. كان متفهماً لانتفاضة اللبنانيين في تشرين الثاني عام ١٩٤٣، وتوصل معهم إلى ما سُمي بالتسوية.

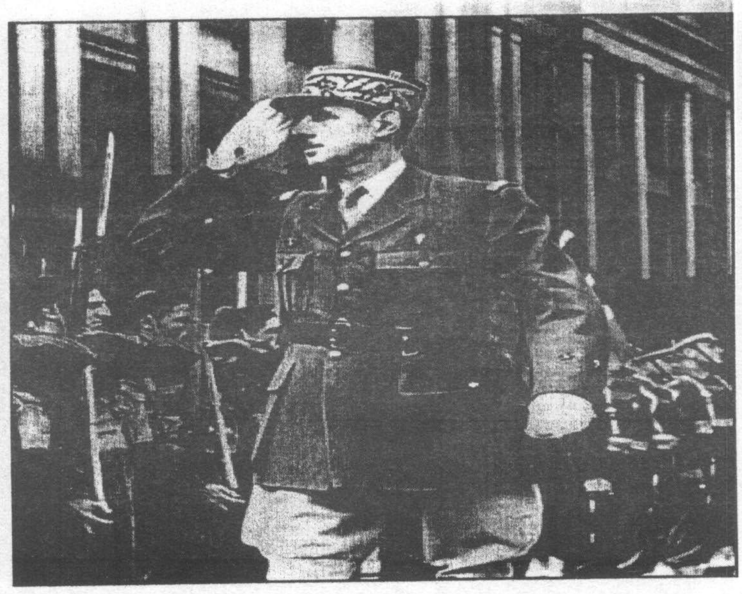
كان صديقاً للبنان وكان يعرف جيداً أطماع إسرائيل في مياه لبنان. وقد حذر في أكثر من مناسبة من هذه الأطماع.

عام ١٩٦٨ عندما قصفت إسرائيل مطار بيروت، منع ديجول تصدير السلاح إلى إسرائيل بعد هذا الهجوم، ووقف إلى جانب لبنان. وأدان الاعتداءات الإسرائيلية، كما أكد على أن لبنان له دوره في التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب.



ملحق صور





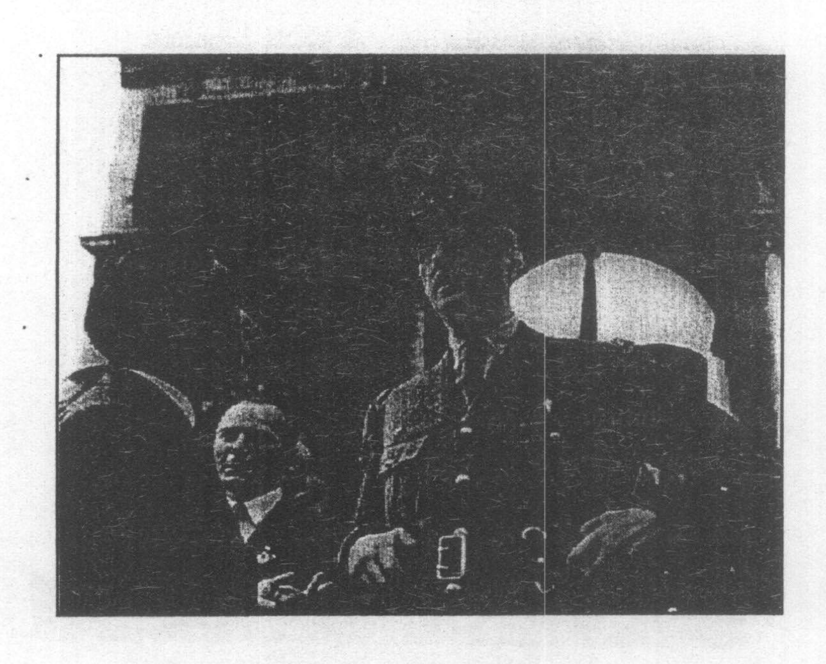








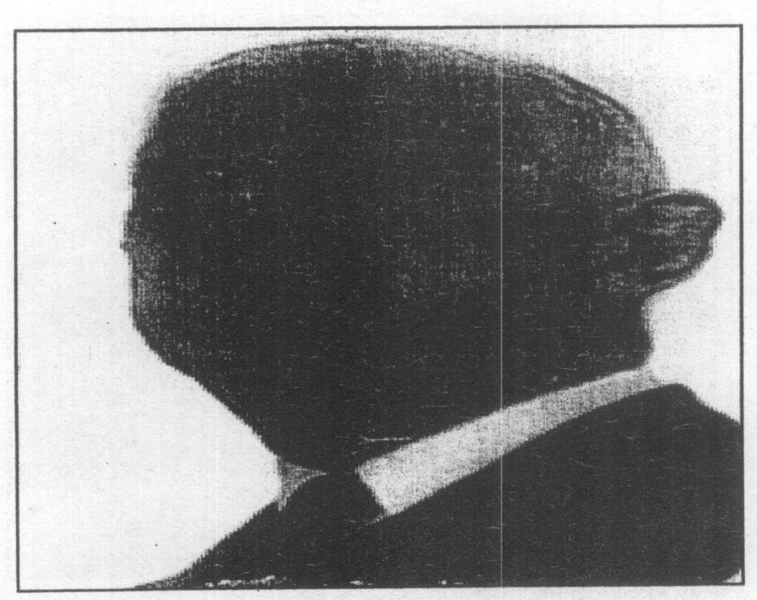


















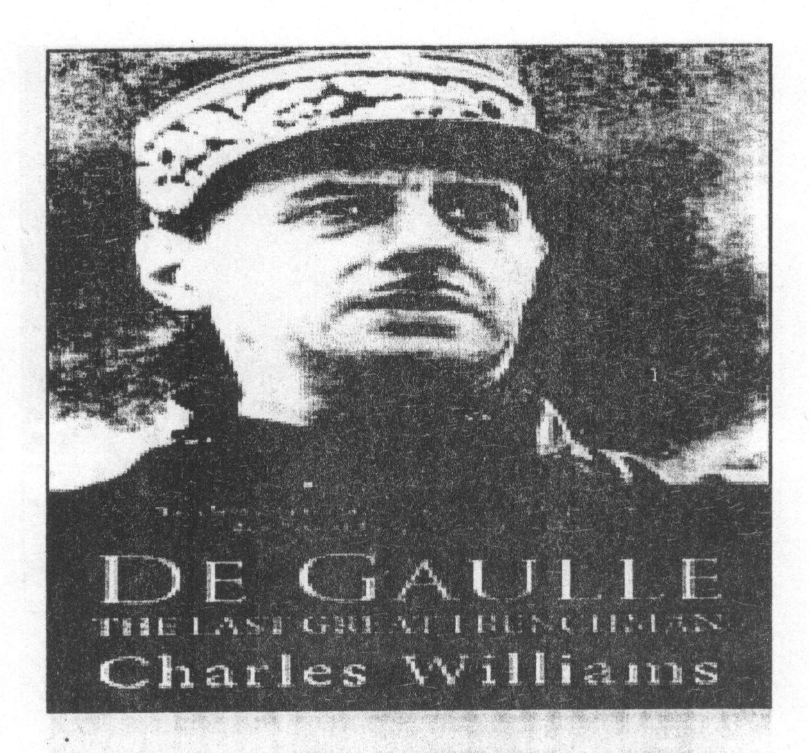




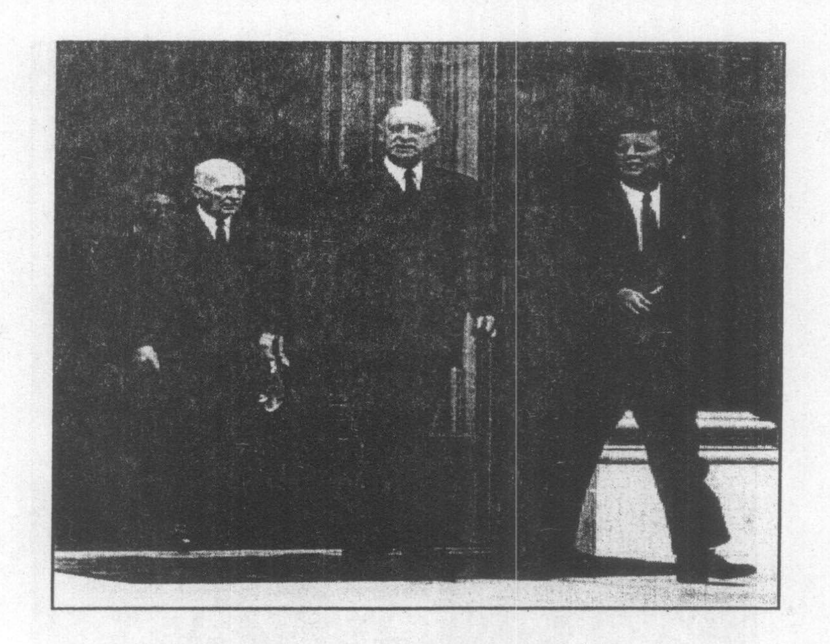







DE GAULLE
THE LAST GREAT FRENCHMAN
Charles Williams

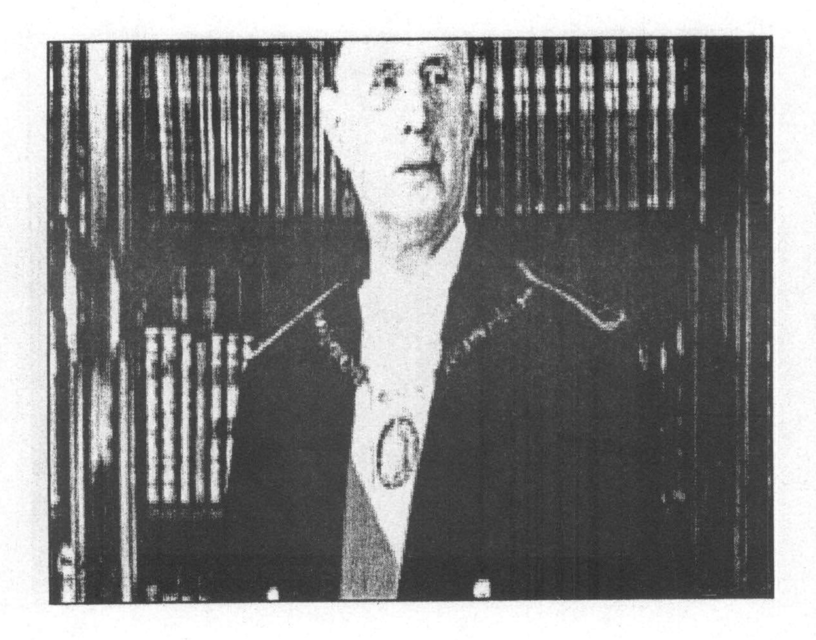






Jan Leighton as
Charles de Gaulle







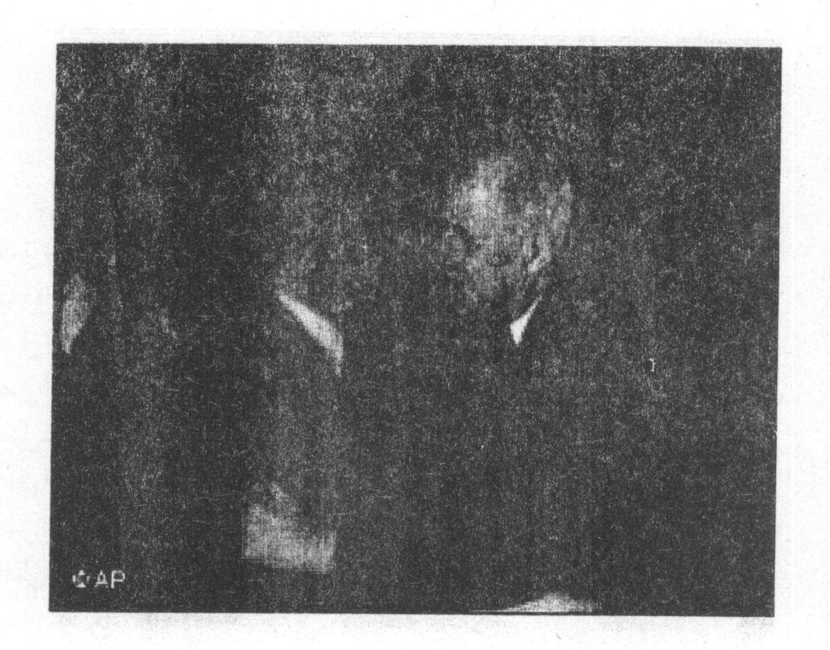









VIVE LA REPUBLIQUE VIVE DE GAULLE


AP

الفهرس